مقالات الرافعي المجهولة

(ج ٢)

(مع وثائق تنشر لأول مرة)

وليد عبدالماجد كساب



مقالات الرافعي المجهولة
(ج ٢)

(مع وثائق تنشر لأول مرة)

جمعها وقدَّم لها
وليد عبدالماجد كساب

كتاب المجلة العربية
249



رئيس التحرير
محمد بن عبدالله السيف

الرياض. طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين). شارع المنفلوطي
هاتف: 4767345 . 4777943 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com
info@arabicmagazine.com



ح المجلة العربية، 1438هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
كساب، وليد عبدالماجد
مقالات الرافعي المجهولة - الجزء الثاني. / وليد عبدالماجد كساب.- الرياض، 1438هـ
224ص؛ 14*21سم.- (كتاب المجلة العربية؛ 249)
ردمك: 978-603-8204-28-3
1 - الرافعي ، مصطفى صادق، ت 1356هـ 2 - المقالات العربية - مصر أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي 962, 814 6902 / 1438

رقم الإيداع: 6902 / 1438
ردمك: 978-603-8204-28-3

المحتويات

| ليســت العظمة بظهور المرء كما يظهر الممثل أمام المتفرجين في خلقة مزوّرة من رأســه إلى قدمه، ولا في هذه الأخيلة الذهبية التي تملأ رؤوس الأغنياء كأنَّها أرواح الذهب، ولا في نحــو ذلــك مــن السَّــخَافات العظيمــة التي مــلأت الشَّــرق كلَّه؛ ولكــن العظمة أحد شيئين: علمٌ منتِجٌ، أو عملٌ مثمِرٌ |

مصطفى صادق الرافعي

مع الرافعيِّ .. مرةً أُخرى!

حين تفضَّلت (المجلة العربية) بنشر الجزء الأول من هذه المقالات المجهولة للأستاذ مصطفى صادق الرافعيِّ؛ لم أكن أتصور أن يتقبَّلها القُرَّاء الأعزَّاء بهذا القبول الحسن؛ وخامرتني فرحةٌ آسرةٌ شابَها شيءٌ من الأَسَف وأنا أتلقَّى المهاتفات والمراسلات من أصدقاء كرام لم يتمكَّنوا من العثور على نسخة واحدة رغم ترقُّبهم المجلة أوان نزولها، وهكذا نَفَدَت نسخ الكتاب وأنا متقلِّبٌ بين الشُّعورين.

ومبعث سعادتي أن الرافعيَّ الذي أُريد له أن يموت أدبُهُ وينقطع في الأمة ذكره قد حظي ببعض ما يستحقه من مكانة بعد سنواتٍ عجاف من التجاهل، واطمأنَّ الناس إلى أن الأفكار الأصيلة لن تموت في دنيانا إذا أخلص صاحبها لها وتعهَّدها بالرِّعاية والسُّقيا، وأنَّ نفيسَ الأحجار مهما انطمر تبقى قيمته الرفيعة؛ فلا يزيدها تعاقب الأحقاب إلا بهاءً ونضارةً.

إنني أُلحُّ دوماً على تأكيد مدى بشاعة المؤامرة التي استهدفت أدب الرافعيِّ في حياته وبعد مماته، إذْ هي جزءٌ لا يتجزَّأ من المؤامرة الكبرى على هويَّة الأمة ومُقدَّراتها الفكريَّة، ويكفينا هنا أن نُورد هذه العبارة التي يقول صاحبها: «كذلك هناك كتاب (على السفود) لذلك الرَّجعيِّ الكبير الذي تجري حالياً محاولاتٌ لإقامته من الأموات (من العجب أن يشارك فيها ناقدٌ ذو ذوقٍ وبصيرةٍ كالدكتور عبدالقادر القط): مصطفى صادق الرافعي»[1]، وربما قصد شفيق تلك الدراسة التي قدَّم بها الدكتور القط لكتب الرَّافعيِّ الثلاثة: رسائل الأحزان، السَّحاب الأحمر، أوراق الورد؛ فهل أخطأ الدكتور القطُّ عندما أثنى على الرافعي وأدبه؟! وهل كان مطلوباً منه

(1) دراسات أدبية: الدكتور ماهر شفيق فريد، ص68.

أن ينظر إلى أدب الرافعيِّ بعين السُّخط التي تبدي المساويا؟! ألهذه الدرجة بلغت كراهيتهم للرجل الذي وقف حارساً أميناً ضد رياح التغريب العاتية وأرادوا له ولأدبه الموت الزؤام؟!

***

إنَّ هذه المقالات التي تُقدِّمها (المجلة العربية) في جزئها الثاني -بعد نفاد الجزء الأول تماماً- تكشفُ بجلاءٍ عن جوانب غير مأنوسة من حياة هذا الأديب والمفكر وأهمها جهوده النقدية؛ فلم يكن الرَّافعيُّ غائباً عن ساحة النقد الأدبي كما يتصَوَّر كثيرٌ من الباحثين في الأدب الحديث؛ بل كانت له جهودٌ مبكرةٌ لا يمكن إغفالها بحالٍ من الأحوال؛ وقد جرى أغلبها في إطار المعارك الأدبية الحامية، ولما كان ذَلِق اللسان شديد اللهجة؛ فقد طغت هذه الحدَّة حتى أصبحت السِّمةَ الأبرز في نقده، ومن ثَمَّ رآها بعضهم خارجةً عن إطار الموضوعية العلمية، وفي ذلك يقول تلميذه وصَفيُّهُ الأستاذ سعيد العريان: «لقد كان ناقداً عنيفاً حَديدَ اللسان، لا يعرف المُداراة، ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه، وكانت فيه غَيرَةٌ واعتدادٌ بالنفس؛ وكان فيه حرصٌ على اللغة من جهة الحرص على الدِّين».[1]

وحسب ما وصل إلينا من مقالات؛ فقد بدأت جهود الرافعي النقدية مبكرًا في عام 1903م عندما صدَّر الجزء الأول من ديوانه بمقدمة تناول فيها الشعر وفنونه ومذاهبه، ورغم أنه لم يُعرِّف الشِّعر تعريفاً محدداً؛ فقد ضمَّن هذه المقدمة رؤىً تجديدية للشعر العربيِّ لابد من الوقوف أمامها مليّاً حتى نذُبَّ عن الرجل فريةَ وقوعه أسيراً للقديم ورفضه لكل جديدٍ، ولعلَّ بعض الباحثين ينبري لدراسة هذه الآراء التجديديَّة التي نادى بها الرجل في مقدمته للديوان وفي غيرها من المقالات.

---

(1) حياة الرافعي: محمد سعيد العريان، ص 126.

وفي عام 1905م –وعمره آنذاك نحو خمسة وعشرين عاماً– كتب مقال (الثريا) –الذي نشرناه في الجزء الأول من هذه المقالات– فكشف عن ذائقة نقديَّة مطبوعة وإن رأى بعضهم أنها محاولةٌ ساذجةٌ لم تخلُ من السَّعي إلى إبراز نفسه بين الكبار، والإطلال برأسه في ميدان الشعر الذي كان مكتظاً بالباروديِّ وشوقي وحافظ وغيرهم كثير.

ثم تأتي بعد ذلك معركة النشيد الوطنيِّ في مطلع العقد الثالث من القرن العشرين، وهي المعركة التي أسهم فيها كلٌّ من الرافعيِّ والعقاد بنقدٍ لاذعٍ لنشيد أحمد شوقي الذي مطلعه:

بَنِي مصرَ مَكانكُمو تَهيَّا

فهيَّا مَهِّدوا لِلمُلكِ هيَّا

وإذا كان سببُ معركة النشيد تلك الغَيْرَة التي تأجَّجت في قلب الرَّافعيِّ بسببٍ من تقديم شوقي عليه في القصر والاحتفاء به في جميع المحافل؛ فإنَّ الغيرة ذاتها قد دفعت العقَّاد لمهاجمة شوقي، فضلاً عن الخلاف السياسي بين الوفد والقصر؛ إذْ كان العقاد آنذاك وفديّاً يدين بالولاء للحزب الذي كانت علاقته بالقصر تتأرجح بين مَدٍّ وجَزْرٍ.

***

ثمَّة معركة هي الأشهر بين معاركه وهي (السَّفافيد)، حيث بدأ الرافعيُّ كتابة سلسلة مقالات بين عامي 1929 و1930 تحت عنوان (على السَّفُّود) بـ(مجلة العصور) باسم رمزي هو (إمام من أئمة الأدب العربيِّ)، وهي المقالات التي انتقد فيها شاعرَ الملك عبدالله عفيفي، ثم اتجه بعدها إلى الأستاذ العقاد، وقد أثارت جلبةً غير مسبوقة في الأوساط الفكرية والأدبية، ثم أصدر الرافعيُّ هذه المقالات في كتابٍ منفردٍ يحمل ذات العنوان واللقب.

لكـن هناك من يرى أنَّ ما كتبه في هذه السَّـفافيد؛ وإنْ دلَّ على عارضـة العالم القـويِّ الثَّبت، وعلـى ملاحظة الأديب المعتمد على تراثنـا الثقافي العظيم؛ فإنه يـدور في إطـار الطريقة الجزئية للنقـد، وليس في إطار النظريات والفلسـفات المتقدمـة[1]، والحـقُّ أن الرافعي قد لدَّ كثيراً في هذه الخصـومة وخرج عن حدِّ النقد إلى حدِّ تجريح شـخص العقَّاد الذي لم يستطع مواصلة الردِّ على خصمه ومجاراته في هجائه المقذع.

علـى أنَّ المعركـة النقدية الأكبر في حياة الرافعيِّ الأدبية –التي تُنشـر لأول مـرة في هـذا الكتاب– كانت نقـده لـ(ديوان وحـي الأربعين) الذي أصـدره العقَّـاد سـنة 1933م، وهـي المعركة التي يعُدُّهـا الدكتور أبو الأنـوار «أقوى المعـارك الشـعرية بعد معركـة الدِّيوان»[2]، وقد نشـر الرافعـيُّ هذا النقد المُطـوَّل مسلسـلاً في أربع حلقات في (صـحيفة البلاغ) التي كان يُصـدرها الأسـتاذ عبدالقـادر حمـزة بدأهـا في 18 مارسـ 1933م، ولم تَسْـلم هذه المعركة الضـخمة من الهجاء الشـديد؛ لكنها قدَّمت نقداً حقيقياً من جانب الرافعـيِّ الذي أخذ على العقاد بعضـ المآخذ، وتتبَّع كثيراً مما كتبه واجتهد في ردِّه إلى مصـادره القديمة لإثبات ما قال إنه سـرقات شـعرية، كما أورد كثيرا مما عدَّه أخطاءً لغويَّةً ونحويَّةً وقع فيها العقاد.

لم يقتصر الأمر على ذلك؛ فقد انتقد فلسفة العقاد نفسه، وقارن بينه وبين قدامى الشـعراء لا سـيما ابن الروميِّ وانتصـر للقُدامَى، وهو الكلام الذي لم يعجب العقاد؛ فانبرى يرد بمقاله الشـهير (سماسرة الأدب) في صحيفة الجهـاد 21 مارسـ 1933م، وهنـا دخل إسـماعيل مظهر طرفـاً جديداً في المعركة ضد العقَّاد.

(1) الحوار الأدبي حول الشعر: الدكتور محمد أبو الأنوار، ص 310.

(2) الحوار الأدبي، ص 312.

وهذه المقالات الأربعة المسلسلة التي تمثل حُمُولةً نقديَّةً ثقيلة ظلت هي الأخرى بعيدة عن الساحة النقديَّة كثيراً؛ نعم أشار إليها العريان والبدريُّ والجنديُّ في كتبهم؛ لكنها لم تُنشر ضمن أعمال الرافعيِّ، ولم تحظ بالدراسة اللائقة بها؛ حتى إن أكثر مَنْ تناولوا الرافعي الناقد لم يقفوا على هذه المقالات المهمة التي تُمثِّل عصب النقد عنده؛ فمثلاً تناول الدكتور محمد رجب البيومي الرافعي ناقداً؛ لكنه لم يُورد شيئاً عن هذه المحطة المهمة، وقال الدكتور كمال نشأت في معرض حديثه عن النقد عند الرافعي: «وليس هناك مَثَلٌ أَتَمَّ وأوفى لنقد الرافعي، إلا ما كتبه في كتابه (على السَّفود) نقداً للعقاد»[1]، ولو قُدِّر للدكتور نشأت الوصول إلى مقالات (وحي الأربعين) لكان له رأيٌ آخر.

ومن الدراسات الحديثة التي تناولت الرافعي الناقد دراسة الباحث الجزائريِّ علي بختي التي عنونها بـ(الآراء النقدية عند الرافعي بين النظرية والتطبيق)؛ لكنه لم يقف على هذه المقالات هو الآخر، كما فاتته مقالاتٌ أخرى لو قُدِّر له الرجوع إليها لوضع يده على جوانب أكثر أهميَّةً في هذا الموضوع الذي غابت كثيرٌ من مصادره الرئيسة.

وفي هذه المقالات الأربع محاولات نقدية ناضجة سيجدها الباحث المهتم بتراث الرافعي، ولعلها تكون فرصة سانحة ليُشمِّر الباحثون عن سواعد الجِدِّ لدراسة الجانب النقديِّ عنده في ضوء ما ورد هنا من مقالاتٍ لم تحظ بالنشر ضمن كتبه الذائعة.

***

وفضلًا عن هذا النقد المهم لديوان وحي الأربعين فهناك إسهامات أخرى في الأدب واللغة منها مقالا: (خطأ في إصلاح خطأ: حول نشأة فن المقامات)،

(1) مصطفى صادق الرافعي، ص 126–127.

و(حول نشـأة فن المقامات) اللذان تناول فيهما نشأة فن المقامة الأدبية ردّاً علـى الدكتـور زكي مبارك الذي كان له رأيٌ مخالفٌ على النحو الذي سـنراه في هذه المقالات.

وهنـاك مقالاته: (الأدب والأديب)، و(جوابٌ مختصـرٌ)، و(قريش والخليفة)، و(الطَّبْعِيُّ والطَّبِيعِيُّ)، و(كلمة (فحسـبُ): اسـتعمالها – أول من اسـتعملها)، وكلها كتابات تكشف بجلاء عن عناية الرافعيِّ باللغة والأدب وكيف كانا يجريان منه مجرى الدم.

كما يحوي الكتاب عدة مقالات اجتماعيَّة كتبها الرافعي في مناسبات مختلفة مثل: (الإحسـان الاجتماعيُّ)، و(المرأة الشرقيَّة)، و(الطلبة والامتحانات)، و(إنباء الهواتـف)، و(حقيقـة الهاتف)، و(الطيف في الحلم)، و(مصـباح الكهرباء)، و(إلى مهندس منـزلي)، و(في عيد ميلاد المسـيح)، و(زواج الأدباء)، ومقاله (بعد الموت: ما أريد أن يُقال عني!)، ومن بين هذه المقالات ما التمسـه الرافعي ولم يجده كمقالة (المرأة الشرقيَّة) إذْ كتب إلى محمود أبي رية رسالةً يطلب إليه العثور عليها بعد سنوات من ضياعها وسط ركام الأوراق(1).

ويقـدِّم الكتاب كذلك مقالاته التي كتبها في أعلام عصـره نقداً أو ثناءً أو رثاءً، منها: (إلى الأسـتاذ فكري أباظة)، و(انبعث أشـقاها) في نقد سـلامة موسى، و(وحـي النعش) الـذي كتبه في رثاء ابن عمه أمين الرافعي، وما كتبه أيضـاً في رثاء (الملك فؤاد)، ثم مجموعة مقالات كتبها في سعد زغلول منها: (إلى مصر)، و(زهرة الاسـتقلال)، و(كتاب صـاحب النشـيد إلى معالي الرئيس)، و(سعد باشـا زغلول)، و(مثالٌ صـغيرٌ من عظمة سـعد)، و(جنود سـعد)، و(سـعد)، ومقال (في صاحب صحيفة النَّاس) الذي كتبه في حسين شفيق المصري.

---

(1) راجع مقدمتنا للجزء الأول من هذه المقالات.

وإتمامـاً للفائدة رأيـتُ أن أُذيِّل الكتاب بمقدمـات الرافعي وقراءاته لبعض الكتـب مثل: تقريظ كتـاب (أعجب العجب) لعبدالحـقِّ الأعظمي، وتقريظ كتـاب (الفـاروق عمر بن الخطـاب) لدياب عثمان العرابـي، وما كتبه عن كتاب (تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده) لمحمد رشيد رضا، ومقالة رداً على مقال ينتقد كتابه (السَّـحاب الأحمر)، وعن تحقيق الشـيخ محمد عبده لكتاب (نهـج البلاغة)، والتقريظ الذي كتبه الرَّافعيُّ لكتاب (العنايةُ بالأطفـال والأَحْدَاث) للدُّكتور إسـكندر بك جريدينـي، وأخيراً ما كتبه عن ديوان الأمير شكيب أرسلان الذي كانت تربطه به آصرة قوية من الود.

وزودُّته بعض الصور والوثائق والمراسلات النادرة التي تُنشر لأول مرة، وثبتاً بأهم الصحف والمجلات التي كتب لها الرافعي، وكذلك قائمة مختارة لأهم الدراسـات التي تناولت حياة الأستاذ وأدبه؛ لتكون عوناً لمن أراد من القراء والباحثين أن يقف على حياته وفكره.

***

إنَّ هذا الكتاب – وما سـبقته من دراسـات – محاولةٌ جادَّةٌ لوضـع الأسـتاذ مصـطفى صـادق الرافعي في مكانـه اللائق به بعـد تغييب مُتَعمَّـد لمنجَزِه الفكـريِّ والأدبيِّ، ودليـلٌ دامغٌ على أن الرجل لم يكن متقوقعاً حول ذاته كما أشاع بعضهم؛ إنما أثبتت الأيام سعة أفقه وبُعد نظره.

فالحمد لله -عز وجل- الذي وفَّقني إلى إتمام هذا العمل رغم ما قاسيتُ في سبيله من مشاق يعلمها الله؛ إذْ كان مرضُ والدي ووفاته -رحمه الله- أكثر النوازل التي هزَّتني ولا تزال، فالله أسـأل أن يتغمده بواسـع رحمته ويتلقاه بسابغ مغفرته لقاء ما قدَّم من العلم النافع.

والشكر لثلة من أساتذتي الكرام الذين شملوني بكريم عنايتهم وأبدوا حفاوتهم بالجزء الأول من هذا الكتاب؛ وأولهم العلَّامة اللغوي الرائد الأستاذ الدكتور سعد عبدالعزيز مصلوح، والعلَّامة المحقق الدكتور عبدالله العسيلان، وأستاذي شيخ البلاغيين الأستاذ الدكتور حسن طبل، وشيخي الأستاذ الدكتور محمود مزروعة، واللغوي المحقق الأستاذ الدكتور النبوي شعلان، وصاحبة الحرف البديع الشاعرة الكبيرة محبوبة هارون؛ فالله أسأل أن يجزيهم عني خير الجزاء.

والشكر كذلك لأخي يوسف غريب وإخوتي: الدكتور عبدالله رمضان وبسَّام الشاعر، وأحمد أبو حوسة ومحمد التومي وصديقي وابن أخي مدحت كساب، على ما بذلوه معي من جهد ودعم في سبيل إخراج هذا الكتاب؛ فكل كلمات الشكر والثناء لا تكفيهم.

ثم الشكر الجزيل موصولٌ لأسرة (المجلة العربية) التي لم تدَّخر وسعاً في تكريم اسم الرافعيِّ وأدبه والاحتفاء به بالتزامن مع مرور ثمانين عاماً على وفاته وانقطاع وحي القلم، وليس هذا بمستغرب من المجلة التي أخذت على عاتقها رفع لواء الأصالة والدفاع عن مقومات الأمة الحضارية.

والشكر الأسمى للقارئ الكريم الذي منحني -ولا يزال- الثقة في بذل المزيد من الجهد للكشف عن لآلئ تراثنا العربي الأصيل، فله أُكرِّر الشكر والتقدير، مع وعدٍ ببذل المزيد ليكون لبنةً في بعثٍ حضاريٍّ جديدٍ لأمة (اقرأ)!

والله من وراء القصد

وليد عبدالماجد كساب

البحيرة - في 25 جمادى الأولى 1438 هـ

21 فبراير 2017م

مقالات
في الأدب واللغة

وَحْيُ الأَرْبَعِين

(الحَلَقَةُ الأُولَى)[1]

قال شيخنا الجاحظ في بعض كلامه: «إنِّي أزعمُ أنَّ سخيف الألفاظ مشاكلٌ لسخيف المعاني، وقد يُحتاج إلى السَّخيف في بعض المواضع، وربما أمتَعَ بأكثر من إمتاع الجزْل الفخم من الألفاظ، والشَّريف الكريم من المعاني، كما أنَّ النَّادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النَّادرة الحارَّة جداً، وإنَّما الكرب الذي يختم على القلوب ويأخذ بالأنفاس النَّادرة الفاترة التي لا هي حارَّة ولا هي باردة، وكذلك الشِّعر الوسط والغناء الوسط».[2]

نقولُ: وأنت إذا أردتَ أنْ تعرف ما هو الشِّعر الوَسَط في أيامنا هذه وَجَبَ أنْ تعلم أنَّ له أوصافاً وشروطاً غير التي كانت لمثله في زمن الجاحظ؛ فإنَّ التوسُّط في ذلك العصر كان يأتي من الألفاظ والمعاني، كحساب نصف المسافة بين بلدين على طرفي مملكة واحدة، أمَّا في دَهْر النَّاس هذا فهو على البعد المترامي بين مملكتين في طرفي الدُّنيا.

ولا تحسبنَّ أنَّ هذا مما يزيدُ في نباهة الشِّعر الوَسَط عندنا أو يجعل له موضعاً وحقّاً أو يورده على النَّفس مورداً غير مستَنْكَر.

فالأمر على خلاف ما يظهر لك أوَّل وهلَة، إذْ كان الشِّعر العربيُّ قديماً يُعْتَبَرُ بعضُه ببعض فيكون التوسُّط قريباً وقصداً، ومهما يخطئك منه فلا يخطئك أنْ يكون على النِّصف من موضوع البيان وجزالة اللُّغة وإحكام الصَّنعة الشِّعريَّة وسلامة الذَّوق، وفيه من شيءٍ شيءٌ؛ ولكنَّ الشِّعر العربيَّ في زمننا يُعْتَبَرُ بموقعه من أصله ومن شعر الأمم كافَّةً، ولا سواء هذا وذاك؛ فأنت إذا

(1) البلاغ، 22 ذو القعدة، 1351 هـ = 18 مارس 1933م.

(2) البيان والتَّبيين: الجاحظ 1/145.

قطعتَ مائة فرسخ وبقيت مائةٌ؛ فليس التَّوسُّط هنا على قياسه فيمن يقطع مائة ألف ويعجز عن مائةِ ألفٍ أخرى قد يكون في أولها قبره.

ومن صفات الشِّعر الوسط في عصرنا أنْ تكون فيه الفلسفة على حالة لم تنضج، والفكر على طريقة لم تستحكم، واللغة في طبيعة لم تسلس، والبيان على صناعة لم (تَبْرَع)، وأنْ يكون مدخولاً بالذَّوق الفاسد، موسوماً بالسِّمات العامِّية، مستهلكاً بالفكر المتلبِّس والمعنى الغُفْل واللَّفظ السَّاقط المُبتَذَل، وأنْ ترى أوزانه مُتهافتَةً لا علم لناظمها بالملاءمة الموسيقيَّة بين الوزن الذي ينظم عليه والمعنى الذي ينظم له والأسلوب الذي يتأدَّى به إلى النَّفس، فكلُّ وزنٍ هو وزنٌ لكلِّ معنىً، وأنْ يحاول الشَّاعر أقصى الغاية في بلاغة النَّفس الإنسانيَّة وليس له إلا نصف أسبابها وعلَلِها، وتلك أحوال ليست فيها منزلةٌ أشأم على صاحبها من منزلة الوَسِط إلا إذا كان في منتهى الحَذْق محلٌّ لنصف الغفلة، وفي سُموِّ العبقرية موضعٌ لتوسُّط الذِّهن، وإنَّه لا يعيبك أنْ لا تكون فيلسوفاً، وربما كنتَ في حقيقتك شاعراً ذا طبع، فإذا سكنتَ إليه وترسَّلتَ به؛ ردَّ عليك وجهاً ممَّا ترُدُّه الفلسفة المحكَمة، وأنزلك في طبقة من طبقات المطبوعين، ولكنَّ تكلُّفك الفلسفة الشِّعريَّة الضعيفة وإفسادك الشِّعر بها يَذْهَبُ بالطَّبع والفلسفة جميعاً ويقذفك من الطَّبقات كلها؛ لينزل بك دون الشِّعراء ولا يصعد بك إلى الفلاسفة، ولا دلَّ على شيءٍ إلا أنَّ طبيعتك الانتحال والتكلُّف ومذهبُك الادِّعاء.

ولم أرَ في كل ما قرأتُ من شعر أدبائنا ما يستوفي جميعَ أوصاف الشِّعر الوسط كنظم صاحب (وحيِّ الأربعين) عبَّاس محمود العقَّاد؛ فله فلسفةٌ وفكرٌ وطريقةٌ، وله منزعٌ بعيدٌ ومرمىً قصيٌّ، وله اطِّلاع على شعر الأمم وآدابها، وفيه رغبةٌ شديدةٌ أنْ يكون مُبدِعاً مُجدِّداً، وقد ارتهن نفسه بملابسةِ صناعة الأدب، وفرغ لها فراغ من يعيشُ لما يعيش به، وانغمس فيها

انغماس السَّمكة في بحرها أو مستنقعها؛ ولكنه أُعطِيَ هذا كله ولم يُعط أسباب التمكين فيه، وتكلَّف لمظاهر القدرة العالية، ولم يهبْه الله خصائص هذه القدرة، وجاوز عند نفسه حدود العبقريَّة لزعمه القويِّ وهو محتبسٌ من ورائها بطبعه الضَّعيف، وأغرق في المحاولة ليغرق مثل ذلك في الخيبة، وجاء بالكثير ليردَّ عليه الكثير أيضاً، وقدَّم لنا شعره على أنَّه التَّجديدُ والعبقريَّةُ، وأنَّه وأنَّه، وليعدَّ ما شاء من الأوصاف، ولكن ماذا ينفع مَلِكَةٌ جمال أنْ تكون فيها كل شرائط الجمال وهي عوراء!

إنَّ العقَّاد نفسه هو الذي أعطانا هذا المعنى؛ فإنَّه يقول في صفحة 167 من ديوانه:

دعِ الشُّهرَةَ العوراءَ تَقتَادُ غافلاً

على حُكْمِها يجري، وإنْ طَاشَ أو ظَلَم

يعني أنَّ الشهرة عوراء لأنَّها رأت شوقي -رحمه الله- ولم تره هو، فكان مُهْمَلاً إذْ كان من قِبَلِ عينها المطموسة، ثم يقول:

إذا الدُّهرُ لم يعرفْ لذي الحقِّ حَقَّه؛

فللدَّهرِ منِّي موطئُ النَّعلِ والقَدَم

ومع أنَّ النَّعل لا تُطأ إلا بالقدم؛ فلا بأس أنْ يَطَأَ العقَّاد دهرَه مرةً بالنَّعل ومرةً حافياً لفرط غيظه من شوقي، ولكنْ هل هذا المعنى إلا قول العامَّة «أدوسُه بالجزمة»؟! وإذا لم يكن في السُّقوط بالشِّعر أسقطُ من هذا؛ فهل في الرَّغبات الحمقاء أحمق من رغبة «دوس الدَّهر بالجزمة»؟!

لقد عرض هذا المعنى بعينه للمتنبِّي؛ فانظر كيف صنع في غيظه من كافور وموضعه من دهره، وكيف تَأتَّى إلى الشِّعر الذي لو سمعه الدَّهر لاعتذر إليه، وتأمَّل الفرق بين شاعرٍ وشاعرٍ، قال:

وللّه آيـــــاتٌ ولَـــيـــسَ كـــهَـــذِه
أظُــنُّــكَ يــا كــافــورُ آيــتَــهُ الــكُــبرَى

لـعَـمـرُكَ مـا دَهْـــرٌ بـــهِ أنـــتَ طـيِّـبٌ
أيَحسَبُني ذا الدَّهـر أحسَبُهُ دَهرا[1]

على أنَّ الذي سقط بالعقَّاد هذه السَّقطة هو أنَّه سرق من قول أبي نواس في مدح المأمون يستطيل به:

فــلَــوَ أنَّ دَهْـــــراً رَابَـــنـــي؛
لـصَـفـعْـتُـهُ بــالـكَـفِّ صَفْعا[2]

وهذا البيت رآه المتنبِّيُّ فلم يُلمَّ به لقوة طبيعته في الشِّـعر، ورآه العقَّاد فهَوَى فيه وحوله إلى النَّعل والقدم، ولفَّقَ له البيت الأعور.

وإذا أنــت وَازَنْـتَ في هذا بين المتنبِّـي والعقَّاد؛ رأيت المتنبِّـيَّ كذات العينين النَّجلاوَيْن والعقَّاد كذات العين الواحدة.

***

وقبــل أنْ نتناول شـعر (الوحـي) نريد أنْ ندُلَّ العقَّاد على سـرٍّ سـقوطه في الشِّـعر، وأنَّــه لن يفلح فيه، ولا يجيء به إلا فضــولاً مُكرَهاً أَنْ يكون شــعراً، ولعلَّه لا يدري أنَّ أكثر ما يحرص عليه من نظمه يتفق أحســن منه لكثير من كبار الشّعراء فينفونه ويهذّبون شعرهم منه، ولقد كان البحتريُّ يُسقط ثُلُثَ القصــيدة، وكان إبراهيم بن العبَّاس ربما أســقط النِّصف، ونَظَمَ كعب بن زهير أبياتاً ثم سأل أباه: كيف ترى هذا الشِّعر؟! يقول أبوه الشَّاعر العظيم:

---

(1) لم أقف عليه في شــرح ديوان المتنبّيّ للعكبريّ ولا في ديوان شــيخ العربيَّة، وهما في الصُّبح المُنْبِي عن حيثية المتنبِّيّ للشَّيخ يوسف البديعيّ ص 106.

(2) في ديوان أبي النَّواس ص 35: «ولو أنَّ دهري ...».

يا بُني إنَّ أباك ليعرض له مثل هذا يميناً وشمالاً؛ فلا يلتفت إليه.

ذلك أنَّ الفكر يأتي بمادة القصيدة ثم يُصوِّرُها الطَّبعُ ويصوغُها، ثم يأتي الذَّوق فيهذِّبها كما يهذِّب صانع التِّمثال تمثاله؛ لا يحذف ما يحذف ويُثبت ما يُثبت على أنَّه إثباتٌ أو حذفٌ؛ بل على أنَّه صناعة الملامح في الصُّورة وإفراغ الجمال الفنِّيِّ على تكوينها.

ولقد كنتُ أقرأُ (وحي الأربعين) وما يخطر لي إلَّا أنَّ أكثره أبيات كان العقَّاد أسقطها من قصائد له قديمة، ثم فَتَنَه الحرْص فجمَعَها ديواناً. ولو هو سمَّى الحقيقة باسمها؛ لكان اسم ديوانه (الحُثَالة)، وإلَّا فأيُّ شِعرٍ في مثل هذا البيت:

أَرَى في جَلالِ الموتِ إنْ كانَ صَادقًا
جَلالةَ حقٍّ لا جلالةَ باطلِ

فإنْ كان الموتُ صادقاً -ويحك- فماذا يكون إلا أنْ يكون حقّاً، وما شرط الصِّدق في شيء واقع لا يتكذَّب فيه أحدٌ؟! إنَّما يكون الشَّرط في نحو قول المعريِّ:

ما أطيبَ الموتَ لِشُرَّابِه،
إنْ صَحّ للأمواتِ وَشْكُ التقاء[1]

فههنا فليشترط مَنْ كان زنديقاً، أمَّا الزَّندقة والجهل معاً ثم يكون نظمهما شعراً؛ فهذا لا نعرف مثله إلا لصاحب (الوحي)، والعقَّاد أراد أنْ يعارضَ شوقي في قوله يذكر جلال الموت:

أَرَى زُمَراً مُشَيَّعَةً
وأَسْمَعُ أيَّما صَوْت

(1) اللُّزوميَّات: أبو العلاء المعري 59/1.

ولـــو عَـقــلــوا لمــا فَـعَــلــوا

جـــلالُ المَـــــوْتِ في المَــــوْت

«جـلالُ الموتِ في المـوت» تبارك الله مُلْهِـمُ هذه الكلمة المبدعـة التي جاءت بمعنى هو أظهر من الموت في ظهوره، وأغمض منه في غموضـه، ولستُ أدري ما هي القوَّة التي تضطَّر العقَّاد أنْ ينظم الشِّعر، ومن أي مَحْكَمَةٍ صدر عليه حكم الأشـغال الشَّـاقة في الألفاظ التي يشـبه عملُه فيها تكسـيرَ الزَّلط في (طُرَةَ)[1]، وقد جاء ديوانه في نحو سبعين ومائة صفحة، ولو هُذِّبَ ما خرج في عشر صفحاتٍ.

ذلك السِّـر الذي أومأنا إليه هو أنَّ العقَّاد يحترف الصَّـحافة السياسيَّة من أول نشأته وهو عمل السَّاعة ولغة الجمهور، وأساليبها في نقل الأخبار بعضها مـن بعض معروفة، وأسـاس كلِّ بيـانٍ فيها قيام المعنى لمحض الدلالة التي يحملها لا للسُّـموِّ بها، وفي أسـاليب صـناعة الحكاية لا في أسـاليب صناعة البلاغة، وعلى سياسـة الواقع لا على سياسة الارتفاع بالواقع، وما زعم أحدٌ أنَّ الصَّحافة السِّياسيَّة أُنشِئَتْ للشِّعر ولغته وبيانه وفلسفته.

فهـي في خاصِّ معناها وافيةٌ بما وُجِدَتْ له، وهـي الحقُّ كل الحقِّ في غايتها وسـبيلها إلى هذه الغاية؛ ولكن شـرٌّ ما في الباطل وأبعد ما في المستحيل إذا أُريـدتْ على أنْ ينبغ باحترافها الشَّـاعر العبقريُّ مُبـدِعُ اللُّغة في مادة فنِّهَا البيـانيِّ وحكيم النَّفس القائم على سياسـتها الداخليَّـة والخارجيَّة ومَلِكُ الطبيعـة الذي قيل له منَ الأزل إنَّ قوَّةَ الملوك السِّـلاحُ للفتك والموتُ وقوتُك أنت الكلمة الجميلة للتَّأثير والحياة.

وللحرفة عملها في المجموع العصـبيِّ، ثم عملها بـه في أغراض النَّفس، كما

(1) سِجْنٌ بضاحية جنوب القاهرة.

هو مقرَّرٌ ومعروفٌ، فما مِن حرفةٍ إلا وهي تُعين صاحبها على القوَّة في أشياء بطبيعة الملابسة وتبتليه بالعجز عن أشياء تقابلها، وكما يعتاد المرء القوَّة بأسبابها يعتاد العجز بأسبابه كذلك، فمن ثَمَّ ما تراه في شعر العقَّاد من أثر كل ذلك؛ معانٍ ملخصة تلخيص الأخبار المحليَّة، وقصائد هي مقالات فسدت فصارت نظماً وصناعة من القلم للماكينة رأساً، وطبع لا يُنكر أنْ يكون المعنى تحصيل الحاصل، أو أنْ يكون من المعاني التي لم يبقَ في الأرض حضريٌّ ولا همجيٌّ إلا عرفها ما دام الغرض النَّشر، كقول العقَّاد:

الموتُ أخذٌ فخُذْ

ما تستطيعُ من الحياةِ

أليس هذا الشِّعر كالإعلان الذي نشر مائة مرة؟! ثم ليس هو المعنى الذي لو تكلَّم به عاميٌّ سوقٌّ لجاء به في حَبْكٍ وسَبْكٍ وصناعة من حديثه وظرفه؟! ولكنَّها طبيعة ينفيها الشِّعر وينتفي منها على حين تُثبتها الصَّحافة وتُقرُّها ولا تُنكر منه شيئاً، وكذلك انساق بها العقَّاد وأذعَنَ لها إذعان المرء لما اعتاده، وأثبتَ في شعره مئات من الأبيات تراها واقعةً كحروف الجرِّ التي لا تجد ما تجرُّه، ففيها معنىً جاء ولكن تمامه بمعنى لم يجئ، وبيت العقَّاد كأنَّما سخر منه المَعرِّيُّ في قوله:

وكيف أُقضِّي ساعةً بمَسَرَّةٍ

وأعلمُ أنّ الموتَ من غُرَمائي؟![1]

فهذا مذهبٌ آخر، وكان يحسن بالعقَّاد إذا نقل مذهباً إلى شعره أنْ ينقل المذاهب كلها ما دام نشراً، وما دامت روح شعره هي هي روح (مطالعاتٌ في الكتب) و(ساعاتٌ بين الكتب)، فإذا جاء بمثل قوله في صفحة 33 :

---

(1) اللُّزوميَّات 54/1.

هـي الـرُّعـونَـةُ في طبـعِ الحـيـاةِ ثَـوَتْ
وإنَّمــــا حـكـمــةُ الأقــــوامِ تـعـلـيـمُ

وهــو الرأيُّ الــذي فرغ النَّاس منه، وجاء به المعرِّيُّ في صــور مختلفة تراه في اللزوميــات- وجب أنْ ينظم لقرائه المذهب الآخر الذي يُقرِّر أنَّ الطِّفل خيِّرٌ بطبيعته وإنَّما يتعلم الشَّرَّ، ثمَّ المذهب الثَّالث الذي قال فيه المعرِّيُّ:

والـنَّـجْـلُ إنْ بَـــرّاً، وإنْ فـاجـراً،
كـالـغُـصـنِ، مـن أصـلٍ لـه يُفسخُ[1]

أي يجــيء على الوراثــة وطبائعها، ثم المذهب الرَّابع الــذي جاء به الحديث الشريف «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطْرة»[2] أي (قابلًا)[3] للخير والشر سواء، فلن يســتطيع صاحب (وحيِّ الأربعين) أنْ يزعم أنَّ هذه الأربعين أوحت إليه كلاماً يعرفه كلُّ قرَّاء الكتب في زمنه ومن قبل زمنه.

وفي رأينا أنَّ هذه الأربعين التي جاءنا العقَّاد بوحيها في هذا الدِّيوان ليســت بأربعين سنة من عمره كما يقول؛ بل.. بل أربعين كتاباً من مكتبته!

ولتلك العلَّة التي بيَّنَّاها ترى أكثرَ شــعر العقَّاد أو كلَّ شعرِه يعتريه ما يعتري المقالات الصَّــحفيَّة من النَّقضِ والرَّد، فأنت تســتطيع أنْ تفســدَه كلَّه بأيسر الــكلام؛ لأنَّه موضــوع على قاعدة تقبل ذلــك، وتقرأه فلا تهتزُّ لشــيءٍ منه كأنَّــه رأيٌ أُلقــي بــين حزبين من الأحــزاب السياســيَّة لــيردَّه أحدهما على الآخر، ويغلبك شعورٌ عجيبٌ في أكثر ما تقرأ؛ فما تشكُّ أنَّ وراء هذه المعاني

(1) نفسه 1/227، وفي أصل المقال: كالغصن من أصل له يُفسخُ.

(2) صــحيح: أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أســلم الصــبي فمــات (1358)، وفي كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشــركين (1384، 1385)، ومســلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، (2658) من حديث أبي هريرة.

(3) الكلمةُ غير واضحةٍ بالأصل، وربما كانت هكذا.

(مقصاً) قصَّها من كتبٍ ودواوينَ ورسائلَ، وأنَّ صاحب (المِقصِّ) جالسٌ في ديوانه مجلسه في جريدة يتناول أخبار الفكر الإنسانيِّ.

وعلَّةٌ أخرى هي أنَّ في العقَّاد نقصاً كبيراً في البيان العربيِّ، وهو ضعيفُ الفهم جداً لأسرار هذا البيان، وقد قرَّر عند نفسه كما قال لي مرة إنَّ البيان هو ما يكتب به في الصحف؛ وهذا مذهبٌ إذا صار إلى الشِّعر كان فيه كعمل من يستعطر بالعطر من أي أوراق النَّبات أصابها ولو كُرَّاثة أو بصلةً، ومِنْ هذا جاء شعره، وإنه ليُقابِل في أيامنا هذه ما كان عندنا قديماً من شعر الفقهاء، لا يُراد به دقَّة المسلك إلى النَّفس، ولا لطف المأخذ من اللُّغة، ولا إصابة الفصل في المعنى، ولا حكاية الطَّبيعة في صناعة فكريَّة جميلة، ولا بثَّ إشراق النَّفس الرُّوحانية في تركيب المادَّة، وإنَّما هو نظمٌ بحتٌ مستجلبٌ متكلَّفٌ يقع فيه أقبح التَّفاوت كما ترى في ألفاظ العقَّاد، ويعدِل في سياقه عن طبيعة الشِّعر إلى طبيعة الجدل والسَّرد وحكاية الآراء والمذاهب؛ فيكون الفقيه العظيم قد انتهى في علمه ونظره إماماً، وهو بهذا النَّظم لا يزال إلى آخر عمره في ابتداء الشِّعر وأوَّل التكلف؛ كأنَّما لا يرتفع بشعره إلا أنْ يجيئه البُراق وجبريل و﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾.[1]

وما يُخيَّل إليَّ في شعر العقَّاد إلا أنَّه مستنقع اخضرَّتْ ضفتاه؛ فهذا الجمال القليل فيه لا يكشف عن سرٍّ ورونقٍ وإمتاع؛ وإنَّما يزيد في القبح والشُّنْعَة، وما هو المستنقع إلا البعوض والملاريا والطُّحلب والوَخَم والعَفَن؟ ولو أنَّك كنتَ شاعراً دقيق الحِسِّ، مُصفَّى الذَّوق، عالي البيان، ثمَّ قرأتَ شعر العقَّاد؛ لرأيتَ من ألفاظه ألفاظاً تلسعُ الذَّوق لسعَ البعوض، ومن شعره أبياتاً تنهق نهيق الضَّفادع التي هي حمير الماء، ومع هذا كله لا تنفك من منظرٍ نَضرٍ هنا وهناك في ضفاف المستنقع من بعض المعاني الحَسَنة التي يعرضها مما

(1) سورة الإسراء/ 1.

ينقلـه عن غيره من شـعراء العـرب والأوربيِّين، ومما يلاحظـه أو يلمُّ به في قراءته الدائبة الموصولة، وما قط أصبتُ للعقَّاد معنىً حسناً إلا وأنا واثقٌ أنَّه من باب قول بشار:

إذا آنـــشـــــدَ حـــمـــادُ؛
فـــقـــل: أحـــســـــنَ بـــشَّـــارُ

***

وقد كتبنا مقالاً في فلسفة نقد الشِّعر وفلسفة الألفاظ الشِّعريَّة وصناعتها، وأنها ألفاظٌ من الكلام، غير أنَّ الشِّعر يضع فيها الكلام والموسيقى معاً فتخرج بذلك مـن طبيعة اللغة العامَّة القائمة على تأدية المعنى بالدلالة وحدها إلى طبيعة لغة خاصـة أرقـى منها تؤدِّي المعنى بالدلالـة والنَّغَم والذَّوق، وسـيظهر مقالنا هذا في عدد شـهر أبريـل من مجلة أبولو[1] فلا نطيل هنا بشـيء مما يتَّصـل بهذه الفلسـفة، بيْد أنَّا وقفنا على كلمةٍ جميلةٍ في محاضرة الشَّاعر الناقد الإنجليزيِّ مسـتر (درنكوتـر)[2] الذي اسـتقدمته وزارة المعارف إلى مصـر لإلقاء دروس عن الشِّـعر الإنجليزيِّ جاء فيها كما نشـرته بعض الصُّـحف: «على الشَّاعر أنْ ينتقـي اللفظ الحيَّ الذي لم يمسسـه بِلَـىً ولا ابتذالٌ، ومع ذلك فعليه أنْ يضـع تحت بصـره ميراث لغته (تأمَّل) وتراث أسـلافه من فطاحل الشِّعراء؛ وإلَّا فهو أحمق يسـبح في لُجَّة الغرور. محكُّ الشَّاعر الحقِّ هو اختيار الألفاظ وانتقاؤها، فالشَّـاعر المجيد ذلك الذي تجد ألفاظه وعباراته طليقةً حيَّة بالغة ما بلغت من البسـاطة والسُّـهولة في ظاهرها». انتهى وهذا كلامٌ ليس فيه جديد عندنا؛ فقد

(1) نُشر في عدد مايو 1933 تحت عنوان (نقدُ الشِّعر وفلسفتُهُ).

(2) جون درنكوتر: شاعر وأكاديمي إنجليزي ولد سنة 1882، عمل أستاذاً في جامعة برمنجهام، له إسهاماته في الأدب والنقد، دعته الجمعية الجغرافية الملكية لإلقاء بعض المحاضرات، وهناك ألقى أولى محاضراته يـوم 17 فبرايـر 1933 تحـت عنوان (معنى الشِّـعر). راجع تغطية مجلة الرسـالة العـدد رقم (4) أول مارس 1933م.

استوفينا هذا المعنى في مقالاتنا المختلفة بأحسن وأبين مما جاء من إنجلترا، ولكنَّ الجديد أنَّ الكلام من شاعر إنجليزيٍّ مشهور فهو يصلح ردّاً مُفحماً عند العقَّاد وأمثاله ممن شبُّوا على الاستعباد للفكر الأجنبيِّ، وقد غبروا إلى اليوم ينظمون الشِّعر ولا يعرفون أنَّ اللَّفظ المبتذل السَّفْسَافُ إنَّما هو وجهٌ آخر من الغريب المستنكر، فإنَّ العيب ليس في ذات اللفظ؛ بل في ضعف موقعه واختلال تأديته، وما من فنٍّ أدبيٍّ إلا وللألفاظه أوزانٌ ومقادير حتى ليجيء البيت من الشِّعر الجيِّد الرَّصين المحكم، وإنَّ له ما للبناء في هندسته الجميلة نَسَقاً ووضْعاً، وتكاد ترى فيه ما يُشبه الطُّول والعرض والارتفاع والسُّمك حتى لا يخرج حرفٌ عن موضعه من الذَّوق، ولا تنحرف كلمةٌ إلا بَانَ الإخلال ودلَّ على نفسه. ومن هذه العلَّة في العقَّاد فَسَدَ ذوقه الشِّعريُّ؛ فترى نظمه مُستَهلَكاً بالتوعُّر والتَّعقيد والابتذال والاستكراه والتخليط، وأصبح ذلك من مألوف أمره يعده من خصائصه ويحسبه من فلسفته؛ ظنّاً منه أنَّ الشِّعر كالطَّبيعة تبدع الجسم الجميل الفاتن وفيه، وفيه الأحشاء، ومن أحشاء شعره قوله في وصف القُبْلَة صفحة 162:

هي كأسٌ من كُؤوسِ الخَالِدين

لم يَشُبْها المَزْجُ من مَاءٍ وطين

ماءٌ وطينٌ أي (وَحْل) عند ذكر القُبْلَة من فم الحبيب؟! أهذا كلامٌ يُوضع في الشِّعر أم يُوضع في عربات نقل الوَحْل وكنس موضعه من اللُّغة؟ أنشد بشارٌ قول الشَّاعر:

ألا إنَّما ليلى عَصَا خَيْزُرَانة

إذا غَمَزُوها بالأكُفِّ تَلينُ[1]

---

(1) ورد هذا البيت معزوّاً إلى كثير عزة في الكامل في اللغة للمبرِّد 85/3، وفي ديوان كثير عزة الذي جمعه

فقال: والله لو زعم أنَّها عصا مخٍّ أو عصا زبدٍ لكان قد هجَّن مع ذكر العصا وجعلها جافيةً خشنةً، ألا فعلَ كما قلت:

وَدَعْجَاءُ المَحَاجِرِ مِن مَعَدٍّ
كَأنَّ حَديثَها ثَمَرُ الجِنَانِ
إذا قامتْ لِمشيَتِها تَثَنَّتْ
كأنَّ عظامَها من خَيْزُرَانِ[1]

ولكنْ ما عسى أنْ يكون الكلام العاميُّ السُّوقيُّ والرَّذِلُ السَّاقطُ من الشِّعر إلا مثلما رأيت؟!

ومن حشاء شعر العقَّاد قوله في صفحة 15 (معنى طازج)!

تَنَشَّقتُ مِن فِيكَ عِطْرَ الثِّمَا
رِ، أو نَكْهَةَ العِنَبِ النَّاضِجِ

فلو قلتُ:

أطعمتِني قُبلَةً
لأنبأتُ عن صِدْقي الطَّازجِ

هذا صدقٌ (طازه) ومعنًى (طازه)؛ ففي أي عصر نحن من عصور اللُّغة العربيَّة، وكيف يخطر لأديب أنَّه (تنشَّق) من فم الحبيبِ؟!

هناك الماء والطِّين في القُبْلة، وهنا (النُّشوق) في الفم! اللهم احفظ لي عقلي! ثمَّ إنَّ العقَّاد (تنشَّق) من فم الحبيب نكهة العنب النَّاضج، و(النَّاضج) هنا ليست على دلالتها في اللُّغة؛ بل على ما تدل فيما قدَّره العقَّاد في نفسه فإنَّه يقدِّر المعنى

(1) ديوان بشار 4/198.
وشرحه الدكتور إحسان عباس ص 176.

ثم يعجز عنه (فيشحنه) في أيَّمَا اتفق له من اللفظ، ويرشِّح له بكلمة ينصبها كالمصباح الأحمر لتدلَّ على أنَّ ههنا فلسفة!

والمصباح في البيت الأول هو كلمة (نَكْهَة)، وهي تدلُّ على أنَّ المُراد بالعنب النَّاضج ليس العنب النَّاضج؛ بل عنب فراولة، وإلا فكيف تكون له (نَكْهَة)؟!

والعقَّاد رجلٌ جبَّارُ الذِّهن، وجبَّارُ الذَّوق، رأَى قول المَعَرِّي:

يَحِلُّ بمَهْرِ رِضابُ الرَّحيقِ،

وليسَ يحلُّ رَحيقُ العِنَبْ[1]

فولَّد له عقله وذوقه من هذه المقابلة أنْ يجعل الرَّحيق هو العنب، ولمَّا كان قد ظهر في هذا العصر (عنب الفراولة) زاد على المَعَرِّي بوَضْعِ النَّكهة في البيت، وخرج من الجميع ذلك الهذيان المضحك الذي أساغه ذوقه البيانيُّ كما أساغ ذوقه اللغويُّ قوله في قصيدة غزلٍ فلسفيٍّ ص 108:

والذي أرهبه وأسفاه

هجرك المدعوُّ بالموت الزُّؤام

لقد فرغ الشّعراء من تشبيه الهجر بالموت وقالوا: «ألَّا إنَّما الموتُ التفرُّقُ والهَجْر»، فليس في بيت العقَّاد معنى له، ولكنْ فيه ذوقه اللغويُّ، وقوله: «المدعو»، والعامة إذا أرادوا تحقير شخص قالوا مثلاً: فلان «المدعو» بكذا؛ فانحطُّوا به عن كلمة (المُسمَّى)، ثمَّ إنَّ «المدعو» هذه لا تُفيد التَّسمية إلا في حيٍّ، ما من ذلك بُدٌّ؛ إذْ الاسم إنَّما يوضع للحيِّ ليُدْعَى به إذا ناداه منادٍ ليميزه عن سائر جنسه، فكيف يُقال الهجر «المدعو» بالموت؟!

بَيْدَ أنَّ هذا هو علم العقَّاد باللُّغة وقدرته على تصريفها ومنزلته في صناعة الفنِّ الشِّعريِّ لألفاظها، وديوانه لا يشهد له في ذلك إلا من نوع (شهادة الفقر).

---

(1) اللُّزوميَّات 1/148، وفيه: «يحل بمهرٍ رحيق الرضاب ...».

عَرَضَ لشاعر قديم مثل هذه التَّسمية التي جاء بها العقَّاد عامِّيةً محضةً، فأراد أنْ يقول: «ريقُ الحبيبِ المدعو بالخمر»؛ فانظر كيف حقَّق فنَّ الجمال في صناعة الكلمة، وكيف أدارها، وتصرَّف بها، وأنزلها في المرتبة العليا من البلاغة بأسلوبه الشِّعريِّ وبصره وطبيعته وذوقه في قوله:

وَلِلصَّهْبَاءِ أَسْمَاءٌ وَلَكِن
جَهِلْتُ بِأَنَّ في الأَسْمَاءِ رِيقا[1]

أفليس هذا هو معنى قول النَّاقد الإنجليزيِّ: «محكُّ الشَّاعر الحقِّ هو قدرته على اختيار الألفاظ وانتقائها»؛ أي: قدرته على سياسة المعنى بها.

وقد أراد أبو تمَّام أن يستعمل كلمة «المُسَمَّى»؛ فوضعها بين ثلاثين كلمة تُمثِّل بجملتها معنىً واحداً؛ فجاءت على عامِّيَّتها، وإنَّها في شعره لَمِنْ أسمى الشِّعر، قال:

وَمَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلنَّوَائِبِ أَصْبَحَتْ
خَلائِقُهُ طُراً عَلَيْهِ نَوَائِبَا
وقد يكْهَمُ السَّيفُ «المسُمّى» مَنِيَّةً
وقد يرجِعُ المرءُ المُظَفَّرُ خَائِبا
فآفةُ ذَا ألاَّ يُصَادِفَ مِضْرَباً
وآفةُ ذا ألاَّ يُصادِفَ ضَارِبا[2]

وقد نبَّهتْ مجلة «أبولُّو» على أنَّ قصيدة غزلٍ فلسفيٍّ التي فيها «هجرك المدعو» مأخوذةٌ من قصيدة شلي «إبيسيكديون»، كما نبَّهتْ على سرقات أخرى للعقَّاد

(1) ورد البيت منسوباً إلى ابن أسد في ديوان الصَّبابة لشهاب الدين ابن أبي حجلة، الباب السَّابع والعشرون ص 106.

(2) شرح ديوان أبي تمام: الخطيب التَّبريزيّ 1/82.

من الشِّعر الإنجليزيِّ، ولَعَدَدٌ واحدٌ من هذه المجلة بشعر العقَّاد كله، وإنَّها لتنشر لصغار النَّاشئين ما لا يطمع العقَّاد أن يجيء بمثله؛ فكيف به مع القُرُومِ[1] والفحول الذين تنشر لهم في كلِّ عدد.

ومن ذوق العقَّاد قوله في تلك القصيدة يخاطب الحبيب:

فيكَ مِنِّي، ومِنَ النَّاس، ومِنْ

كلِّ موجودٍ وموعودٍ تُوْأَم

قلنا فإنَّ «من كلِّ موجود»: البقُّ والقُمَّل والنَّمل والخُنْفساءُ والوَبَاءُ والطَّاعون والهَيْضَة[2] وزيت الخروع والملح الإنجليزيُّ إلى واواتٍ من مثلها لا تُعد، أفيكون من هذا كله في حبيبٍ على مذهب العقَّاد في ذوقه ولغته وفلسفته؟! وهل فعل انحطاط سبعة قرونٍ مرَّت على الشِّعر العربيِّ إلى بدء هذه النَّهضة شرّاً مما يفعل مثل هذا الذَّوق وهذه اللُّغة العقَّاديَّة؟! إنَّ ذلك المعنى الذي بنى عليه هذا المسكين غزله الفلسفيَّ قد مرَّ في ذهنِ أعرابيٍّ قديم لم يتعلم ولم يدرس الفلسفة ولا قرأ الشِّعر الإنجليزيَّ والفرنسيَّ والألمانيَّ والفارسيَّ، وليس له إلا ذوقه وسليقته وطبيعته الشِّعرية فصفَّى المعنى تصفية جاءت به كأنَّما يقطر من الفجر على ورق الزَّهر بقوله:

فَلَوْ كُنْتِ مَاءً كُنْتِ مَاءَ غَمَامَةٍ

ولَو كُنْتِ دُرًّا كُنْتِ مِنْ دُرَّةٍ بِكْرِ

وَلَوْ كُنْتِ لَهْواً كُنْتَ تَعليلَ سَاعَةٍ

وَلَوْ كُنْتِ نَوْماً كُنْتِ إغْفَاءَةَ الفَجْرِ

(1) جمع قَرْم وهو السَّيِّد المُعظَّم.

(2) داءُ الكُوليرا الذي كان شائعاً آنذاك في مصر.

ولـو كنـتَ لـيـلاً كـنـتَ قـمْـراءَ جُـنِّـبَـتْ

نحوسَ ليالي الشَّهرِ،أو ليلةَ القدْرِ[1]

***

«ولو كُنْت لكُنْت» هذا أبدع عنوان لأجمل قصيدة في فلسفة الغَزَل، وانظر كيف جعل الأَعرابيُّ حبيبته أصفى شيء، وأغلى شيءٍ، وأحب شيءٍ، وألذَّ شيءٍ، وأجمل شيءٍ، وأسعد شيءٍ، وكيف صوَّرَهَا شعراً للشِّعر نفسه ثم قابل هذا الذَّوق المُصفَّى بذوق من يجعل في حبيبته من كلِّ شيءٍ ومن كلِّ موجودٍ ومَوعُودٍ تؤاماً وزُؤاماً وبلاءً عامّاً.

***

(1) زهر الآداب وثمر الألباب للحُصريِّ القيروانيِّ 580/1. وفي محاضرات الأُدباء ومحاورات الشُّعراء والبلغاء للرَّاغب الأصفهانيِّ 375/1:

فلو كنتَ ماءً كنتَ ماءَ غمامة × ولو كنتَ نوماً كنتَ تعريسةَ الفجرِ

ولو كنتَ لهواً كنتَ تعليلَ ساعةٍ × ولو كنتَ ليلاً كنتَ من ليلةِ القدرِ

وَحْيُ الأَرْبَعِين

(الحَلَقَةُ الثَّانيَةُ)[1]

نحن لا نستقصي في هذا النَّقد؛ وإنَّما مذهبُنا في شعر العقَّاد «والبعرةُ تدلُّ على البعير»، وقد عرفت أمثلة من ذوقه الشِّعريِّ واللُّغويِّ، فهذه أمثلةٌ أخرى من غلطِهِ، قال في ص 36:

ضـلَّـةً لـلـخُـلُـودِ نـأسَـى عـلـيـه
أخـلـدُ الخَـالِـديـنَ فـيـنـا دَعِـيُّ

وظاهرٌ أنَّه استوحى المعنى من نفسه وطريقته في الهيج الصحافيِّ مما يُحيط به نفسه، ولكن «أخلد الخالدين» بيِّنةُ الغلط؛ إذْ لا يأتي التَّفضيل إلَّا من فِعْلٍ يقبل التَّفاوت حتى يكون شيءٌ أفضلَ من شيءٍ، والخلود لا تفاوت فيه وإلا فليس خلوداً، فهو أزلٌ لا آخر له، ومن خلد فقد خلد، كما لا يُقال «أمْوَتُ الموتى» والخُلودُ الأرضيُّ بالذِّكر ونحوه مجازٌ فيؤخذ على ظاهره، ويُؤتِى بالتَّفضيل فيه من لفظ يحتمل التَّفضيل كقولك: أكذبُ النَّاس في ادِّعاء الخلود، وأبقى النَّاس في خلود الذِّكر.

وفي ص 7 من المقدِّمة «فلينظم النَّاس له أبياتاً على طرازٍ أو لا ينظموا على أيِّ طراز»، واستعمال (أي) في مثل هذا مِمَّا شاع في اللغة العامِّيَّة ولا أصل له في العربيَّة، وظاهرٌ أنَّ «النَّاس» معناها في لغته: الشِّعراء خاصة، على قاعدة «العنب الفراولة».

وفي ص 8: يحتم على الشّعراء، ضَبَطَ (يحتِّم) بتشديد التاء، وهو من استعمال العامَّة أيضاً.

---

(1) البلاغ، 23 ذو القعدة، 1351 هـ = 19 مارس 1933م.

وفي ص 33 «داهم الحصن المنيعا» وهو تعبيرٌ نصفُ عامِّي شَاعَ في النَّاس، فإذا نظرتَ إلى وجهه في اللُّغة رأيتَ مستعمله عامِّيّاً محضاً؛ لأنَّ هذا الفعل يفيد بتجرُّده في أصل اشتقاقه ما يفيد المزيد، ولهذا لم يستعملوا منه مزيداً؛ فقالوا: دَهَمَ، ولم يقولوا داهم، وقد انتقده بعض الأدباء على العقَّاد؛ فردَّ عليه هذا بأنَّ فَاعَلَ هنا بمعنى فَعَلَ قياساً على قوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّه﴾[1] فإنَّه بمعنى قَتَلَ، وإنْ كانت في صورة المزيد، ونقل هذا عن ابن قتيبة، وهو جهلٌ آخر، فما كلُّ ما يقوله ابن قتيبة تقوله الحقيقة، وقَاتَلَ إنَّما جاءت في الآية على أصلها الذي تُفيده هذه الصِّيغة؛ لتُشعر وقاحة هذه الحشرات الآدمية في معصية اللّه، وتصف غرورهم وتعجب السَّامع من فعلهم وجهلهم، ولهذا التَّعجيب انتقلت الكلمة في الاستعمال حتَّى صارت في معناه كالحقيقة العُرفيَّة فيقولون: قَاتَلَهُ اللّه ما أفْصَحَهُ! لا يُريدون ذمّاً؛ بل يريدون أنَّه كالخارج على اللّه فيما قَدَّرَ للنَّاس مما تحتمله قُواهُم من الفصاحة، فليس معناها: قَتَلَهُ اللّه، ولا هي من هذا في شيءٍ! ولَعلَّ العقَّاد بعد هذا لا يتطاول مرة أخرى إلى الكلام في اللُّغة.

وفي ص 23 أيضاً:

لأمرٍ ما دَخَلْنَاها

ولا عَزماً ولا وَعْياً

وهذا التنوين في «عزماً ووعياً» خطأ؛ فإنَّ اسم لا إنْ كانت نافيةً للجنس يُبنى على الفتح، فإنْ كانت بمعنى ليس وجب رفع «عزم ووعي».

وفي ص 43:

إنَّما تَسلُسُ الطِّلابُ جميعاً

لامرئٍ هانتْ الطِّلاب عليه

---

(1) سورة التوبة: 30، وسورة المنافقون: 4.

وهو المعنى المعروف الشَّائع ويريد بالطِّلاب جمع طَلِبَة، وإنَّما الكلمة مصدرُ مفرد مُذَكَّر، وطَلِبَة ككَلِمَة تُجمع على طلبات ككلمات، وقد استغنوا بها عن جمع طِلْبَة وزان حِكْمَة، فهذه لم نقف لها على جمع، ولعلَّ العقَّاد رأى بيت الشَّريف الرَّضيِّ:

وعِـــبءٌ علـى عيـنـيَّ رؤيـــةُ غـيـرِه
وإنْ كـانَ لي فـيـه مُـنـىً وطِلَابُ[1]

فحسبها جَمْعاً، وإنَّما هي المصدر بمعنى الطَّلَب.

وفي ص 49:

«إذا ما تبيَّنتَ العُبوسةَ في امْرِئٍ»

والعُبُوسُة من استعمال العامَّة.

وفي ص 68:

«مِنَ النَّاس؛ لا بل من بهيم مُذَنَّبِ»

«وبهيم» واحدُ «البهائم» من استعمال العامَّة أيضاً، وإنَّما هو قولُهم ليلٌ بهيمٌ، أمَّا تلك فبهيمة.

وفي ص 71:

«دموعٌ ذَرَاها الحُزْنُ من طَرْفِ أَشْيَبِ»

وقال في الشرح: ذرا الشَّيء فرَّقه وبعثَره، وليس كذلك؛ وإنَّما يُقالُ ذَرَت الريحُ الشَّيء: أطارته وأذهبته، وهذا لا يتَّفق في الدُّموع؛ وإنَّمَا المستعمل فيها أَذْرَت العين دمعها، لابد من الألف في «أَذْرَت» وإلا استحال المعنى، فإنَّ ذرا تُفيد الارتفاع وهو لا يمكن في انحدار الدَّمع وتساقطه، وأذرى تُفيد الإلقاء،

(1) ديوان الشَّريف الرَّضيِّ: أبو حكيم الخبريِّ، ص 224.

تقول: جمحت به الدَّابَّة فأذرته أي رَمَتهَ وألقته.

وفي ص 77: «الآنَ فاذهب تستريح»، ولا معنى لرفع جواب الطَّلب هنا؛ لأنَّ الذَّهاب سببٌ في الاستراحة، ففي الكلام شرطٌ مُقدَّرٌ ويجب الجزم، وإنَّما يُرفعُ الجواب إذا لم يكن الطَّلب سبباً فيه كقوله تعالى ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1]؛ فإنَّهم يلعبون إنْ تركهم أو لم يتركهم.

وفي ص 89:

والسَّهمُ يقصدُ إنْ جَثَا
رامِي السِّهامِ أو اشْترَفْ

قال في الشَّرح: «اشْترَف: وَقَفَ مُنتصِباً»، ولكنَّ هذا المعنى لا يُقَالُ فيه إلا أشرف واستشرف أي انتصب ليرى، ويشرف على الشَّيء كأنَّه يستعمل طوله فيطلع من فوقه.

وفي ص 90:

ألقَى لهنَّ بقوسِه
قزحٌ، وأَدْبَرَ وانصرفْ
فلبسْنَ من أَسْلابِه
شتَّى المطارِفِ والطُّرَفْ

فقُزَح لا يُلقي قوسه أبداً؛ إذْ لا ينفصل منه، قال في اللِّسان: «ولا يُفْصَلُ قزحٌ من قوس»؛ فإذا امتنع فكيف يقال: «وأدبر وانصرف»، والمعنى مأخوذٌ من قول المعرِّي يصف مُغنِّية:

(1) سورة الأنعام: 91.

بــيــنــهُــمُ كــالــغَــمَــام شــاديــةٌ،

تـومـضُ في مَـلـبَـسٍ كـقـوسِ قُزَحْ[1]

فالغمام وقوس قزح معاً في جسم المرأة الجميلة وثيابها، وهذه صنعةٌ بارعة، أمَّا قزح العقَّاد، فلعلَّه الخواجه قزح المالطيُّ مراقب المجلس البلديِّ على شاطئ استانلي الذي قيلت فيه القصيدة.

وفيها أيضاً وأيضاً فيها:

حَــيٌّ الجــمــالَ كــمــا بَــدَا

أو لا، فــدُونَــكَ والجِــيَــفْ

وما دُمْنا في ذوق العقَّاد الشِّعريِّ الذي يذكُر المِرْحاضَ (انظر كتاب السَّفُّود) فلا اعتراضَ على الجِيَف، أما أنت أيها القارئ فتَصَوَّرْ الجميلات العاريات (المفرغات من الأشعة) يقابلها في الشَّطر الأخير الجيف المتعفِّنة تتقرَّح صديداً وتَتَناثرُ دوداً وحشرات.

وفي القصيدة أيضاً وأيضاً فيها..

عــيــدُ الــشــبــابِ فَــلا كَــلا

مَ، ولا مَــلامَ، ولا خَــرَفْ

إنَّ غاية الغايات في إحسانِ الظنِّ بأدب العقَّاد أنْ تقول: إنَّ في هذا البيت غلطة مطبعيَّة، وأنَّ صوابه:

عــيــدُ الــشــبــابِ فــلا كَــلا

مَ، ولا مَــلامَ، ولا (قَــرَف)

(1) اللُّزوميَّات 1/223.

وفي ص 115 الجسم الضَّاحك:

ثــغــرُك الــضَّــاحــكُ، لا؛ بـل

وجْهُكَ الضَّاحكُ؛ لا بل كلُّ جِسْمِكْ

لا؛ بــل الـدُّنـيـا الــتــي تُــو

مِــضُ نــوراً حــولَ نَجْـمِـكْ

فهذا النَّظم من العروض الثَّانية من الرَّمَلِ ووزنُهُ:

فــاعــلاتــنْ فــاعــلاتــنْ

فــاعــلاتــنْ فــاعــلاتــنْ

ولكنَّ البيت الأوَّل وزنُهُ هكذا:

فــاعــلاتــنْ فــاعــلاتــنْ فــاع

لاتــنْ فــاعــلاتــنْ فــاعــلاتــنْ

ونُشْفِقُ على العقَّاد فنمسك في الكلام على تخليطه عند هذا الحدِّ.

وبعد؛ فلننظر في فلسفته التي يتهافتُ فيها نظمُه حتَّى ما ينفكُّ من سَقْطَة إلى سَقْطَة، كأنَّه لم يأتِ من طبعٍ، ولا انبعث من قوة، وما هو إلا تَلفيقٌ مُلَفَّقٌ يُعلن بضاعته أنَّه كان وحياً في عقولٍ كبيرة ملهمةٍ؛ فضُربتْ عليه الذِّلَّةُ؛ فنزل في عقلٍ ضعيف، ومرَّ في بيانٍ متخلِّفٍ، وجاء فضولاً من المعنى، في استكراهٍ من الأداء، على اضطرابٍ من النَّظم، وكان هذا الاضطراب فيه هو عمل التفكيك والتَّكسير في أخذه استلاباً واغتصاباً، أو أثر انحداره من فكرٍ عالٍ إلى فكرٍ نازلٍ، ومن طبيعةٍ واسعةٍ إلى طبيعةٍ ضيِّقةٍ، ومن سَبْكٍ جيِّدٍ إلى سبكٍ رديءٍ.

والعقَّاد لا يتهيَّأ في طبعه من الفلسفة كالذي يتهيَّأ في طباع الشّعراء الملهمين،

إذْ لا نجد في استطاعته أنْ يقْتَسِرَ الإلهام وهو ليس بصناعة، ولا حيلة له فيما يفوت ذرعه، ويقطع قوَّتَهُ، وما لا يخلقه الله لا تخلقه اللغة الإنجليزيَّة، والشَّاعر المُلْهِم يسنح له المعنى من فكرٍ أو نظرٍ أو قراءة، فإذا هو كأنَّه قطعةٌ من جمال الحياة تريد أنْ تنفذ إلى حياة النَّاس ليزيدوا بها حسّاً وذوقاً ومنفعةً، وإذا المعنى في صورته تجعله وحياً إلى هذا العبقريِّ بخاصَّته، وإنْ كان قد وقع من قبل ذلك لكل شعراء الدُّنيا، ويجيء كما يجيء الإنسان من النَّاس قد امتلأت بهم الأرض، وقلَّمَا يتشابه اثنان شبهاً تامّاً إلا في النُّدْرة.

ولكن غير المُلْهَم يتسقَّط المعنى من فكرٍ أو قراءة أو نظرٍ أو اختلاس؛ فإذا هو قد جاء بصناعة عقليَّة على قدره بخاصَّته، لا على قدرِ المعنى؛ فكأنَّهُ لم يزد على أنْ تنبَّه له دون أنْ ينفذ إلى حقِّه أو يخلص إلى طبيعة الشِّعر فيه.

ونحن نعرف العقَّاد رجلاً ذكيّاً مفكِّراً مُطَّلِعاً، ولكنْ هذه الخصال على أنَّها الطَّبقات العليا في صناعة الكتابة الصحافيَّة، هي الطَّبقات السُّفلى في صناعة الشِّعر العالي، فإنَّ الإلهام من فوقها يبدأ، وكأنَّها الجاذبيَّة الأرضيَّة: لا يتخطَّى حدودها من كانت طبيعته من الأرض وإنْ علا في طيَّارةٍ أبعد ما يعلو وإلى أنْ يختنق، فما يصنع الرَّجل شيئاً أكثر من أنْ يضع يده على المعنى، ثم يجتهد في تقليبه وتقطيعه وتهشيمه، وكثيراً ما تقصر عبارته لضعفه في البيان واللُّغة؛ فيرى أنَّ ما كان في نفسه لا يزال في نفسه، مع أنَّه قد نَظَمَهُ وتَعِبَ فيه، فيعمد إلى الشَّرح يستعين به كأنَّه في طريق مقالة يترجمها أو يحصِّلها، ويأتي الشَّرح دليلاً على أنَّ هذه الفلسفة الشِّعرية لم تجئ من فيلسوف أبدعها ولا شاعر ألهمها، وأنَّها غير مطَّردة على (سياقها)[1]؛ بل هي مُلَفَّقَةٌ تَلفِيقَ المتن ينظم كما ينظم اعتماداً على أنَّه لا يقوم بنفسه، ولابدَّ معه من شرحٍ، ولابد مع إبهامه من تفسيرٍ.

---

(1) مطموسةٌ في الأصل.

وقد ترى النَّظم في ديوان العقَّاد كأنَّه مُغميٌ عليه، وترى الشَّرح له كأنَّه «عمليــة التنفُّس الصِّناعيِّ» وهذا ممَّا يؤكِّد أنَّ طبيعة الرَّجل غير طبيعة الشَّاعر؛ فإنَّ أجملَ الشِّعر وأبدَعَه وأدقَّه في الصِّناعة البيانيَّة لا يمكن شرحه إلا بألفاظه عينها، فإنَّ في هذه الألفاظ ونسقها وروحها سرَّ الفنِّ كلِّه؛ إذْ فيها عمل النَّفس الكبيرة الشَّاعرة التي عملت بروحها في اللُّغة عمل روح الطَّبيعة فيها.

ولا قيمة للشِّعر إنْ لم تأتِ ألفاظُه كأنَّ فيها دماً وأعصاباً وحسّاً، إذْ كان هو لم يأتِ إلا من عاطفة قائمة في الدَّم والأعصاب والحسِّ، فهو ينقلها إلى ضربٍ من الكلام ينزل أسلوبه من اللُّغة منزلة أسلوبها من النَّفس، وهذا هو الفنُّ البيانيُّ كلُّه؛ ومن ثَمَّ فالشِّعر الذي ينقصه التَّفسير لا يكون التَّفسير هو الذي ينقصه؛ بل الشِّعر.

وفي ديوان العقَّاد نوعٌ من الشَّرح يعدُّ في الأسلحة، فإذا تناوله القارئ وخاض فيما بعده من الشِّعر؛ فما هو إلا الجنديُّ قد تناول الكمامة التي يُخمِّر بها أنفه قبل خوض معركة الغازات الخانقة، ومنه هذا الشَّرح في ص 60 الذي مَهَّدَ به العقَّاد لقصيدة «كاروس» وشرحه في ص 17 تمهيداً لقصيدة (فلسفة حياة)، وكلتا هاتين القصيدتين لو أنشدها العقَّاد لسجَّلتْ كلُّ مراصد العالم حركاتِ زلزلة.

ولا بأس من هذا الخبر نستطرد إليه؛ فإنَّه دليلٌ من أقوى الأدلَّة على ما نحن بسبيله، فقد دُعِيَ العقَّاد في سنة 1930 إلى طنطا ليلقي كلمةً في الاحتفال السنويِّ لجمعية الإحسان السُّورية المصريَّة، فألقى قصيدته المنشورة في ص 142 من (الوحي)، وهذا الحفل يكون فيه دائماً كلُّ أهل الفضل من رجالٍ ونساءٍ؛ فقام صاحبنا يقول لهم:

مَــرْيَمُــكُــمُ أُخْـــتٌ لـعـيـسـاكُـمُ

وكـــلـــكُـــم آمـــنـــةٌ أو أمـــيـنْ

ومرَّ في هذيانه الشِّعري والجمهور لا يكاد يصدِّق أنَّه يرى شاعراً أو يسمعُ شعراً، ثم فرغتِ القصيدة من نفسها، وجلس العقَّاد وقد انخذل انخذالاً شديداً، ورأى بعينه أنَّ النَّاس قد تركوه ينشد قصيدته كما لو كان يُلقيها في غرفةٍ ليس فيها غيرُهُ.

قال الراوي: وكان خطيب الاحتفال صديقنا الأستاذ توفيق دياب، فما كان أعجب ولا أغرب ممَّا صنع؛ إذ قام يشرح للنَّاس تلك القصيدة كأنَّ العقَّاد المَتْنَ جاء معه بالعقَّاد الشرح، وأدركتْ صاحبُنا دياب الشَّفقة؛ فلما سقطت القصيدة قام بعملٍ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

ومع ضرورة الشَّرح للعقَّاد على ما رأيتُ، فقد صدَّر ديوانه بهذه الأبيات ولم يعلِّق عليها بكلمةٍ واحدةٍ، قال:

صحَّ جسماً فشاقتْ الأرضُ عينيه

جـمـالاً وفـتـنـةً وضـيـاء

صحَّ نفساً فشاهَتْ النَّاس حتى

كَـرِهَ الأرضَ حـولَـهُ والسماء

عجباً للحياةِ ما سَرَّ فيها

جـانـبٌ تـرتـضـيـه إلا أَسَـاء

فمَنْ من الشُّعراء يفهم معنى البيت الثَّانيِّ، وكيف يقع أنَّه لو صحَّ الإنسان نفساً «شاهت النَّاس»؟!

إنَّ العقَّاد لن يستطيع أنْ يشرح للنَّاس هذا المعنى لا من أنَّه مستغلقٌ لا يُفهَم، ولكن لأنَّه يكشف عن (سرقة محلية) وهو يؤثر أنْ يبقى البيت لغواً على أنْ يعرف الأدباء مأخَذَه وأصله، فإنَّما أخذه من كتابنا «رسائل الأحزان»، وهناك في صفحة 170 تجد شرح هذا البيت ونصه: «ولا أثقل على نفسي من النَّاس؛ فإنَّ ظلالهم تهبط على قلبي المتألِّم بأشباح ممسوخة، وأراهم على وتيرة واحدة في ثقل الرُّوح وسواد الظِّلِّ، ولا ذنبَ لهم غير أنَّ وليّاً من أصفياء اللّٰه خرج يتوضَّأ يوماً وقد أقبل النَّاس على وضوئهم فكشف اللّٰه عنه حجاب الحيوانيَّة فنظر؛ فإذا لكلِّ رجلٍ وجهٌ، ولكلِّ وجه سحنةُ حيوان، ولكلِّ حيوانٍ معنىً، وإذا شهوات أنفسهم قد مسختهم مسخاً، وفاءت ظلالُها على وجوههم بجلود الحمير والبغال والقِرَدَة والخنازير وما دبَّ ودَرَجَ».

ولو رجع القرَّاءُ إلى كتاب «السَّفُّود» لرأوا في صفحة 70 سرقةً أخرى للعقَّاد من هذا المعنى بعينه استعملها في مقالة له سنة 1929، غير أنَّنا لم نقل إنَّ صحَّة النَّفس تكون سبباً في كُره الأرض والسَّماء، فهذا جاء به العقَّاد للقافية لا غير، ومعنى البيت الثَّالث مأخوذٌ من كتابنا (المساكين)، وهو هناك في صور مختلفة، ومنها هذه العبارة: «ولم تجد حسنةً إلا معها من طبيعتها سيِّئةٌ».

وأكثر معاني العقَّاد إنَّما هذه سبيلها من السَّرقة، وقلَّما جاء بمعنى يبلغ مبلغ حسنه في الأصل إنْ أخذه من النَّثر أو الشِّعر، فضلاً عن أنْ يُربي على أصله للعلل التي عرفتها. انظر كيف قال في ص 35:

خُذْ ما بَدَا لكَ من ثَرَى الدُّنيا تُصِبْ

فيه رُفاتاً هَاجَ مُهْجَةَ شَاعِرِ

فأيـن هذا الاقتضـابُ من قول الخيَّـام: «كلُّ ذرَّةٍ على وجـه الثَّرى هي وجه حسـناء زهراء الجَبِـين، يا هذا لا تنفض الغبارَ عن أردانـك إلا بلطفٍ فإنَّه كان أيضاً وجه حسناء أخرى».

وفي ص 49:

قطوبُ كريم خابَ في النَّاس سعيُهُ
أحبُّ من البُشرى بفوزِ لئيم

ولا نـدري كيف تَصِحُّ المقابلة في شـطريْ هـذا البيت؛ وإنَّما صـواب المعنى أنَّ القطـوب في وجه الكريم الخائب أحبُّ من البشـر في وجه اللئيم الفائز؛ فانظر كيف صنع!! وأين هذا من صنعة المتنبِّي في قوله:

والغِنى في يَدِ اللَّئيم قَبيحٌ
قَدْرَ قُبْحِ الكَريمِ في الإمْلاقِ[1]

فلـو كان العقَّاد نَظَمَ الكلامَ على أنَّ البِشْـر في وجه اللئيـم الفائز أقبح من التَّقطيب في وجه الكريم الخائب؛ لكان قد جاء بشعر.

وفي ص 54:

وما اختيارُك إلا ما خُلقتَ له
إنَّ الطبائعَ ما ترضَاهُ نرضَاهُ

وهو قول بشَّار:

خُلِقْتُ عَلَى مَا فِيَّ غَيْرَ مُخَيَّرٍ
هَوَايَ، ولو خُيِّرْتُ كنتُ المُهَذَّبا[2]

(1) ديوان شيخ شعراء العربيَّة أبي الطَّيب المتنبِّي، ص 234.

(2) ديوان بشار بن برد 269/1.

وفي ص 52:

إنَّ في طينة ابنِ آدمَ لؤماً
يَستَوي في قَذَاهُ حُرٌّ وعَبدٌ

وهو مسخ قول ابن الرُّوميِّ:

ولا بدَّ منْ أنْ يَلؤُمَ المرءُ نازعاً
إلى الحَمَأ المَسْنُونِ ضربةَ لازِبِ[1]

وابن الرُّوميِّ يصوِّر هذا المعنى في أساليب مختلفة، وبيت العقَّاد فاسدُ المعنى؛ لأنَّ الشَّأن في الطَّبيعة للطِّينة لا للقذى ولا للُّؤم الذي يشبه القذى في الطِّينة.

وفي ص 88:

يا وَيْحَ قلبِك من هَدَف
صَالَ المُسدد أمْ صَدَفْ
والسَّهمُ يقصدُ إنْ جَثَا
رامي السِّهامِ أو اشْتَرَفْ

وهما قول ابن الرُّوميِّ، وانظر أين صناعته من صناعته؟:

كذلك تلكَ النِّبلُ مَنْ وقعتْ به
ومَنْ صُرِفتْ عنه من القوم مُقصدُ
إذا عَدَلَتْ عنَّا وجَدْنا عُدُولَها
كموقعِها في القلبِ؛ بل هو أَجْهَدُ[2]

(1) ديوان ابن الرُّوميِّ (ط دار الكتب العلميَّة) 139/1.
(2) ديوان ابن الرُّوميِّ 585/2.

وفي صـفحة 160 قال: «زُهرَة القُبْح»، ولا ندري كيـف يأتي أنْ تكون الزُهرَة (بضم الزَّاي) للقبح واشتقاق لفظها للجمال والإشراق؟!

طلعةُ الشُّؤم مَن رَآها يَخلها
خُلقتْ من وجوه سَبعينَ قرداً

فسـبعون قرداً وسـبعمائة كوجه قرد واحد؛ لأنَّها كلَّها خَلْقٌ واحدٌ لا يتفاوت، وتأمَّـل كيـف تهكَّم ابن الرُّومـيِّ في مثل هـذا المعنى لتدركَ بَعْـدُ الفرقَ بين الشَّاعر ومن يُقلِّد الشَّاعر، قال:

إذا لم يكن قرداً تماماً حكايةً
وقُبْحاً فلم تكملْ لهُ صورةُ القرْدِ[1]

أي إذا كان قرداً تامّاً فقد مُسـخ، وإذا كان لم تكمل له صـورة القرد؛ فذلك أشدُّ قبحاً ومسخاً، وكل الشِّعر في قوله: لم تكمل له صورة القرْد.

وفي ص 128:

أرقبُ البَدْرَ إذا الليلُ سَجَى
فلَنَا فيهِ على البُعدِ لقاء

وكيـف يلتقـي بحبيبته (البعيـدة) في البدر، ومن عسـى يفهم هـذا إلا من يعرف قول الأعرابيِّ لحبيبته:

إلى الطائرِ النَّسْرِ انظري كلَّ ليلة
فإنِّي إليهِ بالعشيَّةِ نَاظِرُ
عسى يلتقي طَرْفي وطرفُك عنْدَه
فنشكو إليهِ ما تُكِنُّ الضَّمَائرُ[2]

(1) نفسه 2/608.

(2) تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العُشَّاق: داود الأنطاكي، ص 216.

والطَّائر النَّسْر: كوكب. وفي ص 98:

حينما أسفَرَ نورٌ وانتشرْ

وحَلا في خَلوةِ الليلِ السَّهرْ

فهنا لا ريبَ حِسٌّ وبصرْ

وهو يكرِّر هذا المعنى وأصلُه من قول ابن الرُّوميِّ يصف الأرض في الرَّبيع، إلا أنَّ العقَّاد يصفها في نور القمر:

نيرةُ النُّوارِ زهراءُ الزَّهَرْ

تبرَّجتْ بعد حياء وخَفَرْ

تبرُّجَ الأُنثى تَصدَّتْ للذَّكرْ[1]

أي فيها حسٌّ وعاطفة فنقل العقَّاد ذلك إلى أرواح تكون في نور القمر على الأرض كما يقول اليابانيُّون في شعرهم: «إنَّ تحت نورٍ القمر حشرات توقع أنغام الغرام»، ولعلَّ هذه الحشرات ارتقت عند العقَّاد فصارت هي الأرواح التي وصفها.

وفي ص 82:

إذا قلت زوراً فهو من صِدقِ شيمتي

ومن يصِفُ الدُّنيا يصف خيم ختَّال

إذا هَزَلَت أمِّي الحياة فهل ترى

من الصِّدقِ ألا يَطرق الهزلُ أقوالي

---

(1) ديوان ابن الرُّوميِّ 993/3.

فالحياة ليست أمَّ أحد؛ وإنَّما الأمُّ هي الدُّنيا كما قال المعرِّيّ:

خسئتِ يا أُمَّنَا الدُّنيا فأفٍّ لنا

بنُو الخسيسةِ أوباشٌ أخِسَّاءُ[(1)]

والبيتان تهشيمٌ وتكسيرٌ لأقوال منها بيتُ المتنبِّي:

ومَنْ صَحِبَ الدُّنيا طويلاً تقلَّبَتْ

على عيْنِه حتى يَرى صِدْقَهَا كَذِباً[(2)]

والبَعْرة كما قلنا تدلُّ على البعير، فحسبك هذا، على أنَّ من الإنصاف للعقَّاد أنْ نعترف له بأنَّه يُجيد إجادةً حسنةً في باب واحدٍ هو الباب الذي تراه في أبيات من قصيدته «عيدُ ميلاد في الجحيم» ص 73، والشَّيطان نفسه لو كان شاعراً واستمدَّ من طبعه لما قال أحسن من هذا:

ولربَّ وجهٍ يَومَذَاكَ شهدتُه

فكأنَّ سُمّاً في العُيُون انْسَابَا

وجهُ اللئيمِ إذا اسْتَهَلَّ ومثلُهُ

وَجْهُ الكريمِ إذا اضْمَحَلَّ وذَابَا

---

(1) اللُّزوميَّات 1/38.

(2) ديوان شيخ العربيَّة، ص 36.

وَحْيُ الأربعين .. ردُّ عبَّاس محمود العقَّاد

(الحلقة الثالثة)[1]

قرأتُ اليوم في (الجهاد) ردَّ صاحب (وحي الأربعين) على ما كتبتُه عنه في (البلاغ) الأغرِّ، وهو ردٌّ ظهر فيه العقَّاد طائراً بالكلام على وجهه، مثيراً حوله عُجَاجَةً من السَّبِّ كما تفعل النَّعَامة إذا طاردها الرُّعب في عرض البيد، وخفق بها الفزع خفقة البَرْق، وحاولت أنْ تسبَّ السَّماء بغبار الأرض، فذكَّرني فزعه هذا وتخبطه مع اتساعه في الدَّعوى وتقريظه إيَّاها إلى ما يفوت عرض الغرور وطوله معاً، وانخداع بعض الناشئين في الأدب بوهمه وشعوذته، وظنَّ أنَّ من وراء هذا النَّفخ وهذه الصَّولة وهذا (التَّفَعِّي) و(التَّثَعْبن) أنياباً فيها السُّمُّ ناقعٌ، وما دروا أنَّ من الحيَّات أفاعي كلُّ سلاحها أنْ تنفخ نفخها وتصول صولتها و(تنشر مقالتها) وهماً وخداعاً وإرهاباً للحشرات الضعيفة، وسحراً لبُغاثِ الطَّير، ثم ليس معها بعد ذلك شرٌّ ولا خيرٌ، وليس فيها كبير أمرٍ ولا صغيره.

ذكَّرَني فَزَعُ العقَّاد بمَثَلٍ كنت قرأْتُهُ في النُّسخة التي عندي من كتاب (كَلِيلَة ودِمْنَة)، ويعرف الأدباءُ الذين قرأوا كتابي (تحت راية القرآن) أنَّه ليس في العالم كلِّه نسخة أخرى مثلها، وقد رأيتُ أنْ أُتحف قُرَّاء (البلاغ) بهذا المثل قبل أنْ آتيهم بالهذيان الأدبيِّ الذي ردَّ به العقَّادُ علينا.

قال كليلة وهو يضحك: فانطلق دِمْنَة إلى الثَّور، وقال له: أيُّها الثَّور العظيم، نحن معشر جندك، المُحْتَمين بدولتك، نعرف أنَّ الله خلق في حَلْقك الرَّعد، وأنَّ خُوارَك ما يكون أبداً إلا هزيمَ الصَّوَاعِق التي في صدرك تُقعقع من وراء هذا الغيب الذي هو حجاب من جلدٍ شرَّفه الله بجَعْلِه في عنقك، وأنَّ

(1) البلاغ 27 ذو الحجة 1351 هـ = 23 مارس 1933م.

أَظْلافَك كانت من أوَّل الدَّهر جبالاً عظيمةً قائمةً من الصَّخر الصَّلب تشمخُ على السَّماءِ؛ فأراد الله أنْ يُعلِّمها التَّواضع؛ فأرسل ملائكة الجحيم تعمل فيها ما يعمل صانع الأحذية في الأحذية؛ فجاءت فعملت فإذا أنتَ تنتعل من أربعة جبالٍ، وأنَّ قَرْنَيْك كرة أرضيَّة حادثة لم تجد القدرة ما ترسِّيها عليك غير رأسك الأزليِّ على عقلك الأبديِّ، وأنَّه بعد أنْ ضَرَبَت جذورُ هذه الأرض الجديدة وتمكَّنت في هذا العَظْم وهذا الجلد بدأت القارَّاتُ الخمس المولودة تظهر فروةً، فظهرت منها اثنتان عرفنا أنَّهما الشَّرق والغرب.

وأما ذيلك فهو النَّجم العظيم الذي كان هاوياً في أغوار الفضاء، ثمَّ تعلَّق بك كالمستغيث فأغثته وحملته وراءَ وراء، ومشيت تخطر به وتطوِّحه بقدرتك ذات اليمين وذات الشِّمال، وههنا رجلٌ خبيثٌ من أبناء آدم يُخيفنا ويُزعجنا، ونريد أنْ نقذفَ به من فوق قرنيك العظيمين حتى يُدَوِّم[1] في الجوِّ تدويماً بعيداً، فتخطفه الطَّير أو تهوي به الرِّيح في مكانٍ سحيق.

قال الثَّور: ويْحَكَ وما عسى أنْ يكون (المدعو) بابن آدم هذا، وكيف لا يرهبني أنا الثورَ جبار الأرض الذي يحمل صدره سحاباً وصواعق، ويُعلِّق في (ذيله)[2] فَلَكاً، وينتعل أربعةَ جبالٍ، وخلق الله السماءَ بغير عمد ترونها، وخلقني بهذه العَمَد التي (ترون الآن).[3] قال دمنة: إنَّه ينزل قريباً من هنا، وله اسمٌ غريبٌ، وما يُرى أبداً إلا وفي يده شيءٌ غريبٌ، سمعتهم يدعونه «الجزَّار» ويُسمُّون ما في يده «السِّكِّين».

قالوا: فتعلَّق الثَّور بأذيالِ الرِّيح، وانطلق يشتد كأنَّما رَكِب شيطاناً أو ركبه شيطانٌ، فناداه دِمْنَةُ: ما هذا يا مولانا الجبار، يا حامل الفلك في ذيله؟!

(1) حَلَّق ودار.

(2) غيرُ واضح في الأصل.

(3) غير واضح في الأصل.

فالتفـت إليه الثور، وقال: ويلَكَ يا عدوَّ الله (هنا بياض في الأصـل) «المدعو بالموت الزؤام»... (وهنا تمزيق ضاعت فيه بقية المثل).[1]

***

يعـرف العقَّـاد معرفته الشَّـرق والغرب والشَّـمال والجنوب أنَّنـا لا نعبأ به، ولا نعـدُّه أديبـاً، ولا نُقيم له وزناً في العربيَّة، ولا نخشـى سـفاهته، ولو جعل (الجهـاد) جهاداً فينا نحن، وهذا كله قلناه لـه في وجهه، ونعتقد يقيناً أنَّنا قلناه له في قلبه.

ورأيْنا في أدب العقَّاد أنَّه لو صحَّ فيه مذهب التَّناسخ وتناسخ في هذه الأرض ألف مرة لما كان في واحدة منها عفَّ اللِّسان ولا كريم النَّفس، ولا وفيّاً لأحدٍ، ولا شاكراً لنعمةٍ، ولا معترفاً بحقيقةٍ، وليس من العقَّاد إلا العقَّاد.

ولعله يسرُّه أنْ يعلم أنَّه أضحكنا بسفاهته ضحكاً لا عهد لنا بمثله إلا أنْ نرى (شـارلي شابلن) في السِّـينما، ذلك الذي يجِدُّ أشـدَّ الجدِّ ويتكلَّف الحكمة والوقار والفلسفة وما به من كل ذلك إلا أنْ يجيء بشيءٍ يُضحك النَّاس منه، إنَّه جد شـارلي شـابلن الذي لا يجيء من رأسه وتفكيره أكثر مما يجيء من بنطلونه وحذائه.

قال الأسـتاذ «بنطلونه وحذاؤه» وهو يعنينا: ما كتـب هذا الرَّجل حرفاً عنِّي إلَّا ليقـول إنَّني لسـتُ بكاتب، ولسـتُ أُحسـن فَهْم الشِّـعر والبلاغـة؛ قلنا: صـدقَ والله، فهو عندنا كما وصف نفسه. ثم قال: وما كتبتُ حرفاً في النَّقد والبلاغة إلا سعى إليه يقرأه ويحفظه ليسرق منه ما يصل إلى عقله الكليل، قلنا: كذب والله إنَّه ليهلك في صـفحةٍ واحدةٍ لو أراد أنْ يعارض صفحة مما نكتبـه، وليحتكم إلى مَنْ يُحسـنون الكتابة، لـيرى في مرآتهم كيف خلق الله وجهه البيانيَّ كأنَّه (بروفةٌ) مطبعيَّة مُلقاةٌ بدون تصحيح.

---

(1) كلام الرَّافعيِّ هنا عن البياض والتَّمزيق نوعُ إيهامٍ يستخدمه لإقناع القارئ بما يقول، أو للمبالغة في السُّخرية.

إنَّ العقَّاد إنَّما يريد بهذا الزَّعم أنْ يُشرِّف نفسه كما أراد من قبل حين كتب في الجزء الثاني من الدِّيوان، يزعم أنَّنا أخذنا من نقده لنشيد شوقي، وقد نشرنا هذا في سنة 1921، ومع ذلك عاد إليه اليوم فنقله في (الجهاد) ويظنه برهاناً جديداً ونعرف (منه)[1] إفلاساً جديداً، فإنَّ هذا المغرور يعلم في ضميره الذي يحاول أنْ يخبِّأه حتى مِنَ الله جلَّ جلاله يعلم أنَّه هو نفسه كان قد وقف طبع كتابه (الدِّيوان) حين علم أنَّنا سننقد نشيد شوقي، وأشاعت جريدة الأخبار نبأ هذا النَّقد، وذلك لينقل ما نكتبه ويُفخِّم به شأن كتابه، ويستعين بنا على عدوه شوقي؛ فلما أبطأنا في طبع النَّقد كتب هو تلك الرَّقاعة التي سمَّاها نقداً ونشرها. حدثنا بذلك صديقنا الأستاذ المازنيُّ وكان شريكه في كتاب (الدِّيوان).

وخبرُ هذا الحديث أنِّي كنتُ معه في (جريدة الأخبار)؛ فرأيتُ في يديه جزءَ الدِّيوان الذي زعم فيه العقَّاد مزاعمَه السَّخيفة، فبعد أنْ قرأتُ ما كتب عنِّي، قلتُ له: كنتُ أظنُّ العقَّاد عاقلاً؛ فإذا لطوله معنى؛ فقال: إنْ شاء الله لا تجد للقِصَرِ معنى.

ثم سألته: كيف للعقَّاد أنْ يزعم هذا الزَّعم؟! وهل ذلك رأيُّه في اعتقاده أم رأيُّه في ادِّعائه؟ فقال: إنَّنا كنَّا نرتقب ظهور نقدِك لنَنْقله ونكتفي به، فلمَّا تأخَّر كتب العَقَّاد كتابه ثم اطَّلع على نقدك بعد ظهوره، فرأى فيه كتاباً من الأستاذ منصور عوض مؤرَّخاً في 11 ديسمبر وهو بعد ظهور الدِّيوان، فظنَّ من ذلك أنَّك نقلت عنه، فقلتُ لهذا الصَّديق: إنَّك تعلم أنِّي شرعتُ في الطَّبع قبل أنْ يخطَّ العقَّاد حرفاً، ولهذا انتظر كما تقول، ثم تعلم أنَّ (فلان باشا) سعى عند أمين بك الرَّافعيِّ -رحمه الله- ليجمعني به فنتَّفق على أمرٍ من الأمور؛ لأكفَّ عن نشر هذا النَّقد، وقد كنتَ تراه وتراني، وإنِّي من

(1) غيرُ واضحٍ في الأصل.

أجل ذلك وقفتُ طبع النَّقد مدة، وفي أثناء هذه المدَّة جاءني كتاب الأستاذ منصور عوض، ثمَّ تمَّ شيءٌ وأخفق شيءٌ؛ فمضيتُ في إتمام الطَّبع، وكان هذا سبباً في خروج كتابي متأخراً، فأقرَّني الصَّديقُ على ذلك، وقال إنَّ العقَّاد لم يكن يعلم هذا، ولم تبق فائدةٌ في أنْ يعلمه، فقلتُ: ولا كانت عليَّ مضرةٌ في أنْ يجهله.

هذا هو حديث الإفلاس الجديد الذي استخرجه العقَّاد من دفاتره القديمة، فإنَّ كان أهلاً للخجل فليخجل، وكلُّ ما كتبتُهُ هنا أشعتُهُ بين جميع أصدقائه من يومئذ، فهو مسجَّلٌ في علمهم كالتَّسجيل الذي يُسمَّى في القانون (إثباتُ التَّأريخ).

***

ونتكلم الآن في الهَذَيَان الأدبيِّ الذي جاء به العقَّاد ردّاً علينا. قال وهو يعنيني: «كتب في المقتطف يُخطِّئ قول شوقي: إنَّ رأتني تميلُ عنِّي، لأنَّ الصَّواب في زعمه تَملْ لا تَميلُ، فصحَّحنا خطأه، وأريناه أنَّ البيت صحيحٌ بإجماع النُّحاة»، ثمَّ مرَّ العقَّاد في سبابه وهَذَيَانه، وزعم أنَّنا نرتجل النَّحو ارتجالاً، ولا ننقله من الكتب التي أجمع عليها النُّحاة، وتخلَّص من ذلك إلى أنَّه لا خطأ في لحنه وجهله ما دمنا قد خطَّأنا النُّحاة جميعاً، كما خطَّأنا ابن قتيبة في قوله: «إنَّ ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ التي جاءت في الآية الكريمة هي من باب فاعل بمعنى فَعَل أي قتلهم».

ولو لم يكن العقَّاد جاهلاً بالأدب؛ لَمَا ذَكَرَ ابن قتيبة هنا؛ فابنُ قتيبة هذا يقول في كتابه «طبقات الشّعراء» ردّاً على النُّحاة الذين تأوَّلوا في إعراب قول الفرزدق:

وعضّ زمانٌ يا ابنَ مُروانَ لمْ يَدَعْ
مِنَ النَّاسِ إلا مُسْحَتاً أو مُجَلّفُ [1]

يقول: «رَفَعَ آخر البيت ضرورةً، وأتعبَ أهل الإعراب (أي النُّحاة) فى طلب العلَّة، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا فيه بشيء يُرضى، ومن ذا يخفى عليه من أهل النَّظر أنَّ كلَّ ما أتوا به من العلل احتيالٌ وتمويهٌ؟!» فهذا رأي ابن قتيبة في النُّحاة.

ولو درس العقَّاد مطوَّلات كتب النَّحو، وكان ذا سليقة وفهم لرأى من الغلط ما لا يُحصى، فالذي يُجيزه الكوفيّون يمنعه البصريّون، والذي يقبله هؤلاء يردُّه أولئك؛ فلا سبيل للمحقِّق إلا أنْ يعتبر هذه الكتب اعتبارها المنطقيّ وأنْ يُجري العربية على أصولها في حكمة الوضع وفي تاريخ الألسنة التي جاءت بها، ونحن قد رددنا بيت شوقي وكتبنا في المقتطف فصلاً طويلاً خطَّأنا فيه النُّحاة جميعاً في رفع جواب الشَّرط وفنَّدنَا أقوالهم وقلنا للعقَّاد: الرأيُ الآن رأيك أنت لا رأي هؤلاء الذين ماتوا؛ فأجب عن نفسك، وبيِّن لنا العلَّة في رفع جواب الشَّرط، ولكن ما الذي فعله العقَّاد بعد هذا التَّحدِّي في أكبر مجلَّة عربية؟! إنَّه كعَّ[2] بالجواب، واستوطأ العجز مركباً، ورأى الصَّمت خيراً، والسُّكوت سلامةً، فأثبت إلينا بذلك ما نبهنا إليه في الكلام عنه من أنَّه لا قوَّة له وليس في طبيعته غير القدرة على النَّقل، ففكره ليس فكراً في رأسه؛ بل هو في رأس المنقول عنه، ومن ثم مَرن على السَّرقة في كل ما يجيء به فإنَّ الطَّبائع يستجر بعضها بعضاً، والشَّرُّ ليس شيئاً واحداً؛ بل يتعدَّد، فمنْ عَجْزِ الفهم، إلى النَّقل عن النَّاس، إلى سرقة النَّاس، إلى النَّتيجة المضحكة في العقَّاد بخصوصه وهي ادّعاء العبقريَّة.

---

(1) هكذا رواية اللِّسان والجمهرة (مُجّلف) باللام، وقال فى اللِّسان: «المُسْحت: المُهْلك، والمُجْلف: الذى بقيت منه بقية»، ورواية الدِّيوان والنقائض «أو مُجْرِف» بالراء، ومعناهما متقارب. راجع الشِّعر والشُّعراء لابن قتيبة الدِّينوريِّ 89/1.

(2) جَبُنَ وضَعُفَ.

نحـن نقول للعقَّـاد وللإنس والجنِّ: إنَّنا نُخطِّئ سـيبويه وأكبر منه وأصـغر منه متى رأينا أنَّ في كلامه خطأ؛ فإنْ كان العقَّاد لا يُصـدِّق هذا؛ فليس لنا والحمد لله مثل فهمه ولا ركاكته.

وقال العقَّاد في الرَّدِّ على ما خطَّأناه به من قوله «الآن فاذهب تستريح»، قال: «إذا كان النَّحو الأمريكانيُّ الحديث يخطِّئنا في ضمِّ تستريح فالنَّحو العربيُّ المتَّفَق عليه يقول إنَّها صـوابٌ لأنَّ المعنى هنا: اذهب لكي تستريح، ومثل هذا الوضـع جاء في القرآن الكريم ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾»[1] نقول: وإذا كان المعنى اذهب لكي تسـتريح؛ فتستريح منصوبةً لا مرفوعةً، وكأنَّ العقَّاد لا يعـرف إلى الآن أنَّ كي تنصـب المضـارع، كما لا يعرف أنَّه لا يُقال «ضـم تستريح» فإنَّ الضَّمَّ لا يكون إلا في المبنيَّات، وتستريح فعل معرَّب، فالوجه أنْ يُقال فيه الرَّفع لا الضَّم.

أمَّا الآيةُ الكريمة؛ فالجواب فيها مرفوعٌ قطعاً، لا يجوز غير ذلك؛ لأنَّه بهذا الوضع يدلُّ على أنَّ أولئك قومٌ طمس الله على قلوبهم كما يطمس على قلوب أخرى؛ فهم يلعبون ويجهلون إنْ تركهم أو لم يتركهم، والطلب هنا ليس سبباً في الجواب كما ترى؛ ولذا جاء الجوابُ مرفوعاً.

وزعم العقَّاد أنَّه يعرف ما نبهناه إليه من أنَّ قوله قوس قزح كالكلمة الواحدة فلا يفصـل قزح عن قوس، وقـال إنَّه كتب ذلك في نقد روايـة قمبيز، فلعله أيقن الآن أنَّنا لا نقرأ كتبه، ثمَّ احتج لقوله:

أَلْـقَـى لَـهُـنَّ بِـقَـوْسِـه
قُـزَحٌ وأَدْبَـرَ وانْـصَـرَف

(1) سورة الأنعام: 91.

إنَّ قُزَح الذي لا ينصــرف قد انصرف هنا في موقف الإعجاز، وهذه الحُجَّة تسخر من صاحبها أكثر مما تسخر من نفسها، لا نزيدها على ذلك سخريةً.

وخطَّأناه في قوله: «أَخْلَدُ الخالدين فينا دَعِيٌّ»؛ لأنَّ التفضــيل لا يتأتَّى إلا من فعل يقبــل التَّفاوت، والخلود لا تفاوت فيه، فردَّ على ذلك بقوله: «إنَّ الخلود هــو الدَّوام؛ فإذا أجاز التَّفــاوت في الدَّوام جاز التَّفاوت في الخلود، وقد جاء في الحديث الشَّريف: أحبُّ الأعمال إلى الله أدومُها وإنْ قلَّ»[1].

قال: «فما رأيُ صــاحبنا في كلام النَّبيِّ –عليه الســلام– أيخطِّئه كما خطَّأ النُّحاة جميعاً، وكما خطَّأ ابن قتيبة ليصل من ذلك إلى الحكم علينا بالخطأ في بعض الكلمات؟!»

قــال: «أتــراهُ يخرج من دينه لنخطئ نحن في كلمة أم يبقى فيه فيســيء إلى لغة القرآن فوق ما أساء» انتهى كلامه بحروفه.

ونقــول نحن: لا حــول ولا قوة إلا بــالله، إنَّنا لم نكن نظنُّ أنَّ العقَّاد يُصــاب بهذا الخَبَل في القول من تأثير كلامنا فيه، مع أنَّنا أشــفقنا عليه كثيراً، ولم نســتقصِ في بيان غلطه وسخافاته، وسنردُّ عليه الآن بمنتهى الرِّفق، حتى لا تذهب البقيَّة الباقية من هذا العقل الضَّعيف.

فاعلم يا بني أنَّ الحديث الشَّريف لم يقل أحب الأعمال أخلدها، ولو أرادها لاســتعملها، ولكن من المحال يا بني أنْ تأتي هذه الكلمة بهذا الاســتعمال في كلام أفصــح الخلــق صــلى الله عليه وســلم؛ لأنَّ الدَّوام يا بنــي معناه طول الزَّمــن، وطول الزَّمن يا بني أمرٌ يتفاوت، فمن طول الزَّمن خمســون ســنة، ومنه مائة ســنة، ومنه ألف إلى آخره، أمَّا الخلود فمعناه لغةً: دوام البقاء لا

---

(1) صــحيح: أخرجــه البخــاري في كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصــير ونحــوه (5861)، وفي كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (6464)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (782).

الدَّوام فقط كما تقول يا بُني، أي هو دوامُ الدَّوام.

وإذا أردتَ دليـلاً على قدر فهمـك يا بُنيَّ فأقربُ الأمثلة أنَّك تقول: دام هذا العمل يوماً، ودام سـنةً، ودام دقيقةً، ودام ثانيةً، ولكنك لا تسـتطيع أن تقول في مكانها: خلد دقيقة، وخلد يوماً، أفهمتَ الآن يا بُنيَّ؟! وهل خفَّف عنك ما صَبَبْتُهُ الآن على رأسك؟!

***

وهنا سعارٌ آخر ابتُلي به العقَّاد في نقدنا لقوله من الغزل الفلسفيِّ:

فيك مِنِّي ومن النَّاس ومِنْ

كلِّ موجودٍ وموعودٍ تؤامُ

قال المسكين: ويميناً إنِّي لزعيم أنْ يخرج من دينه حقداً عليَّ وعجزاً عن إصابتي بما يريد، فهأنذا أُذكِّر حامي لغة القرآن (مُتَشَكِّر)[1] بأنَّ القرآن يقول: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2]؛ فما رأيُ رفيق القُمَّل والنَّمل والخُنْفسَاء في هذا الاستقصاء؟!

قال: «واحدةٌ من اثنين: إما أن تطلع من دينك، أو يكون العقَّاد على صوابٍ، ولا أدري أيهما أهون عليك!».

نقول: إنَّ الرِّفق هنا بالعقَّاد أشدُّ وجوباً من الرِّفق فيما مرَّ؛ فاعلم يا بُنيَّ أنَّ قولك للحبيب: فيك مِنِّي.. فيك من كلِّ موجود.. فيك من كل شيءٍ؛ إنَّما هو كلامٌ توجِّهه إلى شخصٍ بعينه، وقد (حدَّثته)[3] الطَّبيعة في ذات نفسه، فهو لا يتسع لأنْ يكون فيه من كلِّ موجودٍ.

---

(1) هذا التعليق أقحمه الرافعيُّ في كلام العقَّاد على طريقته في السُّخرية والاستهزاء.

(2) سورة الأنعام: 38.

(3) غير واضح في الأصل.

واعلم يا بُنَيَّ أنَّ كلمة (كلِّ موجود) تتَّسع إلى آخر حدود الموجودات ممَّا تعلم وممَّا لا تعلم، ثم إنَّه يا بُنيَّ يحســن بك وقد حفظت هذه الآية الكريمة ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أنْ تحفظ معها كذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1]، وقوله تعالى ﴿إِنَّ ذَالِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَالِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2]، وقولــه تعــالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾[3]، ونبرأها هنا معناها نخلقها، فكيف تكون قبل أنْ تُخلق - في القرآن.

ولأفسِّــر لك يــا بُنيَّ قدر فهمــك: إنَّ التفريط معناه التَّقصــير، وهذا الفعل يتعدَّى بـ (في)، لكنَّه لا ينصب مفعولاً، وقد تعدَّى في الآية ولكنَّه أخذ مفعولاً وهــو كلمة (شــيء)؛ لأنَّ (مِنْ) هنا زائدة للاســتغراق، فلابدَّ إذن أنْ يكون للتفريــط معنــىً آخر، والآية تدلُّ علــى أنَّ هذه الكلمة مضــمَّنَةٌ معنى تركنا وأغفلنا؛ فالله تعالى يقول بذلك: ما أغفلنا في الكتاب شــيئاً، أي شــيئاً مما يجيء الكتاب له من أمور الدُّنيا والدِّين.

ومعلومٌ يا بُنيَّ أنَّ الكتاب لن يأتي ليكون كتاباً في التاريخ الطبيعي فيذكر فيه مــا ذكرتَ أنت من القُمَّلِ والنَّمــل إلى آخره؛ وإنَّما جاء هدايةً وتربيةً وحكماً وديناً، وهو في كل ذلك لم يُغفل شــيئاً. هــذا إذا كان الكتاب بمعنى القرآن، ولك أنْ تقول إنَّه انطوى على كل شيءٍ باعتباره مذكوراً فيه بجنسه أو مشاراً إليهنَّ، وعلى هذا التأويل فما دام الكتاب قد ذُكرت فيه السَّــموات والأرض؛ ففــي هاتين الكلمتــين وحدهما يكون قد أُشــير فيه إلى كلِّ ما في السَّــموات والأرض، أي إلى كلِّ شيءٍ مما وجد ومما سيوجد إلى ما لا ينتهي.

---

(1) سورة الأنعام: 59.

(2) سورة الحج: 70.

(3) سورة الحديد: 23.

ولكنْ هل حبيبك يا بُنيَّ مذكورٌ عنه في شعرك الخنفسائي أنَّ فيه السَّموات والأرض؟! وهل هو حبيبك أنت أم فضاء آينشتين؟!

ولكنَّ الصحيح يا بنيَّ أنَّ الآية الكريمة تشير بالكتاب إلى علم الله الأزليِّ المسمَّى باللَّوح المحفوظ، فكلُّ شيءٍ مثبتٌ فيه، وقد جفَّ القلم كما جاء في الحديث الشَّريف عما كان ويكون إلى يوم القيامة، فالمعنى أنَّ الأشياء كلها وسنن تدبيرها وقوانين وجودها – كل ذلك في كتاب، كقوله: ﴿من قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾.

فلم نخرج من الدِّين والحمد لله، ولم يكن العقَّاد على صوابٍ، ولم يزد هذا الجاهل إلا أنْ أثبت جهله.

***

والقُبلة القُبلة، قُبلة العقَّاد التي يقول فيها:

هي كأسٌ من كؤوسِ الخالدين

لم يَشُبْها المزجُ من ماءٍ وطين

قال العقَّاد: «يا دم، أي تنزيه للقُبْلة أنزه منْ أنْ تكون صفاء كصفاء الخالدين، ثم لا يشوبها كَدَرُ الإنسان المخلوق من الماء والطِّين؟!».

أمَّا (يا دَمُ) فنظنُّ هذه الكلمة مما يُسمِّيه العامَّةُ (الرَّدْح والتَشْليق)، وما أخطأنا فيما أثبتناه من أنَّ طبع العقَّاد سوقيٌّ محضٌ، وأمَّا تفسيره القُبْلة بأنَّه يريدُ تنزيهها فلا يشوبها كَدَرُ لإنسانٍ فهذه –ولا جرم– قُبلة لا تكون لإنسان البتة؛ بل تكون إمَّا لصورة ممثلة مطبوعةٍ في مجلَّة، وإمَّا لصورةٍ وهميَّة مطبوعة في ذهن العقَّاد؛ فكلتا الصُّورتين لا يشوبها كَدَرُ الإنسانِ لأنَّها خَيالٌ مرسومٌ أو موهومٌ.

على أنَّنا لو ترجمنا كلام العقَّاد إلى اللغة الكامنة في نفسه وراء هذا التَّفسير الـذي جاء به لكانت عبارته هكذا: أنا العقَّاد، لسـتُ فاسـدَ الذَّوق، ولسـتُ سخيفَ التَّعبير، ولستُ في هذا البيت شيئاً أكثر من لصٍّ، فإنَّني لم أزد على أنْ سرقتُ بيت إسماعيل باشا صبري، بقدر ما فهمتُ منه، وذلك قوله:

أنـــتِ روحـــانـــيَّـــةٌ لا تَـــدَّعِـــي

أنَّ هـذا الحُسْـنَ مـن مـاءٍ وطين[1]

ولكـي نثبـت للعقَّـاد أنَّه جاهـلٌ بالبلاغـة من عيـار 24 قيراطاً كمـا يقول الإنجليز نقول له: إنَّ صبري باشا أكبر حبيبته أنْ يكون حسنها قد خلق كما يخلـق النَّـاس، فرفعها درجة روحانيَّةً يدنـو بها من الملائكة، وجعلها جملتها بعيدة عن أن تكون من عنصر الماء والطِّين، ولكنَّ العقَّاد جعل ذلك في القبلة وحدها، وترك إنسـانها على ما هو فأخرج المُحُال من الممكن، وبذلك سقط الممكن والمحال معاً، ثم أفسـد الكلام بعامِّيَّته، إذْ قال: «لم يَشُـبْها المزجُ من ماءٍ وطين»؛ بل العامَّة أرفع ذوقاً من هذا؛ لأنَّهم إذا ذكروا الطِّين لم يذكروه إلا في معرض السَّبِّ والتَّحقير كقولهم: «هِبَاب الطِّين»، و«طيِّنها سِي فلان». والعجيـب أنَّ العقَّـاد يحتـجُّ لذكر الطِّـين في القُبلة بقوله: «لقـد كان ملوك الفراعنــة الأقدمين في أعلى ذروة التَّرَف والحضـارة ينعمون وينظرون إلى أحســن المحاسن، ثم يأمرون بجيفة (يا لطيف!!) تُساق إليهم وهم غارقون في نضـرة الحياة؛ فما قال أحدٌ إنَّ اتِّسـاع النَّفس لهذه النقائض والمقابلات من نقائض الأذواق».

(1) في ديوان إسـماعيل صـبري باشا الذي صحَّحه وشرحه ورتَّبه الأستاذ أحمد الزِّين «أنَّ هذا الحسُنَ من طِين وماءْ» ص 109، وهو من قصيدة همزيَّة أولها:
يا لواء الحُسْن أحزابُ الهوى × أيقظوا الفتنةَ في ظلِّ اللواءِ

قلنـا: وعلـى هـذا يكون العقَّاد سـليم الـذَّوق جـداً في اختصـاره على ذكر الطِّـين في القُبْلـة، دون أن يذكر فيها الجيفة والنتن والصَّـديد.. وأين ذوق قدماء المصـريِّين من ذوقنا، والقوم إنَّما كانوا يريدون بمرور الجيفة بينهم وهم على تلك الحال من الخلاعة والفجور كسـرَ أنفسـهم، ليكفوا سَـوْرَتَها المجنونة، ويُذكِّروها في هذه الحيوانيَّة الثائرة بأصلها الروحانيِّ، ومصيرها في الدُّنيا؟! فإذا نحن قسـنا على ذلـك كان العقَّاد لم يذكر الطِّين في القُبلة إلا ليكسـر نفسه عنها، وإذن فلا صفاء خالدين ولا قُبْلة ولا تقبيل، وليس إلا التَّقليد الأعمى الذي طُبع عليه الرَّجل، وإلا السَّـرقة التي هي كل آدابه حتى في هذا المعنى الفاسد.

***

وقد ختم العقَّاد رده بنقل كلمات في تمجيد نفسه، قال إنَّه كتبها عنه الأديب التونسـيُّ (المدعو) محمد الحليوي، ونشـرها في صـحيفة الزَّمـان يردُّ بها علينا، وفيها يقول: «أمَّا العقَّاد فحسبك كيت وكيت، العقَّاد إنَّه –والله– كذا وكذا، العقَّاد والله والله والله».

ونحـن فمـا ننكر أنْ يكـون في تونس مثل هـذا الذَّيل للعقَّاد، مـا دام العقَّاد نفسه قد وجد في مصر، والسَّخف هو السَّخف، فليس في العقل أن تتنزَّه عنه تونسـ، وإذا كانت مكَّة نفسـها قد أخرجت أبا جهـل أفيبعد أن تُخرج تونس مثل ذلك الجاهل جهل الأدب وجهل النفاق معاً؟!

ولكنَّنـا سـنجيء العقَّاد على طريقتـه بأديب وعالم من علمـاء الجزائر هو الأسـتاذ الفاضـل السَّـعيد الزَّاهري رئيس لجنة الأدب في الجمعية العلميَّة في مدينة وهران بالجزائر، فليسـمع العقَّاد ماذا يقـول هذا الأديب: «حجَّة العـرب وفخـر الإسـلام الأديب الإمام العلَّامة سـيدي مصـطفى صـادق

الرَّافعــيُّ... ولا أكتمك كنتُ لا أكاد أُصــدِّق أنَّ العلــم نورٌ يقذفه اللّه في قلب من يشــاء، ولا أنَّه موهوبٌ يختصُّ اللّه به من يجتبيهم من عباده إلا بعد أنْ قــرأتُ (أوراق الــورد) وغيره من كتبكم التي هي منتهــى ما يمكن أنْ ينتجه أعظم عقل بشريٍّ أو فكر إنسانيٍّ. وستجتمعُ جمعية العلماء المسلمين بصفة جمعيَّة عموميَّة، وســأُلقي عليهم خطابــاً في الاتجاه الذي يجب أنْ يتَّجه إليه الأديــب في هذه البلاد، وأعلن أنَّه يجب أنْ يكون نفس اتجاه الأســتاذ الإمام مصــطفى صادق الرَّافعيِّ، وما أحسب أنَّ أحداً منهم يُخالفني في الاعتراف بأنَّك أنت الأديب الإمام؛ فكلُّهم على رأيي فيك لحسن الحظِّ».

ولو شــئنا لنقلنا للعقَّاد من مثل هذا ما يُذهله؛ ولكنَّنا نُشــفِقُ على مَرَارَته أنْ تنشــقَّ، ونرحمه من سعار يصــيبه فيخرجه من طوره الإنســانيِّ، وهو يعلم أنَّنا لو شــئنا لتقاذفناه قذف الكُرَة؛ ولكنَّ المســكين ليس له من الصَّبر على المناظرة ولا صبر الكرة؛ فلا يكاد يمسُّ (انتفاخه) إلا انفجر، ولا أزيده علماً بنفسه فهو بنفسه أعلم.

وقــد كانــت آخر كلماته قوله: «وســيزداد النَّاســ علماً به وبــي كلما ازداد»، ولستُ أردُّ على هذه الكلمة إلا بأنْ أتمنَّى أنْ يُحقِّقها اللّه فيزداد النَّاس علماً به وبي.

ردُّ العقَّاد الأخيرُ

فِرَارُ الثَّورِ الجَبَّارِ، وتكملةُ المَثَلِ[1]

كتب العقَّاد اليوم (يريد الثُّلاثاء الماضــي)[2] في (الجهاد) ردَّه الأخير وهو أنفاسٌ متهافتةٌ جاءت كأنفاسِ المحتضــر يتخلَّع قلبه في كلِّ نفس عنها خَفْقَةً بعــد خَفْقَة، وتتبعثر فيها بقايا روحه زَفْرَةً بعد زَفْرَة، ويموت من ورائها دمُهُ شيئاً فشيئاً، وقد أفزعه مما هو مُقبلٌ عليه أنَّه وقع فيه ولا يَدريه، وأَمَضَّه[3] مما هو مُدبرٌ عنه أنَّه كان فيه ولا يملكه، فهو بين الهول والخوف وقد أعجله ما لا يتماسك به، وبين الفزع والنَّدامة وقد انتزعه ما لا يتلبَّث فيه.

ولو كان هذا المحموم يغلي رأســه على درجة 41 ســنتغراد، ورأى في هذيانه أنَّه يكتب فصلاً في جريدة يجادل فيه ويُناظر؛ أعني يسبُّ ويلعن، ويستنبط الحُجَّة ويبتدع الدَّليل؛ أي يُسفسف ويُشعوذ لَمَا كان أسخف كلاماً، ولا أضعف رأيــاً، ولا أقبــح ثرثرةً، ممَّا هــو في كلمته اليوم حين كتبهــا وعقله يغلي على درجة 99 حُمَّقغراد.

وقد عَرَفَ القرّاءُ مَثَل الثَّور الجبَّار الذي حســبه الضُّــعفاء يقذف بالصَّاعقة ويخور بالرَّعد، ويمشي بالجبال، ويُطوِّح الفلك في ذيله، وكيف طار على وجهه حين ســمع بالجزَّار والسِّــكِّين، وقلتُ: إنَّ في نســختي تمزيقاً ضاعت فيه بقية المَثَل، ولكنِّي أصبتُ اليوم ما تمزّق من الورقة، فكان حتماً عليَّ أنْ أُتحف قُرَّاء (البلاغ) بتكملة القصَّة:

قالوا: ثم أمعن الثَّور في فراره، وأفلتَ على وجهه لا يلوي على شــيءٍ؛ فصوَّت

(1) البلاغ، 23 ذو القعدة، 1351 هـ = 19 مارس 1933م.

(2) هذه العبارة مضافة من قِبَل محرِّر الجريدة، ويبدو أنَّ الرافعيَّ كتب المقالة في ذات اليوم الذي كتب فيه العقَّاد مقالته المشار إليها.

(3) آلمه وأتعبه.

به دمنة: وا ثوراه، وا خيبتاه؛ فقال الثَّور في نفسه: إنْ أنا نجوتُ كاسياً بجلدي، سليماً حافري كأديم كلِّ بهيمة وحافرها، فما أبالي أنْ أكون ثوراً جسداً له خُوار، وليقولوا من بعد: إنَّ قرنيه قَرْنَا جرادة، ورأسه رأس قُنْفُذ، وعنقه عنق سلحفاة، وأظلافه أظلاف تَيْس، وذيله زَنَمَةُ[1] عَنْز، وليبلغوا من السُّخرية بي حاجتهم، وليُنزلوني في الحشوة من هذه البهائم، وفي الطَّغَام[2] من هذه الحشوة، وفي الهالكة المهزولة من هذه الطَّغَام، فإنَّ ثوراً والعُشْبَ والرَّتَعَة[3] خيرٌ من جبَّار الأرض وجزَّار وسكِّين، وقد -والله- كادت لفظة (السِّكِّين) تذبحني، أمّا (المدعو).. قالوا: وأبصر ظلَّه عند هذه الكلمة فحسبه الجزَّار؛ فارتمى يفحص الأرض برجله، ويلوي عنقه كأنَّه يزويه عن السِّكِّين، ثم لم يجد ذبحاً ولا ذابحاً، فتناهض مستثقلاً، وكأنَّ الأرض تجاذبه إليها مما يجد من تفكُّك أعضائه وتخاذل قوَّته، كأنَّما هَدَمَت أعاليه أسافله، وكان دمنة قد انطلق وراءه فأدركه في صرعته، قالوا: ونظر الثَّور، فإذا دمنة وحده ليس وراءه شرٌّ، وأدار عينه وقلَّبها في جهات الأرض ورمى بها إلى السَّماء فلم ير بأساً؛ فقال: «أيها المنكوب المطموس» كأنِّي بك -والله- قد ارتبتَ فيَّ أو دخلك الشَّكُّ من قِبَلي أو حدست عليَّ من ظنِّك؛ فقلت في نفسك الخبيثة: إنَّه ثورٌ من الثِّيران، ونسيتَ -ويحَكَ- أنِّي جبَّارُها ما أصيح الصَّيحة إلا انخلعت قلوبٌ وانتهكت قلوبٌ، وانشقت مَرَائِر وذابت مَرَائِر[4]، «يا هذا، عندي ما يَشْغَلُني»؛ فإنِّي ما أسرعتُ في وجهي هذا إلا لأنَّ جبالاً طاغيةً كفرت بالله فسلَّطني الله عليها لأنطحَها فأُزيلها من الأرض.

---

(1) زائدتان تتدلَّيان تحت حَلْق العَنْزة.

(2) الرَّديء من كلِّ شيءٍ.

(3) الخصب والمَرْعَى.

(4) جمع مَرَارَة.

قالوا: ويصيح دمنة ويلك المدعو (الجزَّار)، فإذا الثَّور قد زاغت عيناه، فما يبصر أنَّه مبصرٌ، وإذا الكلمة كأنَّها قَدَمُ شيطانٍ ماردٍ تدلَّت من وراء الأفق فركلته فما بينه وبينها إلا أنْ صار في الأفق الآخر.

قال كليلة وهو يضحك كما ضحك في أوَّل المَثَل: وسيعود الثَّور من بعد فيقذف بالصَّاعقة، ويمشي بالجبال الأربعة، ويحمل الفلك في ذيله، ويقعقع بالرَّعد من حلقه، فما من غير حكمةٍ لله كان له رأس ثورٍ.

أما بعد، فقد سبَّنا العقَّاد أفحش السَّبِّ في كلمته التي ظهرت بها جريدته اليوم كخرقةِ المطبخ.

وما ندري -والله- كيف يفهم هذا الرجل؟! ولا كيف يعتبر النَّاس الذين يقرأونه؟!، ولا ما هي فلسفته في السَّبِّ والشَّتم؟! وهل هذا جهلٌ منه أمْ تعاقلٌ؟! وهل هو تطاولٌ أم تظارفٌ؟! وهل تلك قدرةٌ أم عجزٌ؟! ومتى كان السَّبُّ يحتج له في غلطِه وسخافاته؟! وعند من يُدافع عنه الشَّتم وسوء الأدب؟! ومتى كان في علم النَّحو أنَّ (المنكوب المطموس) يُجيز رفع المجزوم؟! ومتى كان في العروض أنَّ (العاميَّ من فَرْعِه إلى قدمه) تصلح مسوِّغاً للوزن المختَّل الذي لا ينفع فيه لا جبَّار ذهنٍ ولا (جُبيبير). ومن ذا الذي يحسب أنَّ (البغيض الذي لو خرج من العاميَّة لحظةً واحدةً) تقوم عذراً في اللغة لجهل عبَّاس محمود العقَّاد؟ ثمَّ إذا كان العقَّاد شاعراً لصّاً فاسد الذَّوق متخلِّف الذِّهن عاميَّ الأسلوب كما عرفه الأدباء جميعاً، فهل يخرج له من تلك العبارات السبَّابة محام شرعيٌّ ومحام أهليٌّ، ومحام في المختلط؛ فيجتمعوا فيبحثوا فيأتمروا فيدافعوا عنه بكتبٍ الفقه وكتبٍ القانون والمعاهدات السياسيَّة للدُّول العظمى؟!

لقد درسنا سبَّ هذا العقَّاد في ردِّه الأول وردِّه الأخير؛ فما خرج لنا من ذلك إلا أنَّه جِلْفٌ مدخولُ الطبيعة، كان قد وقعت فيه معجزة غريبة؛ فوضع الله في جسمه طبيعة أسوان من قدمه إلى عنقه، ثم وضع في وجهه طبيعة القطب الشماليِّ؛ فالرجل فاسدُ الحسِّ ويحسب ذلك عمقاً في الإحساس يتَّسع به لنقائض الدُّنيا من الجمال إلى الجيف إلى المراحيض، ويتسع حبيبة (لكلِّ موجودٍ موعودٍ تؤام).

وما دام إحساسه بهذا العمق فكلُّ شيءٍ كأنَّه جزءٌ منه، وإذا كان كلُّ شيءٍ جزءاً منه فالقُبح والفساد من بعض ما فيه، وما دامَ له هذا القُبْح وهذا الفساد؛ فلا قبح في غلطه ولا فساد في ذوقه، ولا يُعاب ما هو طبيعيٌّ لأنَّه طبيعيٌّ.

ولكن يا هذا قد تقرَّر في فلسفة الفنِّ أنَّه إنْ كان ذوق الشَّاعر ذوقه وحده، وألفاظه لفهمه وحده، وطريقته لطبعه وحده، كان الشَّاعر شاعر نفسه وحدها، وبمعنى آخر لم يكن له شعرٌ ولا فنٌّ.

وماذا تقول في شاعر يُصوِّر حبيبته الجميلة الفاتنة إحدى عينيها الشَّمس والأخرى القمر، وأنفها سلسلة جبال، وثغرها وادٍ عميقٌ، وقوامها سكَّة حديد (وفيها من كلِّ موجود وموعودٍ تؤام)، ثم يذهب يسمِّي هذا (غزلٌ فلسفيٌّ)؟! أفي شفاعة (فلسفيٍّ) يدخل فساد الذَّوق والخلط، والغثاثة وسقم الخيال وقبح التَّعبير؟ وهل تصلح (فلسفيٌّ) غطاءً كغطاء السَّماء على كل ما تحتها؟ وهل يجيء من (فلسفيٍّ) جيش الدِّفاع يقتل النَّحو واللغة والعَرُوض والبلاغة إذا هاجمتها بالنَّقد؟!

***

نقول: ولمَّا كان ذوق العقَّاد بهذا المَحْق، وكانت طبيعته تلفُّ ما بين أسوان والقطب الشَّمالي، وكان أثر ذلك في شعره ما رأيت، فلا جرم كان لذلك أثر

في تهكُّمه؛ فإنَّ التهكُّم شعرُ الذَّوق الدَّقيق للشَّاعر إذا هو أراد أنْ يؤلم نفساً، ويُرسل لها كلمات في الدَّم.

فيريد العقَّاد أنْ يتهكَّم كما يصنع كبار الأدباء وفحول أهل البيان، فإذا هو قد طمَّ عليه ذوقه الفاسد، ونزعته عاميته الغليظة، فلا يكون تهكُّمه إلا سبّاً محضاً، وقذفاً صُراحاً وعاميَّة متسفِّلة، فإنَّنا لَنَعْرِفُ للعامَّة من ذوق التَّهَكُّم والتَّنادر ما يجيء فيه العقَّاد متخلِّفاً وراء أثقل وأبرد عاميٍّ.

ومكابرة العقَّاد ومباهاته وفخره وبطره وكبرياؤه على ما فيه من الضَّعف والقلَّة والذِّلة – كل ذلك من الأدلَّة القاطعة على ذهنٍ مختلٍ قد انفرد بنفسه في اختلاله انفراد ذوقِ صاحبه في اعوجاجه، ولا يكون القانون لمثل هذا الذِّهن إلا خطأه وغروره، فإذا أخطأ عند النَّاس لم يخطئ عند نفسه، وليس في القوَّة ما يحمله على الإقرار بالخطأ؛ لأنَّه إنَّما يهتدي بطبيعته الزَّائفة، ويعمل بما فيه من انقلاب التَّركيب، واللاعقليَّة هي عقل المجنون، ومن نقص العقل أنواعٌ كثيرةٌ تنطوي كلُّها تحت اللاعقليَّة صاعدةً ونازلةً.

فإذا أنت كنت ناقداً، وأردت أنْ تلائم بين الحقيقة قائمة في نفسها– وبينها مضطربةً أو مشوهةً أو ممسوخةً في هذا العقل، فلست ههنا النَّاقد ولا الباحث ولا النَّاصح، وإنَّما أنت فاضحٌ وأنت متهجِّم وأنت متهوِّر، فإنْ لم تكن أولئك أو بعضهم فأنت حاسدٌ أو مغيظٌ أو (منكوبٌ مطموسٌ) لأنَّك في إرادتك أنْ تذهب بالاختلال الذي تنقده تُحدث اختلالاً لا يعقله هذا العقل، ولو عقل ما هو فاسد لَرَأَى أنَّ إصلاحه هو إفساده، ومِن ثَمَّ فليس لك من صاحب هذا العقل في ردِّه عليك إلا السَّبُّ والقذفُ كما يفعل العقَّاد دائماً.

ولعمري كيف يفلح مثل هذا الطَّائش كاتباً سياسيّاً والسِّياسة علم الحذر والدِّقة والميزان والتهكُّم والأساليب البيانيَّة التي تدور في دائرةٍ مفرغةٍ أولها حيث

شئت وآخرها حيث شئت؟ ولا يكفي في الدلالة على غباوة العقَّاد السِّياسيَّة بعد غباوته الأدبيَّة أنَّ كلمةً من كلماته الحمقاء ألقتْ به في السِّجن تسعة أشهر.

***

لقد كنَّا على ثقة أنَّ العقَّاد الجبَّار سينهزم عنَّا أقبح هزيمة، وأنْ ليست له إلا جولة ثم يصرع؛ فإنَّه هو يعرف في ذات نفسه أنَّه لا يملك معنا ما يملكه مع غيرنا، وهذا سببٌ آخر في شتمه إيَّانا؛ لأنَّ صيحةَ مَنْ تأخذه من حلقه لا تجيء كصيحةِ من أخذته من يده أو رجله، وما عندنا يُدَجِّل العقَّاد، ولاً علينا يُشَعْوِذ، ولا معنا يستطيع المستطاع.

(وقد أعلنها)[1] في آخر ردِّه اليوم بقوله: «عندي ما يشغلُني؛ اذهب إلى عالم الأشباح الذي ألقيتُ بك فيه منذ سنواتٍ، لن تظفر منَّا بعد هذا اليوم بجوابٍ».

ونحن لا نقرأ الكلام كما يقرأه النَّاس عادةً؛ بل نُترجمه بما وراءه من أثر النَّفس وانفعالها وأحوالها وطبيعتها؛ فإنَّ النَّقد عندنا إنَّما هو كشفُ روح الكاتب أو الشَّاعر ثائرة ومطمئنة ومزخرفة ومطموسة وسامية ومنحطَّة، فإذا ترجمنا كلام العقَّاد هذا من قاموس نفسه عندنا؛ كان هكذا:

«عندي ما يشغلني»!

وترجمتُها: ليس عندي ما أردُّ به!

«اذهب إلى عالم الأشباح الذي ألقيتُ بك فيه منذ سنوات!»

وترجمتُها: دعني الآن من فضلك كما تركتَني مدة سنوات مضت.

«لن تظفر منَّا بعد اليوم بجوابٍ»

وترجمتُها: هأنذا أعلنتُ هزيمتي.

---

(1) غير واضحةٍ في الأصل.

يبـدأ العقَّـاد ردَّه الأخير هكذا: «فلانٌ رجلٌ عاميٌّ من فرعه إلى قدمه، يظنُّ كما يظنُّ كلُّ عاميٍّ أنَّ المناقشة هي أنْ يغلب».

أليس هذا صـريحاً في أنَّ أوَّل كلمة نطقت بها نفس العقَّاد في ردِّه أنَّه شـاعرٌ ملءُ نفسه، بأنَّه مغلوبٌ لا يطيق محاماةً ولا دفعاً، ويريد أنْ يهرب من شعوره فيقلبه في هذه الكلمات حاسباً أنَّ شعوره سيهرب عنه في الألفاظ؟! ولكن ما هو البُرهان على عاميتي أنا العاميُّ الذي لا يخرج من العاميَّة لحظة واحدة كما يقول الرَّجل؟!

أَمِـنَ البراهـين عند العقَّاد قول ذلـك الذي هو أذكى وأبلغ رجل في الشَّـرق وهو المغفور له سعد زغلول في وصف بيان مصطفى صادق الرَّافعيِّ في كتابه إعجـاز القـرآن: «كأنَّه تنزيلٌ من التَّنزيلِ أو قبسٌ مـن نور الذِّكر الحكيم»؟! أمِنَ تلك البراهين قول صـاحبنا الأديب العظيم الأمير شـكيب أرسـلان في رسالة حديثة له، وقد أراد أنْ ينقل فصلاً من كتابنا (إعجاز القرآن) فقال: «ولقد رأينا أجمع ما كتب في هذا المقام كلام الأستاذ مفخرة العرب، وحُجَّة الأواخر على الأوائل في علوِّ طبقة الإنشاء، ووفرة الأدب».

أمْ مِن البراهين على هذه العاميَّة أن يُهدي إلينا شـاعرُ الشَّرقِ أحمد شوقي بك ديوانه فيكتب عليه هذه العبارة: «إلى الأخ العبقريِّ الكريم».

أمْ من تلك البراهين أنْ يُهدي إلينا شـاعر مصـر حافظ بك إبراهيم كتابه (البؤساء) فيطرزه بهذه العبارة: «إلى رأس الكُتَّاب وإمام الشُّعراء».

أمْ مـن براهين العقَّاد عند العقَّاد قول العقَّاد نفسـه وقد كتب عنَّا قديماً في (المؤيَّـد) وهو ينقد كتـاب (إعجاز القـرآن) «وقد اتَّفقَـتْ للرافعيِّ في هذا الكتـاب جُملٌ وعباراتٌ لم يتَّفق مثلها للعرب منذ أن تكلَّموا أو خطبوا إلى أنْ ألَّفوا وكتبوا».

معذرة أيها القراء؛ فإنَّ الخجل لا يُوضع على وجه من لا يخجل كهذا العقَّاد، وليس للخجل دواءٌ يستعمل (من الظَّاهر)، وأنا أعرف الكلام الذي يتحوَّل في دم العقَّاد إلى سُمٍّ يشتغل في روحه اشتعالاً، وما قرَّظني سعد باشا -رحمه الله- بكلمته السَّماوية التي لا يعدوها أبلغ ما في الحقيقة، ولا أبلغ ما في المبالغة؛ بل قرَّظني وقتل العقَّاد بداء الحقد في وقتٍ معاً.

ولقد حدَّثتُكم أيها القرَّاء أنَّ هذا العقَّاد، قال لي مرة في مجلس رئيس تحرير مجلة شهريَّة أنَّه أبلغ من سعد باشا وأذكى من سعد باشا حين لم يجد له مخرجاً من كلمة سعد إلا بهذا الادِّعاء السَّاقط، وأنِّي أشهدتُ على كلمته هذه صاحبنا رئيس التَّحرير. لو أنا حدثتكم في ذلك، واقتصصت القصَّة على نسقها لأدركتم أيَّ معتوهٍ هو؛ بل أيَّ أحمق، ولعرفتم أنَّ عندنا في مصر جبَّارُ ذهنٍ أي مخبولاً كـ«نيرون» الذي صاح وهو يسوق نفسه على فراش الموت: أيُّ فنَّانٍ سيهلكُ بهلاكي؟!

وكلمتي الأخيرة للعقَّاد: أنِّي أُقسم له أنَّه أضحكني اليوم بكتابته ضحكاً لم يتفق لي مثله من قبل إلا في النّدرة؛ حتى لحسبتُ أنَّ الرَّجل يريد أنْ يقتلني ضحكاً، إذ كنتُ أقرأ كلاماً لا يكتبه إلا مغمىً عليه نصفَ إغماءٍ.

فلا يسعني إلا أنْ أشكر للكاتب فصله الهَزْلِيَّ البديع الذي جاءت فيه كلماته لابسةً بنطلون شارلي شابلن وحذاءه وقبَّعته، وفيها نَفَسُ العَقَّاد جبَّار الذِّهن تُمثِّلُ وتُضحك وتقوم وتقع.

***

خطأٌ في إصلاحِ خطأٍ: حولَ نشأةِ فَنِّ المَقَامَاتِ [1]

كتب الأستاذ زكي مبارك في مقتطف شهر مارس فصلاً سمَّاه: «إصلاح خطأ مـرَّت عليه قرون!! » واسـتهلَّه بقوله:«المعروف في جميع الدَّوائـر الأدبيَّة أنَّ بديع الزَّمان الهمذانيَّ هو أوَّل من أنشأ (كذا وهو يريد أبدع) فنَّ المقامات » ، ثـمَّ قال: « وفي رأيي أنَّ الحريريَّ هو الـذي أذاع هذا الغلط ثمَّ آمن النَّاس بقولـه»، ثمَّ قال: « وقد وصـلتُ أخـيراً إلى أنَّ بديع الزَّمـان ليس مبتكراً فنَّ المقامات؛ وإنَّما ابتكره ابن دريد المُتوفَّى سنة 321».

ثم سـاق النَّصَّ من قول صـاحب كتـاب (زهر الآداب) وهـذه عبارته: «ولما رأى أبا بكر محمد ابن الحسـن بن دريد الأزديَّ أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنَّه اسـتنبطها من ينابيع صدره، واسـتنخبها (كذا والصواب انتخبها) من معادن فكره، وأبداها للأبصـار والبصـائر، وأهداها للأفكار والضَّـمائر، في معارض عجميَّة[2] (كذا والصَّـواب عنجهيَّة)، وألفاظ حُوشيَّة عارضها بأربعمائة مقامة .. إلخ».

قال الكاتب: «وقد دهش (المسـيو مارسـيه) حين عرضـتُ عليه هذا النَّصَّ في باريـس، وعجـب كيف اتفق مع هذا علـى أنَّ بديع الزَّمان هو مُنشـئُ فنِّ المقامـات، إلى أنْ قـال: وأذكـر أنَّ أسـتاذنا الدُّكتور طه حسـين دهش حين أطلعته على ما أوصلتُهُ إليه.. إلخ»!

---

(1) المقتطف، مج 76، 2 ذو الحجة 1348 هـ = 1 مايو 1930م، ص 588–590.

(2) لا يقـال معارض عجمية في كلام مثـل ابن دريد الذي كان إمام اللغة في وقتـه وكانت تُقرأ عليه دواوين العرب فيُسابق إلى إتمامها من حفظه، وفي طبعة (زهر الآداب) التي يُباهي الأستاذ المبارك بتصحيحها غلطاتٌ فظيعةٌ وهي أولى

فالكاتب كما ترى ملك (من)[1] هذا النَّص عنصر الدَّهشة، وكذلك دهشتُ أنا؛ ولكن لا من النَّصِّ؛ بل من أنَّ قوماً يُدرِّسون للنَّاس تاريخ الأدب وهم إلى اليوم يجهلون عبارة منشورة في كتاب طُبع مراراً مع (العقد الفريد)، وطُبع نصفه وفيه هذا النَّصُّ على حدة.

إنَّ هـذا النَّصَّ أورده العلَّامة الكبير الشَّيخ حمزة فتح الله في محاضـرته التي ألقاها في مدرسـة دار العلوم منذ أربعين سـنة، وكلُّ تلاميذه يعرفونه، وقد ذكرتُه أنا في مقالة نشـرتُها من نحو عشـرين سنة، وقد نقله الشَّريشيُّ في شـرحه على مقامات الحريريِّ، وطُبع هذا الشـرح من نحو خمسين سنة وأُعيـد طبعـه، فمـا أدري بعد كل هذا ما هـي «جميع الدوائـر الأدبيَّة» التي أشار الكاتب إليها إذا كان قُرَّاء تلك الكتب قد اطَّلعوا فيها على ذلك النَّصِّ وعرفوه؟! ما أشبه الأمر بمن يصل أخيراً إلى اكتشاف قارة أمريكا في كتابٍ من كتب الجغرافيا!

إنَّ البحث يجب أنْ يكون في الأصل الذي نقل عنهُ صاحب (زهر الآداب) إذْ لم يذكر هذا الخبر أحدٌ غيره، وقد كان في آخر عهد بديع الزَّمان وكان ينقل في كتابه من الكتب وهو من القيروان وليست له روايةٌ ولم يرحل إلى العراق، فمن أين وقع له ذلك الخبر وهو لو كان صـحيحاً لذكره الثَّعالبيُّ في اليتيمة أو في غيره من كتبه، ولاستفاض في كلِّ كتب التَّراجم؟!

ولم يذكر أحدٌ في أخبار ابن دريد أنَّ له مقامات أو أحاديث، وكتبه محصورةٌ معروفـةٌ، وقـد وُلد البديع بعد وفاته بنحو ثلاثين سـنة، ولا تكون المعارضـة عادةً إلا للمشهور المتداول.

---

(1) ساقط من الأصل.

والأحاديـث الموضـوعة على الإعراب كثـيرةٌ لم ينفرد بها ابن دريد وأشـهر وُضَّاعها ابن الكلبيِّ، وابن دريد ينتهي إليه في أكثر ما يرويه.

والذي يظهر لنا أنَّ صـاحب (زهر الآداب) سمع الخبر من بعض مَنْ رحلوا إلى العـراق ونقلوا عن علمائه دسَّـه هذا كأنَّه مما انفـرد بعلمه فرواه ذاك بلا تحقيقٍ، وهذا كان شـائعاً في الأندلس والمغرب؛ فكلٌّ مَنْ رحل إلى العراق طلبوا عنده ما ليس عند غيره فإنْ كان في عُقْدَته وَهْنٌ أنفق من كيس لا ينتهي ما فيه، وقد أشرنا في ذلك في باب الرِّواية من (تاريخ آداب العرب).[1]

وكيـف يعارض البديـع أربعين حديثاً بأربعمائة مقامةٍ شـرَّقت وغرَّبت ثمَّ لا يسـتفيض ذكر هذه المعارضـة في كتب المشـرق، ولا تراه منقولاً إلا عن رجلٍ من أهل القيروان لا رحلة له ولا سند ولا رواية؛ وإنَّما يستطرف من كلِّ كتابٍ ومن كلِّ خبرٍ؟!

ولقد نقل الشَّرِيشـي أنَّ البديع كان يقول لأصحابه في آخر مجلسه: اقترحوا غرضـاً نبني عليه مقامة؛ فيقترحون ما شاءوا فيُملي عليهم المقامة ارتجالاً في الغرض الذي اقترحوه، قال: وفيها مقاماتٌ لا تبلغ عشـرة أسـطارٍ، قلنا: وهـذا هو السَّـبب في أنَّه لم ينته إلينا من المقامـات إلا ثُمُنُها؛ فيكون الباقي ممَّـا أهملوه إذْ كان أشـبه بالعبـث من القول، ولا يجـري إلا مجرى النَّادرة والحديث دون الصَّنعة والكتابة.

ثـم يقول الأسـتاذ مبـارك: إنَّ الدُّكتور طه حسـين قال له: ارجـع إلى كتاب (الأمـالي) وانظر الأحاديـث التي نقلها عن الأعراب؛ فـإنْ رأيته يروي عن ابن دريد فاعلم إذاً أنَّ الأربعين حديثاً التي ذكر صـاحب (زهر الآداب) أنَّه اخترعها لم تكن شـيئاً آخر غير هذه القصـص التي حلّى بها القاليُّ كتابه،

---

(1) انظر تاريخ آداب العربية 232/1.

قــال: فلمَّا رجعتُ إلى كتــاب القاليِّ وجدتُّ حقّاً أنَّ القصــص التي احتواها مرويَّة عن ابن دريد..إلخ.

إذا كان ابــن دريد شــيخ القاليِّ، وكانت رواية القــاليِّ عنه؛ فهل يكون كلُّ ما يرويه عنه إلا مسنداً إليه؟!

وهــل نســيتَ أنَّ الرِّوايــة علمٌ دقيــقٌ له آدابٌ وشــروطٌ، وأنَّ صــاحب (زهر الآداب) يقول في أحاديث ابن دريد أنَّه اســتنبطها من ينابيع صــدره؛ يعني ألَّفها فهي من وضعه وليست من روايته، وأنَّه إذا كان كذلك لم يبق وجه لأن يُدخلها القاليُّ في كتابه ويلبس بها على النَّاس، ويزعمها مرويةً بالسَّــند عن ابن دريد إلى الأصــمعيِّ أو ابن الكلبيِّ، ولــو فعل لكان كذاباً وبطلت الثِّقة به وبكتابه.

هذا مضــحكٌ، وإذا جاز أنْ يقوله مَنْ لا يعرف شــروط الرِّواية فلا يجوز أنْ يقــع فيه من يروي بشــروطها وآدابها كالقاليِّ، وأنت تــرى القاليَّ في أماليه يروي من شعر ابن دريد وينسبه إليه؛ فما الذي يمنعه أن يفعل مثل ذلك في أحاديثه التي ألَّفها «من ينابيع صدره ومعادن فكره»؟!

لا شــكَّ عندي أنَّ البديع قلَّد غيره في صــنعة المقامات، وهذه كانت طريقته، فإنْ أصــاب جُملــةً جعلها جُمَــلاً، وإنْ رأى خــبراً بنى عليه أخبــاراً، وكانت صــنعته الكتابة ويريــد أنْ يُملي منها كما يُملي الــرُّواة، وقد وقفتُ على خبرٍ مصنوعٍ كُتب قبل البديع بنحو مائة سنة، ولو حُذف اسم صاحبه منه لما شكَّ أحدٌ أنَّه من كتابة البديع في مقاماته؛ إذْ النَّسق هو هو والطَّريقةُ واحدةٌ.

ولا يمكــن أنْ يُبنى على هذا الفصــل مقالٌ في تحقيق هــذا التَّقليد إلا ببحثٍ بيانيٍّ مُسْــهِبٍ في الموازنة بين كلامٍ وكلامٍ، وطريقــةٍ وطريقةٍ، ولا أملكُ الآنَ وقتاً لهذا البحث.

حولَ نشأةِ فَنِّ المَقَامَاتِ[1]

لم أكتب في هذا المعنى شيئاً أكثر من أنَّ ما زعمه الدُّكتور زكي مبارك اكتشافاً كان أمراً مكشوفاً يعرفه هذا وذاك؛ لأنَّ كتاب (زهر الآداب) مطبوعٌ مقروءٌ، ولأنَّ العبارة التي قال الدكتور إنَّه وصل إليها أخيراً في هذا الكتاب يجدها في شرح الشَّريشيِّ على مقامات الحريريِّ، وهو شرحٌ معروفٌ طُبع مراراً، ومعنى ذلك أنَّه قُرِئَ مراراً.

ثم قلتُ إنَّ ما خلط به الدُّكتور في الكلام عن أحاديث ابن دريد نقلاً عن أستاذه الدكتور طه حسين كلامٌ مضحكٌ، غير أنَّ حضرته على ما يظهر لي لم يُرضه أنْ يرجع بعد البعير بخُفي «المِسْيُو حُنين»؛ فجاء يقول في ردِّه أنْ كلمتي دون ما كان يظنُّ من العمق.

نشدتك الله أيُّها الفاضل ما حاجتنا إلى العمق والإقيانوس والباخرة ونحن بصدد اكتشاف أميركا في كتاب جغرافيا؟!

أفاهمٌ أنت ما تكتبه بقلمك يا حضرة الدُّكتور حين تقول في ردِّك: الرَّافعيُّ يسأل كيف عارض بديع الزمان ابن دريد ثمَّ لا يستفيض ذكر هذه المعارضة في كتب المشرق ولا نراه منقولاً إلا عن رجلٍ من أهل القيروان، ومع أنَّه يسأل هذا السُّؤال فإنَّه يذكر أنَّ الشَّريشيَّ نقل هذا النَّصَّ في شرحه على مقامات الحريريِّ، ألا يكفي أنْ يُذكر هذا النَّصُّ في ثلاثة مصادر: (زهر الآداب) و(شرح الشَّرِيشيِّ)، و(معجم ياقوت)؟!

ألا ليت شعري إذا كان النَّصُّ قد ذكره صاحب زهر الآداب، ثمَّ نقله ياقوت، ونقله عنه الشَّرِيشيُّ؛ فهل نحن إلا حيث كُنَّا من أنَّ هذا النَّصَّ قد انفرد به

---

(1) المقتطف، المجلَّد 77، ج2، 5 صفر 1349 هـ = 1 يوليو 1930م، ص 211، راجع رسائله إلى أبي ريَّة التي تحدَّث فيها عن زكي مبارك، رسائل الرَّافعيِّ، ص 172، 182.

صاحب زهر الآداب ولم نره (منقولاً) إلا عن رجلٍ من أهل (القيروان)؟!

لا ريب أنَّ في رأس الدُّكتور وَهْماً يمدُّ لـه في مزاعمه الخياليَّة، فهو يظنُّ أنَّ «جميع الدَّوائر الأدبيَّة» تقرِّر أنَّ بديع الزمان أوَّل من ابتكر فنَّ المقامات ومن هذا الظنِّ يظنُّ أنَّه اكتشف؛ ولكن في أي كتاب من كتب «جميع الدَّوائر الأدبيَّة» وجد النَّصَّ على أنَّ بديع الزَّمان أوَّل من ابتكر هذا الفنَّ؟!

سيبحث الدكتور في كتب المدارس الثانويَّة، وفي كتب الأدباء قديماً وحديثاً؛ فيعرف أنَّه كان وهْماً في هذا الزَّعم، وحينئذ لا أردُّ أنا عليه؛ بل يردُّ زكي مبارك على زكي مبارك.

ويطمع الأديب الفاضل في آخر ردِّه أنْ أُسجِّل «أنَّه أول من اهتدى إلى الصَّواب في نشأة فنِّ المقامات»؛ وبودِّي -والله- أنْ يكون اهتدى، فضلاً عن أنْ يكون أوَّل مَنْ اهْتدَى.

الأدبُ والأديبُ[1]

كتب الأستاذ الفاضل (كِلْدَة)[2] في المقتطف عن لفظي الأديب والأدب، ثمَّ أفتى فتوى مالك في اشتقاقهما ومن أين خرجا وكيف أُقْحِمتا على ألسنة العرب، وأومأ إلى أنَّه انفرد بهذه المعرفة واختُص بهذا الفتح، وأنَّ كل النَّاس (لا يُغيِّرون من رأيه ذرَّة) كأنَّ رأيه هذا مما كُتب في الأزل بسواد اللَّيل على بياض النَّهار.

قال هذا الفاضل: إنَّ للأدب والأديب معاني قديمة غير المعاني التي صارا إليها مع تتابع القرون، فمعنى الأديب في عصر الجاهليَّة وأوائل صدر الإسلام: الطيِّب الحديث الحسن الصوت، الذي يُؤنِس السَّامعين بِسِحْر مقاله ويجذبهم إليه برقَّةِ منطقِهِ ولذيذِ صوتِهِ.

قال: «ومن الأديب اشتقُّوا الأدب إلخ، ثمَّ قال: فإذا كان كذلك فاللَّفظ اليونانيُّ المُعرَّب عنه اللَّفظ العربيُّ هو èduèpès وهي كلمةٌ مُركَّبةٌ من حرفين èdus أي: طيِّبٌ وعذبٌ ولذيذٌ، ومن èpos أي: كلامٌ ومنطقٌ وخطابٌ؛ فيكون مُحصِّلُ المعنى ما ذكرناه فُويق هذا» اهـ.

وحاصل هذه العبارة أنَّ اللَّفظ اليونانيَّ يؤدِّي معاني طيِّب الحديث وعُذُوبته ولذَّته في جملة مترادفات هي تلك المعاني، فإذا كان كذلك؛ فالأمر في حسابه كحاصل ضرب عددين لا يمكن أنْ يُقسم على أحدهما إلا أخرج العدد الثَّاني في قانون مطَّرد وقاعدة لا تتخلَّف.

---

(1) المقتطف، باب المراسلة والمناظرة، عدد أغسطس 1923، ص 169 وما بعدها، وقد جاء رداً على ما كتبه (كِلْدَة) في بابه (المُعرَّبات) بعدد يونيو من نفس العام. وهناك مقال نشره الرافعي في الجزء الثالث من وحي القلم، وهو مختلف عن هذا المقال.

(2) هو الأب أنستاس ماري الكرمليُّ، واسمه: بطرس جبرائيل يوسف عوَّاد (1866 – 1947)، رجلُ دين مسيحيٌّ، ولغويٌّ عراقيٌّ لبنانيٌّ، وكان من عادته نشر كثير من مقالاته بأسماء مستعارة مثل: (أمكحٍ) و(محقّق) و(مستفيد) و(مستهل). راجع ما كتبه كوركيس عواد في كتابه)الأب أنستاس ماري الكرمليُّ: حياته ومؤلفاته(، ص 19 وما بعدها.

ولكن يبقى أنَّ الأساس الذي بَنَى عليه الأستاذ أساسٌ مرتفعٌ في الهواء على أعمدة خياليَّة طويلة، والبناء من تحته يتقلقل ويريد أن يصعد إلى أساسه ولو في طيَّارة؛ وإلَّا فمن أين جاء هذا الفاضل بما فسَّر به لفظ الأديب عند عرب الجاهليَّة وفي صدر الإسلام، وبأي سند رواه؟! وعن أي عَالم أَخَذَه؟! وفي أي كتاب وَجَدَه؟! وكيف لم يكن معنى الأديب عندهم إلا كما أَوْرَدَه من كلمة كلمة وجملة جملة بحيث تتجمَّع هذه الفنون من طيِّب الحديث وحسن الصَّوت وإيناس السامعين وجذبهم وسحرهم «برقَّة المنطق ولذيذ الصَّوت»؟!

ولو استقرئ الأدباء كل كتب اللُّغة والأدب والبلاغة في كل أرض لما أصابوا فيها شيئاً من هذا التعريف الذي جاء به الكاتب ووضعه وضعاً لتحقيق المشابهة بين اللفظ العربيِّ واليونانيِّ. ولكنِّي أدلُّهُم من أين آخذه وكيف تأدَّى إليه وكيف صنع هذا واستوى له واطَّرد في تلك المعاني؛ فلينظروا في كتاب (البيان) للجاحظ[1] فقد عقد باباً في ذكر اللِّسان وفصاحته، وفصَّل منه فصلاً «في ذكر ما قالوه في مديح اللِّسان بالشِّعر الموزون»، وساق في هذا الفصل الأبيات التي استشهد بها الأستاذ (كلِدَة) على المعنى الذي ذهب إليه وأبياتاً أخرى لسويد بن أبي كاهل يصف بها امرأة «تُطرِبُ وتُؤْنِسُ وتَسْحَرُ وتَجْذبُ»: وهي قوله:

وَدَعَتْنِي بِرُقَاهَا، إنَّها
تُنزِلُ الأَعْصَمَ مِن رَأْسِ اليَفَعْ[2]

تُسْمِعُ الحُدَّاثَ قولاً حَسَناً
لو أَرَادُوا غَيرَهُ لم يُسْتَطَعْ

---

(1) الجزء الأول، صفحة 70، من الطَّبعة المصريَّة الأولى (الرَّافعيُّ).

(2) يريد أن سحرها يجذب الظَّبي النَّافر وينزله من أعلى ما يعتصم به؛ فكيف بالإنسان المحبِّ المتودِّد وهو أليفٌ بالطَّبع (الرَّافعيُّ).

وِلِـســانـاً صَـيْرَفِـيـاً صـارِمـاً
كحُسَامِ السَّيْفِ ما مَسَّ قَطَعْ[1]

فمن ههنا أخذ وألَّف واهتدى إلى «طيِّب الحديث وحسن الصَّوت والإيناس والسِّحر والجذب برقَّة المنطق ولذيذ الصَّوت» وما هكذا يصنع أهل اللُّغة في تعريف ألفاظها ولا هذه اللُّغة تحتمل ذلك.

ولابدَّ من الرِّواية الصَّحيحة أو النصِّ البيِّن الصَّريح، ولقد مات كل العلماء والـرُّواة بحسـرة انقطاع ما بينهم وبين الجاهليَّة في تفسـير لفـظ أو رواية بيتٍ أو إسـناد خبرٍ أو تحقيق معنـىً وكانوا أهل هذا العلـم ورجالَه. فكيف يقـع معنى الأديـب في الجاهليَّة ويتَّفق بعد الجاهليَّة بأربعة عشـر قرناً على أنَّ الفاضـل (كلِدَة) يزعـم أنَّ الأبيات التي نقلها عن الجاحظ من الشِّـعر القـديم، وهـو مع ذلك قد أخطأ في تفسـير معنى الأديب الـوارد فيها، فأمَّا الأبيات الأولى التي منها:

وإنِّي على ما كان من عَنْجَهِيَّتي
ولَـوْثَـةِ أَعْـرَابِـيـتـي لَأَديـبُ[2]

فـإنَّ الجاحـظ يقـول قبلهـا: «وفيما مدحوا بـه ابـن الأعرابـي إذا كان أديباً أنشـدني ابن أبي خزيمة واسمه الأسـود» ثمَّ يروي الأبيات، وهذا ليس بالنَّصِّ على أنَّ الشِّـعْرَ قديمٌ ولا أنَّ قائله جاهليٌّ؛ بل كُلُّ مَنْ يعرف صـنيع الجاحظ في كتبه وروايته عن الأعراب؛ لا يشـكُّ أنَّ الشِّعْر لأَسوَدَ نفسه، وهو رجلٌ أعرابيٌّ، والأعرابُ وإنْ كان فيهم مَنْ يروي، وفيهم مَنْ يقول، وفيهم مَنْ يجمع الاثنين، ولكن مَنْ يروي منهم يُسند إلى مِنْ يُروى عنه؛ فإذا قال العلماء: أنشدنا فلانٌ وأطلقوا وكان المنشد أعرابياً؛ فذلك من قوله على ما أرى.

(1) انظر البيان والتَّبيين (1/166) وما بعدها.

(2) نفسه 1/168.

ومهما يكن في هذا فإنَّ معنى الأديب في البيت ليس المطرب المؤنس السَّاحر إلخ؛ ولكنه رِقَّةُ الخُلُق، وظُرْفُ النَّفس، وحُسْنُ التأدُّب؛ لأنَّ الأعراب يُوصَفون طبيعةً بالجفاءِ والغلظةِ والهيجِ والخفَّة، وهذا هو معنى العنجهيَّة واللُّوْثَة، ويُقابل هذه الأوصاف الرَّصَانة والعقل والظُّرف ورِقَّةُ الحاشية مما يرجع في جملته إلى كرم الخُلُقِ وحُسْنِ الأدبِ وظُرْفِ اللسان، والظُّرف نفسه معنى من المعاني التي فسَّروا بها الأَدب، وأمَّا الأبيات الثَّانية التي فيها:

حبيبٌ إلى الزُّوَّارِ غَشَيَانُ بيتِه

جميلُ المُحَيَّا شَبَّ وهو أديبُ[1]

فالقصيدة مشهورةٌ يروونها لكعب بن سعد الغَنَوِيِّ، وبعضهم يرويها لسهم الفقويِّ، وبعضهم يروي أبياتاً منها لهذا وأخرى لذاك، ورواها صاحب (الجمهرة) لمحمد بن كعب؛ فهي إسلاميَّة لا جاهليَّة، ومعنى الأديب في البيت النَّشأة على مكارم الأخلاق وأكثر القصيدة يُفسِّر هذا المعنى وينصُّ عليه نصّاً. فقد حصل ممَّا تقدَّم أنَّ المعنى الذي جاء به الفاضل (كِلْدَة) مصنوعٌ لا رواية فيه ولا أساس له ولا شاهد عليه، ولا مشابهة (البتة)[2] بين معنى اللفظ اليونانيِّ واللفظ العربيِّ. والمادة نفسها مادة (أدب) أصيلة في العربيَّة ولو هم كانوا أخذوها من اليونانيَّة لما جاوزوا بها المعنى الذي أخذوها لأجله ولا صرَّفوها في المعاني التي تروى في كُتب اللُّغة.

وقد بحثنا في تاريخ كلمة الأدب وأفردنا لها فصلاً في الجزء الأول من (تاريخ آداب العربيَّة)؛ فليُنْصِف الفاضل (كِلْدَة) من نفسه، وليُنْصِف الأدب؛ فما أعرف كتابةً يقلِّب صاحبها كفَّيه على ما كتب فيها كذلك التَّعريف الذي يُخرج الحيَّ من الميِّت أو الميِّت من الحيِّ.

---

(1) الموضع السابق.

(2) في الأصل: أبقته.

الأدبُ والأديبُ (٢)[1]

قــال كلــدة: «إنَّ لــلأدب والأديب معــاني قديمــة، وأنَّ معنى الأديب في عصــر الجاهليَّة وأوائل صدر الإسلام هو الطَّيِّب الحديث الحسن الصَّوت الذي يُؤنس السَّــامعين بســحر مقاله، ويجذبهم إليه برقَّــة منطقه ولذيذ صــوته...»؛ وأنا أطلبُ منه البيِّنة على دعواه؛ ولو شــاهداً مــن كلام العرب يدلُّ عليها، أو رواية تُثبتها، أو أساساً من التَّاريخ يُسوِّغ ما ذهب إليه ويُخرجه من باب الوضع.

إنَّنــا نُقرِّر لهذا الفاضــل أنَّ عرب الجاهليَّة وصــدر الإســلام لم يعرفوا معنى الأديب بمثل ما اصطلح عليه العلماء، لا على الوجه الذي ذهب إليه من الطَّيِّب الحديث إلخ، ولا على قفاء هذا الوجه ولا جرت الكلمة في استعمالهم لأيِّ معنىً يدلُّ على العلم أو الشِّعر أو البلاغة أو فنون الغَزَل أو المحاضرة أيهما كان، ولا يجــوز أنْ يكونوا قد أخذوا هذا المعنى إلا وقد تكلَّموا به، ولا يُمكن أنْ يعرفه هو إلا وقد وقف على شيءٍ من كلامهم.

بالأمس قام (لورد جســبرو) في مؤتمر إســرائيليٍّ بلندن يزعم أنَّ الإنكليز منْ نســل بني إســرائيل، وأنَّهــم حقَّقوا النُّبوَّة التــي ورد فيها أنَّ هذا النَّســل يملأ الأرض، وأنَّ الدليل على ذلك أنَّ كلمة بريتشBritish التي معناها بريطانيٌّ هي من كلمتين عبرانيَّتين: (بريت) أي العهد و(إش) أي الشَّــعب، قال: فالشَّــعب الإنجليــزيُّ هــو شــعب العهد أي شــعب إســرائيل، فلم يُنكَب العــرب وحدهم بكلمتين يونانيتين؛ بل نُكب الإنجليز بكلمتين عبرانيَّتين، وإنَّه لمصْعدٌ سهلٌ يَثبُ إليه مَنْ أصاب مُشابهةً في مقابلة اللُّغات؛ ولكنَّ الانحدار منه تندقُّ فيه العُنُق.

(1) نُشر هذا الردُّ في عدد ديسمبر 1923 على تعقيب (كلْدَة) على ردِّ الرَّافعيِّ السَّابق، راجع ما كتبه (كلْدَة) تحت عنوان: أصــحيح أنَّ (الأديب) عربيَّة المادَّة؟، العدد الثَّالث، نوفمبر 1923م، وحسب المقتطف فقد جاء هذا الرَّدُّ الأخير مسهباً؛ غير أنَّ المجلة اختزلته واكتفت بهذا الجزء.

جَوَابٌ مُخْتَصَرٌ[1]

قــرأتُ كلمــةَ الفاضــلِ الطَّريفي (أو الظَّريــف) العراقيِّ يدفــع بها عن بيت شوقي:

لـيلـى، مُـنَــاد دَعَــا لَـيْلَـى فَـخَـفَّ لَـه

نَشْـوَانُ فِي جَنَبَاتِ الصَّدرِ عِرْبِيدُ[2]

ويقــول إنَّه أخذ عليَّ في نقــدي هذا البيت مواطن ثلاثة، ثــمَّ يزعم ألَّا غلط في الابتــداء بالمرَّة هنــا؛ لأنَّ «مُنَادٍ» فاعــلٌ مُقدَّم للفعل «دعــا» على حدِّ قول الشَّاعر:

وِصَــالٌ علـى طُـولِ الـصُّـدُود يَـدُومُ

قال: فقد روى ابن مالك عن الأعلم وابن عصفور أنَّهما قالا في إعرابه: «إنَّ وصــال فاعلٌ يدوم المذكور»، ثمَّ تمَّمَ الكاتب على ذلك بأنَّ بيت شــوقي وحيٌ من العبقريَّة، وأنَّه أبلغ من حيث العنوان، وأنَّ شــوقي لم يكن يدري من أين أخذه، أي لم يطَّلع على بيت المجنون.

وأنا فلا ينبعث نشاطي للرَّد على مثل هذا النَّقد الذي يُشبه ريشةً قلقةً طائرةً في الجوِّ وإنْ قطعت من العراق إلى مصــر؛ فشــوقي لم يخترع رواية مجنون ليلى؛ بل هو تناول شخصــيَّةً معروفةً لها تاريخها وأســلوبها، وقد طاف على أخبار المجنون في (الأغاني) وغيره وبنى عليها روايته.

ومن أخبار المجنون أنَّه سمع مرةً منادياً يقول «يا ليلى»؛ فاضطرب ثمَّ قال:

وَداعٍ دَعـا إِذْ نَـحـنُ بـالخَـيْـفِ مِـن مِـنـىً

فَـهَـيَّـجَ أَشْــجَـانَ الـفُـؤادِ وَمـا يَـدري

---

(1) مجلة أبولُّو، ع 8، 6 ذو الحجة 1351 هـ = 1 أبريل 1933م، ص 942–944.

(2) راجع مسرحية مجنون ليلى لشوقي، ص 45.

دَعــا بِـاسْــمِ لَـيـلـى غَـيـرَهـا فَـكَـأَنَّـمـا
أَطـارَ بِلَيـلـى طـائـراً كـانَ فِي صَـدري[1]

أفيرى الكاتب أنَّ شوقي كان جاهلاً لم يطَّلع على أخبار المجنون ولم يقرأ هذين البيتين؟! والمجنون لا يريد أنَّ فؤاده طيرٌ ولا أنَّه طار، ولكنَّه يُصوِّر ما شعر به، فإنَّ فؤاده كان ساكناً كالطَّائر الحائم في عُشِّه، ثمَّ اضطرب فجأةً كما ينفر هذا الطَّائر إذا فزع لصوت أو حادث، وبهذا المعنى يكون بيت المجنون أدقَّ وأبلغ من بيت شوقي؛ بل لا يُذكر بيتُ شوقي إلى جانبه.

وبذلك الخبر تعرف أنَّ شاعرنا لم يخترع شيئاً ولم يُوح إليه شيءٌ، ولم يزد على أنْ قلَّد وتابع تلك السَّقطة النَّحويَّة؛ فقد قال بعض النُّحاة في مثل هذا المقال إنَّ النَّكرة فاعلٌ مقدَّم؛ وهو رأي سخيفٌ ردَّه المحقِّقون؛ لأنَّ هذا وإنْ كان فاعلاً في المعنى إلا أنَّه مبتدأ في الموضع والإعراب، والخبر والحال كلاهما نعتٌ في المعنى؛ ولكن لم يقل أحدٌ إنهما في الإعراب من باب النَّعت.

وقد استدلَّ الظَّريفي بقول الشَّاعر «وصالٌ على طُولِ الصُّدُودِ يَدُومُ» وقال إنَّ ابن مالك روى عن الأعلم وابن عصفور إلخ، يريد أنَّه نقل عنهما؛ فإنَّ ابن مالك ليس من الرُّواة غير أنَّ ابن مالك لم ينقل هذا؛ وإنَّما الذي نقله الدَّمامينيُّ، وعن الدَّمامينيِّ نقل الصَّبَّانُ في حاشيته على شرح الأشمونيِّ لألفية ابن مالك؛ فانظر كيف أكل الكاتب هذه السِّلسلة.

والأصل أنَّ الكوفيين يُجيزون تقدُّم الفاعل على فعله ويرون شاهدهم على ذلك قول «الزبَّاء»: ما للجِمال مشيُها وئيداً؟!؛ فيقولون: إنَّ «مشيها» فاعلٌ مقدَّمٌ لوئيد، وهو وصفٌ يعمل عمل الفعل، ويجوز عندهم أنْ تقول: «الرَّجلان قام»، و«الزَّيدون قام».

---

(1) ديوان مجنون ليلى، ص 124.

وهــو خلطٌ من لا يذوق العربيَّــة ولا معرفة له ببلاغتها، وقد ردَّ البصــريون مذهب أولئك؛ فلا يجوز عندهم أنْ تُقدِّم الفاعل، وإنْ كان بعض من اتبعهم كابن عصفور والأعلم قالوا بجوازه لضرورة الوزن، كقول الشاعر:

صَــدَدَتِ فأطولتِ الصُّــدودَ، وقلَّما

وِصـالٌ على طُولِ الصُّـدُودِ يَدُومُ[1]

ونحن لســنا من هذا الرأي، وهذا الشَّاعر أخطأ في قوله «أَطْوَلْتَ» وهو يريد أَطَلْتَ، واضــطره الوزن لهذا الخطأ الظَّاهر، فلا بِدْع أنْ يكون أخطأ كذلك في الضَّرورة الثَّانية من ضرورات الوزن، فهو ممن لا يجوز أنْ يُحتَجَّ بقولهم، وعلى الأقلِّ لا قيمة لشعره هذا فلا يُحتَجُّ به.

وعلى التأوُّل البعيد يمكن أنْ يُقال إنَّ الشَّــاعر أراد هذا التَّعبير (قَلَّ وصــالٌ يدومُ على طُولِ الصُّــدُود)؛ فلم يســاعده الوزن فجاء بـ«قلَّما» على صورتها التي كثرت لها في الاستعمال[2] وهو يريد بها معنى (قلَّ) فتكون (م) «زائدةً لضــرورة الوزن و(وصال) فاعل (قلَّ)، وهذا هو الوجه الصَّحيح في إعراب البيت، ولم يتنبَّه له سيبويه ولا غيره ممن تناقلوه شاهداً على اختيار مذهبِ تقدُّم الفاعل في هذا الشِّــعر بخاصــته، والضَّرورة فى اعتبار (م)» زائدةً في هذا الفعل – الذي اختصَّ بها (وقلَّما(اســتعمل إلا معها– أخف بكثير من ضرورة تقديم الفاعل ومسخ العربيَّة وإفساد بلاغتها.

وعلــى هــذا يُقال في إعــراب البيت: (قَلَّ) فعــلٌ ماض، و(ما) زائــدةٌ ملغاةٌ لضــرورة الوزن، و(وصــال) فاعل (قــلَّ)، وإلغاء الحــروف العاملة يقع في العربيَّة كثيراً فهذا من بابه.

---

(1) ورد البيت مجهَّلاً في (سرِّ الفصاحة) لابن سنان الخفاجيِّ الحلبيِّ، ص 113. وفي (لسان العرب) لابن منظور الإفريقيِّ 412/11. وفي (خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب) لابن عمر البغداديِّ 231/10.

(2) من كثرتها قال بعضهم إنَّ (قلَّما) كلها تأتي حرف نفيٍ (الرَّافعيُّ).

ولعـل حضـرات علماء الأزهر يصـحِّحون كتبهـم بهذا الوجـه الجديد من الإعراب والشَّرح لذلك البيت المشهور، ونصيحتي لمن ينظر في كتب النَّحو أنْ يقرأ هذا العلم على أنَّه منطق العربيَّة؛ فلا بد فيه من الاسـتيعاب والفلسفة والسـليقة العربيَّة الصَّحيحة القائمة على قوانين البلاغة والإعراب؛ لا على قوانين الإعراب وحده.

وبعد، فالغلطة في بيت شوقي لا تزال كما هي، ولا مسوِّغ للابتداء بالنَّكرة في قوله، ولن يجيء هذا المسوِّغ لا من العراق ولا من أنقرة.

قريش والخليفة[1]

نقـل العلَّامة (كلْدَة) الآراء المرويَّة في معنــى (قريش) عن الكتب المتأخِّرة، ونســي الأستاذ أَنَّ هذه الكلمات أصبحت في التَّاريخ الإسلاميِّ ميراثاً دينيّاً، فهــي تحمل من المبالغــة والتكلُّف ما لا يحمل غيرها، ويُقــال فيها ما قيل في لســان أهــل الجنَّة، وليســ في كل ما نقله ما يُشــير إلى أنَّها مــن (القِرْش) الدابَّة البحريَّة التي وصــفوها إلى الرِّوايــة التي تنتهي إلى ابن عباس، وهي التي اهتدى منها الأستاذ إلى أنَّ الكلمة يونانيَّة، ولكن من أين له أنَّ الرِّواية صــحيحة وهذا إمام المفسِّــرين ابن جرير الطبريُّ (المُتَوَفَّى ســنة 310 هـ) قد أســقَطَها من تفســيره الكبير؟! ولو كانت صحيحةً ما فاتته؛ لأنَّه لا يُرسل القــولَ إرســالاً كما يفعل المتأخِّرون بعد انقطاع الأســانيد؛ بل يروي ويُســند ويُحقِّق، وكم كَذَبَ النَّاس على ابن عباس، وكم وضــعوا عليه من شِعْرٍ وخَبَرٍ حتى جعلوه وحدَه (ديوانَ العرب)!

الرِّواية الصَّــحيحة في تســمية قريشــ أنَّها من التِّجــارة، ولم يكن يُعرف في العهد الأوَّل وما تلاه من عصورِ التَّحقيق إلا هذا المعنى، والقرآن نفسه يكاد يكون نصّاً في ذلك؛ فقد وصفهم في سورة قريش بقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[2] وما هذه بصــنعة الدابَّــة البحريَّــة التي يُقــال إنَّها تعبث بالسُّــفن ولا تُطلــق إلا بالنَّار؛ بل هي صــنعةُ قوم تجارٍ ألِفُوا لمعاشــهم رحلتي الشِّتاء والصَّــيف إلى اليمن والشَّام ولا عيش لهمً إلا أنْ يمتارُوا ويبيعوا ويشــتروا حتَّى كادت التِّجارة تُلهيهم عن عبــادة ربِّ البيت، وما دام في اللُّغة القِرْش بمعنى الكَسْــب والتِّجارة؛ فلم لا

(1) المقتطــف، عــدد مارس 1924، ص 332 وما بعدها، وهــو ردٌّ على مقالة كلدة المُعنــون بـ«بعض المُعرَّبات» المنشور في عدد يناير من نفس العام، ص 20 وما بعدها.

(2) سورة قريش 3-4.

يكون اسمهم مشتقّاً من هذه المادَّة، وخاصةً إذا علمنا أنَّهم كانوا يتحقَّقون في العرب بكل ما يدلُّ على صناعتهم هذه ويتَّسِمون لها بسِمَة خاصة، إذْ كان العرب يُغِيرُ بعضهم على بعض ويتساقطون في الغزوات بكلِّ طريق؛ فلا يأمنهم إلا من فرغ لشأنه وأَمَاتَ دَاءَ صدرِه فلا ثَارَ ولا منافسة، وعندي أنَّ قريشاً لم يتخذوا هذا الاسم إلا ليكون لهم كجواز السَّفر في هذه الأيام؛ فمتى قيل: قريش وقُرَشيٌّ؛ قال العرب: هذا هو التَّاجر فكُفُّوا عنه.

والذي يكون كالنَّصِّ القاطع فيما ذهبنا إليه ما نرويه عن الجاحظ وناهيك به إماماً، فقد روى قصيدة (للحَيْقُطَان)[1]، وقال إنَّها قصيدة تَحتجُّ بها اليَمَانيَّة على قريش ومُضَر، وفيه يقول:

ولا مرتعَ للعينِ أو مُتَقَنَّص؛

ولكن تجراً والتِّجارةُ تحقر[2]

قال الجاحظ: «يقول ليس بها (يعني مكة) متنزَّهات، وصيدُها حرامٌ؛ وإنَّما بها تجَّارٌ والتُّجَّار يحقرون، يقول: هم عند النَّاس في حدِّ الضَّعف، ولا يستجيز ملك أخذ الذي به يتعيَّشون، وهم قومٌ ليس عندهم امتناع؛ ولذلك يقول الشَّاعر معاوية بن أوس وهو جاهليٌّ:

وزقٍّ سَبَأْتُ لذي متْجَر

أسيود كالرَّجلِ الأسْحَم

إلى التَّاجر العربيِّ الشَّحيح

أو خمر ذي النُّطَفِ الطمطم

(1) لم أقف له على ترجمة، قال عنه الجاحظ في البيان والتبيين: «والحيقطان؛ عبدٌ أسود وكان خطيباً لا يُجارى» 130/1، وفي المذاكرة في ألقاب الشعراء للأربلي: «وأما الحَيْقُطَان فكان شاعراً وخطيباً، وكان عبداً أسود. وهجاه جرير» وذكره ضمن شعراء عبيد العرب وما احتضر من أخبارهم، واستحسن من أشعارهم، وانظر: الشُّعراء السُّود وخصائصهم في الشِّعر العربيِّ: د. عبده بدوي، ص 150 وما بعدها.

(2) رسالة (فخر السُّودان على البيضان)، ضمن كتاب رسائل الجاحظ، 182/1-185.

أراد بهـذا كله قريشـاً، يقول هم تجَّارٌ وقد اعتصـموا بالبيـت وإذا خرجوا علَّقـوا عليهم المُقَل ولحاء الشَّـجر حتى يُعرفوا فلا يقتلهـم أحدٌ»[1]، فتأمَّل يا سـيدنا العلَّامة (كلْدَة) أين هذا من choregas رئيس المغنِّين! وهل حرَّم اللّه على ألسـنة اليونان أنْ تنطق بكلمة فيها قافٌ وراءٌ وشـينٌ أو جيمٌ تُبدَّل شيناً مع ما تمحَّلت في إبدال هذه الجيم، فإنَّ الإبدال شائعٌ في أكثر الحروف وهو لغات لا لغة واحدة ينطق بكلٍّ منها قَبيلٌ من العرب؟!

وإليك نصّـاً آخر: قال الجاحظ في رسـالة التِّجارة يعني قريشاً «وبالتجارة كانوا يُعرفون؛ ولذلك قالت كاهنة اليمن للّه درُّ الدِّيار، لقريش التُّجار وليس فوقهم قرشيٌّ كقولهم هاشميٌّ وزهريٌّ وتميميٌّ؛ لأنَّهم لم يكن لهم أبٌ يُسمَّى قريشـاً فيَنسبُون؛ ولكنَّه اسـمٌ اشـتُقَّ لهم من التِّجارة والتقريش فهو أفخم أسمائهم»[2]، ومن صنيع الجاحظ أنَّه يشقُّ من الكلمة الواحدة كلاماً كثيراً فلو علم غير ذلك لأفاض فيه ولتكلَّف له الأسباب.

والعجيـب أنْ يقول الأسـتاذ (كلْـدَة) حين يذكـر رواية ابن الكلبـيِّ إنَّ ابن الكلبيِّ هذا: «هو المرجوع إليه في هذا الشَّـأن» مع أنَّه مِنْ أكذب مَنْ وضـعوا على العرب، وقد كذَّبه العلماءُ وردُّوا عليه.

الخليفة

أمَّـا ما قاله الأسـتاذ في الخليفة وأصـلها؛ فتلك واللّه دويهية تصـفرُّ منها الأنامل، وتحمرُّ أيضـاً.. قال: ما كان يخطر ببـالي قط أنَّ الخليفة بمعناها القديم يونانيَّة الأصـل لو لم أقرأ في كتاب الأوائل لأبي منذر هشـام الكلبيِّ: «كان الخليفـة في آنف الدَّهر يتولَّى تدبير العجِّ والثجِّ في الحجِّ، ويُدير حركة

(1) نفسه، ص 188.

(2) راجع رسالته «مدح التِّجارة وذم عمل السُّلطان» ضمن الرَّسائل 4/256.

الرَّقص في أيام أفراحهم ومحافل أعيادهم، ثمَّ نقل الحرف إلى من بيده السُّلطة العليا أو يحاول أنْ تكون له السُّلطة العظمى»[1]

قال الأستاذ -حفظه الله- فما قرأتُ هذا الكلام إلا وقلتُ في نفسي إنَّ اللَّفظة يونانيَّة ومعناها الرَّئيس الذي يتولَّى إدارة الرَّقص والأغاني في المواسم الدينيَّة، ورئيس المغنين في المآسي والأضاحيك.

كل ذلك بناه الأستاذ على النَّصِّ الذي نقله عن هشام الكلبيِّ، ولكنِّي أنا الضَّعيف يا سيدي الأستاذ (كلْدَة) أُقسمُ لك أنَّ النَّسَّابة العظيم لم يقل هذا الكلام، وأنْ ليس له في النَّصِّ إلا هذه الكلمات «كان الخليفة في آنف الدَّهر يتولَّى تدبير العجِّ والثَّجِّ» ففهمت أنت من العجِّ والثَّجِّ معنى الحركة؛ فأكملتَ النصَّ من عندك ليلائم معنى الكلمة اليونانيَّة كما فعلت في تعريف كلمة الأديب، وهل يخفى على من يذوق البلاغة العربيَّة ويعرف كيف تُسبك أنَّ أحداً من الرُّواة أو العلماء أو العرب لا يقول أبداً؛ بل لا يطوع لسانه أنْ يقول «يُدير حركة الرَّقص» وأيام أفراحهم ومحافل أعيادهم، ومن بيده السُّلطة العليا، وأنْ تكون له السُّلطة العُظمى، أي كلام هذا؟! لقد ضاع عمري باطلاً إنْ لم أميز بين كتابتين إحداهما كُتبتْ من نيِّفٍ ومائةٍ وألفِ سنةٍ، والثَّانية لم يجف حِبْرُها بعد.

دُلَّنا يا سيدنا العلَّامة على كتاب هشام وائْتنا بالنَّصِّ بحرفه؛ وإلَّا فإنَّ معنى العَجِّ والثَّجِّ ما يَضَجُّ به الحجيج من الدَّعاء لله مكتظِّين مجتمعين؛ فلا رقص ولا أغاني ولا أضاحيك ولا سخافات، وكل ما بنيَّته على هذا النَّصِّ فاسدٌ؛ لأنِّي أقولُ لك بملء فمي إنَّ النَّصَّ موضوعٌ، وألفاظه شاهدة شهادة العُدُول.

---

(1) في الأصل كتاب «الدَّلائل»، والصَّحيح هو «الأوائل» كما ذكره كرملي في مقالته، وحسب ما ذكره الأخير؛ فقد كانت لديه مخطوطةٌ من الكتاب فسُرقت، راجع مقالة كرملي السَّابق ص 22، وقد ذكر ابن النديم كتاب الأوائل ضمن مؤلفات الكلبيِّ، انظر: الفهرست 1/303.

الطَّبْعِيُّ والطَّبِيعِيُّ[1]

سيِّدي الأستاذ الجليل مُنشئُ المقتطف الأغرِّ

سـألكم سائلٌ: لم لا تسـتعملون كلمة الطَّبْعِيِّ في مكان الطَّبيعيِّ كما يأتي بها غيركـم؟ فأجبتـم بأنَّ علماء العرب وفلاسـفة العرب اسـتعملوا «الطَّبيعيَّ» كذلك: وأكثر الكُتَّاب اليوم كما ترون لا يدرون ما هو القياس ولا ما هو المَعدِل عنه، ولا يُفرِّقون بين ما له وجه وما لا وجه له، ولا يُحسـنون أنْ يتخيَّروا على نحو ما كان يصـنع أهل هذه اللغة والقائمون عليها من بعدهم لاستحسـانٍ أو علَّة أو ضـرورةٍ أو وجْهٍ من وجوه الاسـتعمال، إنَّما هو التَّقليد والمتابعة في الخطأ والصَّواب، وأنْ يقول زيدٌ فيقول عمروٌ، ويتأوَّل واحدٌ منهم للكلمة من الكلام؛ فإذا هي مذهبٌ ومِلَّةٌ.

لم تُعـرف كلمة «الطَّبْعِـيِّ» في هذه العربيَّة من يوم خلقها اللَّه إلى أنْ أرسـل معجزتها الخالدة للأحمر والأسـود إلى أنْ تناولها العلماء من كلِّ لسـانٍ في ثلاثة أركانِ الأرضِ: آسـيا وأفريقيا وأوروبا- إلَّا في سـنة 1909م أو حولها، ثمَّ في مصـر وحدها إذْ نَبَغَ نابـغٌ أراد أنْ ينتقد كاتباً من الكُتَّاب؛ فكان مما ميَّـزه من خَطَـأِه كلمة «الطَّبيعيِّ» هذه رجوعـاً إلى القاعدة المعروفة في باب النَّسَب أنَّهم ينسبون إلى «فعيلة» فيحذفون الياء والتَّاء كـ«حنفيِّ» في النِّسبة إلى بني حنيفة ما لم تكن «فعيلة» مُضَعَّفة أو مُمَثَّلة العين فلا يحذفون باءها؛ بل ينسبون إليها بالتَّصحيح كـ«حقيقيّ» و«طويليِّ» في النِّسبة إلى «الحقيقة» و«طويلة»، وهكذا.

---

(1) رسـالةٌ نُشرت بباب المراسـلة والمناظرة بالمقتطف، المجلَّد 61، ج 3، 7 ذو الحجة 1340 هـ = 1 أغسطس 1922م، ص 281-284.

وكان ذلك النابغ يومئذ لم يتم ولم ينضج واستعمل هو تلك النِّسبة في كتابته، ولكنَّه لم يجد من يتناولها إلا قليلاً حتَّى أجراها الأستاذ أمين بك الرافعيُّ في كتاباته السياسيَّة التي تكاد تكون عنصراً من عناصر الفكرة الوطنيَّة في مصر، وهو قلَّما يكتب مقالة إلا وَرَدَت فيها، ومن ثمَّ شاعت اللَّفظة حتى ما أراها إلا هلكت من كثرة الاستعمال.

وقد سُئلت فيها مراراً لأنِّي لم أستعملها قطُّ على ذلك الوجه الثَّقيل، ولا أرى وجهاً لاستعمالها، وأنا الآن مُبيِّن الأصل الذي بَنَى عليه علماء العرب فيها.

لعلَّ أقدم ما عُرف من تاريخ النِّسبة إلى الطَّبيعة (كتاب السَّماع الطَّبيعيِّ) الذي نقله سلَّام الأبرش من النَّقَلَة القدماء[1] أيام البرامكة، وإنْ كنتُ أُرجِّح أنَّها استُعملت في أوائل الدَّولة العبَّاسيَّة حين ابتدأوا النَّقل عن اليونانيَّة وغيرها، وقد غيَّر الفلاسفة والعلماء والمتكلِّمون جميعاً وكلُّ من عانى النَّقل إلى العربيَّة أو صحَّح للنَّقَلَة أو حَرَّر من كلامهم، وكل مَنْ نقل الكلمة عن هؤلاء وأولئك من الكُتَّاب والأدباء والشُّعراء؛ فما منهم إلا مَنْ يقول العلم الطَّبيعيَّ والسَّماع الطَّبيعيَّ والطَّبيعيَّات والعلوم الطَّبيعيِّة، لا يعدلون عن هذه النِّسبة ولا يسعهم غيرها، وخرجت كذلك من (دار الحكمة) التي أرصد فيها المأمون من يُصحِّح لغة النَّقَلَة، وطارت في العراق والشَّام والجزيرة وما وراء النَّهر ومصر والمغرب والأندلس، وتجدها فاشيةً في كلِّ كتب الطَّبقات لم يخالف الجماعة فيها أحدٌ.

وهؤلاء الفلاسفة والمؤرِّخون إذا وُزِنوا في علمهم وبحثهم وتحقيقهم واطِّلاعهم؛ لا يبقى أحدٌ في الأرض يُحدِّث نفسه أنَّهم لا يُرجِّحون صاحبنا الطَّبعيَّ إذْ جاء يردُّهم إلى وجه القياس ويدلهُّم على مأخذ الكلمة، وكانت بيضة ديك اللغة مرَّةً واحدةً في الدَّهر كله.

---

(1) يقصد الرافعيُّ بالنَّقَلَة المترجمين الذين كانوا ينقلون عن اللُّغات الأخرى.

وقد يُقال إنَّ كلَّ الذين استعملوها جهلة؛ لأنَّهم فلاسفة ومتكلِّمون، ومنهم الجاحظ والنَّظَّام وغيرهما، وليس فيهم من يقوم باللُّغة وعلمها، فماذا يُقال في ابن جِنِّي صاحب (الخصائص)؟! وهو فيلسوف الاشتقاق والتَّصريف، وحسنة أبي عليٍّ الفارسيِّ الذي ورث علمه وتخرَّج على يديه، وقد أقام أبو عَلي عَلَى علم أسرار اللُّغة سبعين سنة لا يعتاقُهُ[1] عنه ولدٌ، ولا يعارضه فيه مُتَّجِرٌ، ولا يسوم به مطلباً من مطالب الدُّنيا.

وابن جِنِّي فوق ذلك رجلٌ سمع العرب الفصحاء ونقل عنهم، وكان يلقاهم بما أشكل عليه، أفيجوز أنْ يكون هو أيضاً جاهلاً بوجه النِّسبة، ولا يجوز أنْ يكون هو وغيره قد سألوا فصحاء الأعراب عن هذه الكلمة وأخذوا بمنطقهم فيها وقياسهم عليها؟!

قال في الخصائص: «من الأمر الطَّبيعيِّ الذي لا بدَّ منه أنْ يلتقي الحَرْفان الصَّحيحان فيسكن الأول منهما في الإدراج؛ فلا يكون حينئذ بُدٌّ من الإدغام» ولا نطيل بالنَّقل؛ فهذا حسب.

أمَّا وجه تصحيح هذه النِّسبة فهو أنّ العرب لم يكونوا يعرفون القواعد أو ينزلوا عليها؛ إنَّما ذلك علمٌ منتزعٌ من استقراء اللُّغة، ولا قاعدة للعربيِّ إلا غريزته والاستحسان والاستخفاف والاستثقال، ولهذه العلَّة لا ينسبون إلى (فَعِيلَة) في المُضعَّف والمُعتَل العين إلا بالتَّصحيح إذْ يستثقلون أنْ يقولوا (حَقَقيٌّ) و(طوليٌّ) فيعدلون إلى (حقيقيٌّ) و(طويليٌّ) كما تقدَّم، وقد تطَّرِدُ الكلمة في استعمالهم وهي مع ذلك شاذَّةٌ في القياس فيقولون: «استصوب» و«استحوذ» و«استنوق» ولا يقولون (استصاب) و(استحاذ) و(استناق) على ما هو القياس في مثل: (استقام) و(استخار) إلخ.

---

(1) يعوقُهُ ويمنعُهُ.

وفي نحـو (الفتوى) و(التَّقـوى) قلبوا الياء واواً من غير علَّة ولا ضـرورة إلا علَّة الاستحسـان والاستخفاف، وقد نصَّ سـيبويه على أنَّهم قالوا «سَلِيقِيٌّ» للرَّجل يكون من أهل السَّليقة، ولم يقولوا (سَلقيٌّ) على القاعدة، فإنْ لم يكن العلماء قد اسـتنطقوا العرب في النِّسبة إلى الطَّبيعة؛ فهذا عندنا هو الأصل الذي عملوا عليه والوجه الذي اتبعوه، ولا يُقال إنَّ (السَّـليقيّ) « لفظةٌ شاذةٌ لا قياس لها؛ فإنَّ الشُّـذوذ ليس بشـيء عند العرب أنفسهم ولا يعرفونه؛ بل كلُّ شـاذٍّ فله وجه في اسـتعمالهم و(السَّـليقة) و(الطَّبيعة(و) الغريزة(و) البديهة(ألفاظٌ متجانسـةٌ تتلاقى معانيها على أصـل واحد وفي وزن واحد؛ فلا جرم أخذ بعضـها في النِّسبة مأخذ بعضها، وصحَّ فيها القياس لتماثلها في الصِّـيغة والمعنى وتجانسـها في العِلَّة وهي عِلَّة الاستثقال إذا قيل «سلقيٌّ» و«غرزيٌّ» و«بدهيٌّ» و«طبعيٌّ».

نتـج من ذلـك أنَّ علماءنا ليسـوا بجهلة؛ بل لهم أصـلٌ بَنَوا عليـه وأنَّ لفظ الطَّبعي إنْ لم يكن خطأ في نفسه أو لمخالفته الإجماع فهو خلاف الأفصح.

على أنَّه لو قال قائل إنَّهم ينسبون إلى)الطَّبيعيِّ (بالطَّبيعيِّ فرقاً بينه وبين النِّسـبة إلى الطَّبع (العيب والشَّـين)؛ فإنَّ النِّسـبة إليه (طبعيٌّ)واحتراساً من مشـابهة النِّسـبة إلى الطَّبـع في الكتابة لـكان ذلك وجهاً صـحيحاً؛ إذْ التَّفرقة واجبةٌ في مثل هذا كما فرَّقوا في النِّسـبة إلى مدينة النَّبي صلى الله عليه وسـلم وبين النِّسبة إلى مدينة المنصـور؛ فقالوا في الأولى «مَدَنيٌّ» على القياس، وفي الثانية «مَدِينيٌّ» على خلافه، وكما ميَّز ابن الأنباريِّ في النِّسبة إلى بنـي حنيفة وإلى مذهب أبي حنيفة فجعل الأولى على الأصـل)حنفيٌّ(والثَّانية)حنيفيٌّ(، ولو كانت النِّسـبة إلى بني حنيفة – لا تزال في زمننا؛ لما اتبعوا غير هذا الرَّأي.

والعرب أنفسهم يُفرِّقون بالإبدال أحياناً؛ فيقولون في جمع (ثَوْر) للحيوان «ثِيَرة» وفي جمع (ثَوْر) وهو القطعة من الإِقط (الجُبْن) «ثورة» بالواو لا ينطقون بغيرها.

فمن أيِّ الأسباب اعتبرتَ كلمة «الطَّبْعيِّ» وجَدْتَها خطأً أو في حُكمه، والصَّواب «طبيعيٌّ» ليس غير.. والله أعلم.

كلمة «فحسْبُ» (استعمالها – أوَّلُ مَنْ استعملها)[1]

سيِّدي الأستاذ الجليل علاَّمة المقتطف الأغرِّ

أجبتم عن سؤال مَنْ سألكم لماذا لم تستعملوا كلمة (فحسب) في كلِّ ما كتبتموه بأنَّكم لم تروها مُستعملةً بالقطع عن الإضافة في كذا وكذا وما كتب فلانٌ وفلانٌ، ثمَّ نقلتم عن (القاموس) و(اللِّسان) و(الصِّحاح) و(التَّاج) و(الأساس) ما هو ثبت لكم في نُدرة استعمالها، كذلك حتى انتهيتم إلى (الشَّرتونيِّ) فجعلتم كـ(المستدرك) ما نقلهُ في كتاب (أقرب الموارد) من قوله: «ولك أنْ تنطق (بحَسْب) غير مضافة فتبنيها على الضَّمِّ نحو: هذا حسبُ يا أخي، وقد تدخله الفاء تزييناً للفظ؛ يُقال: زيدٌ صديقي فحَسْب، أي يكفيني عن (كذا) غيره.»[2]

ثمَّ قلتم عن الشَّرتونيِّ إنَّه كثير التَّدقيق، ويبعد أنْ يكون قد ذكر كلمة «فحسب» من غير أنْ يكون قد رآها في كلام يصحُّ الاستشهاد به، وتقدَّمتم إلى القرَّاء مَن رآها منهم في كلام يُوثق به أن يدُلَّ عليه. فأمَّا كُتب اللغة العربيَّة التي سميتموها؛ فهي (حسب) في الكلام على قط؛ لأنَّها من معانيها ولم يُغفلها إلا الزمخشريُّ في (الأساس)، على أنَّه ذكرها في كتابه (المُفَصَّل)[3]؛ ولكنَّه لم يأت لها بمَثَل، وأمَّا الشَّرتونيُّ فهو لم يقف عليها في كلام جيِّد وأمثلته التي ساقها في كتابه نصٌّ على ذلك إذْ هي أمثلةٌ من بيروت لا من البادية، كما تدلُّ عليه صنعتها، وإنَّما هو رأي الكلمة في كتب النُّحاة وكلُّهم يذكرها في باب الظُّروف المبنيَّة فلفَّق لها مَثَلَين منْ وضعه كما ترون في قوله: يا أخي وصديقي فَحَسْب، وليس لعالمٍ من علماء اللُّغة

---

(1) المقتطف، باب المراسلة والمناظرة، عدد مايو 1922، ص 487 وما بعدها.

(2) أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد: سعيد الخوريُّ الشَّرتونيُّ 189/1.

(3) المفصَّل في صنعة الإعراب للزَّمخشريِّ، ص 210–211.

العربيَّة أنْ يكتب (يُقال) إلا إذا كان ما يُقال كلاماً مرويّاً على أنَّ المثل الفصيح قولهم: قبضتُ عشرةً فَحَسْب. وفي حواشي (المُغني(عند الكلام على (قط) نقلاً عن حواشي (التَّسهيل) لم يُسمع منهم -أي قط- إلا مقروناً بالفاء، قال: «وهي زائدةٌ لازمةٌ عندي، وكذا أقول في قولهم (فَحَسْب) أنَّ الفاء زائدةٌ، وفي (المُطَوَّل) أنَّ (قَطّ) من أسماء الأفعال بمعنى أنته وكثيراً ما تصدَّر بالفاء تزييناً للَّفظ»، قلنا: وهذه هي العبارة التي أخذها الشَّرتونيُّ ونقلها إلى فاء (حسب) قياساً على (قط) بلا نقل ولا رواية على أنَّهم قد اعترضوا على مَنْ قال بزيادة هذه الفاء، وقالوا: لا ينبغي ارتكاب الزِّيادة ما وجد عنها مندوحةً، وأكثرهم على أنَّها عاطفة، وهي عندي للتَّنبيه والتَّقوية؛ لأنَّها في بعض المواضع تُفيد العبارة ما لا يُفيد حذفها. أمَّا استعمال كلمة (فحسب)؛ فهو كما قلتم لم يَرِدْ في كلام الأدباء والمترسِّلين قديماً ولا حديثاً فيما اطَّلعنا عليه؛ وإنَّما استعملها بعض العلماء كما سيأتي، وقد كنتُ أنا أوَّلَ من استعملها في هذا العصر إلى عصور بعيدة، وأوَّل من اتَّبعها وأجراها في كتابته إذْ أتيتُ بها مراراً في كتابي (تاريخ آداب العرب) الذي صَدَرَ الجزء الأول منه في سنة 1911، واستعملتُها بالفاء تقويةً لمعناها، وتخفيفاً لغرابتها، وليستمر بها الكلام على سَنَنه وينحدر في مجراه؛ فلا تجيء كالمقطوعة منه، ولا تظهر نابيةً في محلِّها، ثمَّ تعلَّقها الكُتَّاب بعد وأكثروا من استعمالها، حتى فَشَتْ في الكتابة، وصارت من مَأْنوس الكلام، وعرَّفوها كأنَّها كذا خُلقت بالفاء، وتسمَّح فيها بعضهم فلم يُدقِّقوا في موقعها من الأسلوب، ولم يُراعوا وزنها من العبارة؛ فخرجت في أشياء من الكتابة الضَّعيفة إلى أنْ تكون مُستكرَهةً في معناها مُلزَّقةً[1] بموضعها، حتى انتقدها بعض المتطرِّفين في جريدة الأهرام وعدَّها من الهُجْنَة[2]، وألحقها بالكلام الغريب واللفظ المكروه.

(1) مُلْصَقَةً.

(2) العيبُ والخطأ.

علـى أنِّي لم أسـتعملها ابتداءً من نفسـي، وإنَّمـا رأيتها في كلام سـيبويه كقوله في كُسِـرَتْ فِيَّ (أي فمي): أنَّهـا أولُّ دليل على أنَّهم لم يُراعوا حديث الاسـتثقال والاستخفاف (حسب)، وأنَّه أمرٌ غيرهما.[1]

ثمَّ رأيتُ فيلسـوف هذه اللغة العربيَّة في الاشـتقاق والتصريف أبا الفتح بن جِنِّي يردِّدُها في كتابه (الخصائص) كقوله: «وليس اعتدال الثُّلاثيِّ لقلَّة حروفه حسب لـو كان كذلك لـكان الثُّنائيُّ أكثر منه»[2] وقوله بعد أسـطر من هذه الصـفحة: «فـإذا ثبـتَ ذلك عرفت منـه وبـه أنَّ ذوات الثَّلاثة لم تمكن في الاسـتعمال لقلَّة عددها حسب».[3]

وقال في موضع آخر: «وليس كذلك قولنا زيد قام؛ لأنَّ هذا لم يرتفع لإسناد الفعل إليه حسب دون أنْ انضم إلى ذلك تعريته من العوامل اللَّفظية».[4]

وفي موضـع رابع في الكلام على مَفعل للمصـدر ومفعل للآلات «فلمَّا كان الميمان ذواتـيْ معنًى خشُـوا إنْ هم ألحقـوا بهما أنْ يتوهَّمـوا أنَّ الغرض فيهما إنَّمـا هو الإلحاق حسبُ»[5] إلخ إلخ...

ولم أرَ هذا الاستعمال لغير سيبويه وأبي الفتح، ولكنَّهما مَنْ هما.

ومما أخذه ابن جِنِّي عن سيبويه وأخذتُهُ أنا عنهما؛ استعمالُ كلمة البتة في معنى دائمـاً ومطلقاً وضـرورة ونحوها، ولكنـي لم أرَ الكُتَّاب قد تناقلوهـا كما تناقلوا حسبُ إلا نفراً من خاصتهم على أنَّها لا محلَّ لها من بلاغة التعبير وجمال اللَّفظ وحسن الدلالة. والله أعلم.

(1) انظر: (الكتاب): سيبويه: 3/286، 4/231، 234.
(2) الخصائص: 1/55.
(3) نفسه 1/56.
(4) نفسه 1/196.
(5) نفسه 1/224.


مقالات اجتماعية

الإحسانُ الاجتماعيٌّ[1]

أنا أعجبُ أشدَّ العجب من أمرٍ واحدٍ هو في الحقيقة الأمر كله: ذلك هو فشل الجمعيَّات الخيريَّة في بلادنا، ولا أدلّ على هذا الفشل من قِلَّتها، ولا دليل على هذه القِلَّة كانفراد الجمعيَّة التي نحن اليوم في احتفالها وذهابها بمجد التَّأسيس بين السُّوريِّين، وأنَّ السَّابقة في الخير والاتِّحاد والثَّبات والإحسان وإخلاص النِّيَّة إنَّما هي لها وحدها.

ووجه العجب أنَّنا إمَّا أنْ نكون قد تجرَّدنا من حبِّ الخير فلا نجتمع، وإمَّا أنْ نكون لا نحسن عمل الخير فلا نجتمع عليه.

لا مناص البتة من إحدى الخصلتين أو من كلتيهما، وقد نعلم أنَّ قَوَام كل عمل بنظامه وتصريفه على أصوله الطَّبيعية التي من شأنه أنْ ينصرف فيها، فإذا كان جمع المال يجرى على أصول اقتصاديَّة محضة؛ فإنَّ إنفاقه كذلك يجرى على فعل هذه الأصول، وما يجمع المرء إلا ما يفضل عما ينفقه، والإحسان إنَّما هو وجه من وجوه الإنفاق، وليس كالشرقيِّ رجلٌ مفطور على حبِّ الإحسان؛ لأنَّ تاريخه في كل أرض مملوء بالنَّكَبَات والجوائح التي تعلمه كيف يُحسن، ودينه في كل صبغةٍ مملوءٌ بالعظات والآداب السَّامية التي تُعلِّمه ما هو أسمى وأشرف من الإحسان، وهو كيف يتأدَّب في إحسانه؛ فإذا كان كلُّ ذلك وكان ذلك كلُّه صحيحاً لا ريب فيه كما هو الواقع؛ فما الذي يمنعنا نحن الشَّرقيِّين من أن نكون محسنين بالمعنى الحقِّ، حتى تظهر ثمرة الإحسان، فتُشبع بطونٌ خاويةٌ، وتُكسى أجسادٌ عاريةٌ، وتُصلح عقولٌ باليةٌ، وتُشفى جراحٌ في جسم الإنسانيَّة دامية، ويكون كل شيء عاملاً في تكوين

---

(1) هذه المقالة أصلها كلمةٌ أُلقيت في الحفلة السنويَّة لجمعية (الاتِّحاد والإحسان السُّورية) يوم 26 أبريل 1914م، وقد نشَرَتها مجلة الرِّسالة لأوَّل مرة بعد رحيله بنحو 18 عاماً. راجع: العدد 484، السَّنة العاشرة، الاثنين 2 شوال 1361هـ = 12 أكتوبر 1942م، ص 953-956.

الأمَّة تكويناً صحيحاً، حتى هذا الذي يُقال إنَّه أصل الرَّذائل كلها، ويُقال فيه ما قِيل فيها جميعاً، ويُقال له الفقر!

ليس يذهب بإحساننا ضعفه وقلته؛ فالقليل لو اجتمع لصار كثيراً، ولا يخفى ثمرته أنَّه هو نفسه غير ظاهر، فإنَّ كلَّ شيءٍ يؤتى نتائجه الطَّبيعيَّة ظهر أو خفي، وما الإحسان إلا ضربٌ من ضروب الإصلاح الاجتماعيِّ؛ ولكن الذي جعل الصَّحيح فاسداً، والموجود ضائعاً، والمُثْمر مُنقطعاً، وجعل كل أمر في أيدينا يكاد يكون عبثاً من العبث؛ إنما هو شيءٌ واحدٌ، وهو جهلنا كيفية الإحسان.

لا ريب أننا اليوم أُمَّة، وأننا نتبع الأصول الاجتماعيَّة في كل أمورنا العامة، وأننا نرى بأعيننا تسخير الطبيعة، ونستخدمها لأنفسنا، ولا ريب أننا مجتمع من المجتمعات المتمدنة، ولنا وصف طويل في علم الشعوب، وأنَّ بلادنا ذات لون واضح في خريطة الأرض، ولكن مع هذا كله لا نزال في طريقة إحساننا كأننا في منقطع العالم، أو في رؤوس الجبال، وكأننا لا نزال في معركة الاجتماع الطَّبيعيِّ التي يكون الإنسان فيها جيشاً، والحيوان جيشاً يقابله.

نُحسن إحساناً طبيعيًّاً صِرْفاً، من الفرد للفرد، كيف اتفق وحيث اتفق، نُعطى الدِّرهم بكَسَل لمن يأخذه، لا لكي يعمل به؛ ولكن ليكون ثمرةً من ثمار كسله.

في العصور الطَّبيعية تُخرج الأرض أثمارها بعد أنْ تكون العناصر كلها قد اجتمعت على إنضاجها وعملت فيها أعمالاً كثيرة؛ فيأتي الإنسان ليمدَّ يده، ولا يعمل عملاً أكثر من أنْ يمدها.

وعندنـا تخرج أيدي المحسـنين دراهمها؛ فيأتي بعض النَّاس ليمدَّ يده، ولا يعمل كذلك عملاً أكثر من أنْ يمدَّها، نحسن مثل هذا الإحسان الذي يذهب بـه وقته؛ فلا ننتفع به في إصـلاح الأُمَّة، ولا ينتفع به الفقير نفسـه؛ لأنَّه في الأكثر يُفسدهُ ولا يُصلحه.

ولا يوجد اليوم في أيدي النَّاس درهم من دراهم الخرافات، يصلح أنْ يكون رأس مال، ولا في خبزهم رغيف من رُغْفَان المعجزات التي تُشـبع الجماعات الكثـيرة، والفقـير متـى أكل بالدِّرهم الذي يُحسَـن به إليه، فقد شـبع من جوع، وتهيَّأ لجوع جديد، فيذهب الإحسـان والدِّرهم كما هُما، ويبقى الفقير والجوع كما هُماً أيضاً!

من أجل ذلك وما يتَّصل به، فشلنا وذهبت ريحنا، وركدنا والنَّاس طائرون، ومن أجل ذلك أراني أُحبُّ هـذه الجمعية المباركة، وأُكرم رجالها والقائمين بها، وأمدحهم وأعتدُّهم من العظماء، فالجمعية صندوق أموال، وهي نفسها صـدرٌ يخفق في قلب الإنسانيَّة، والجمعيَّة سـببٌ من أَمْتَنِ أسباب الإحسان، وهي نفسـها طريقة أفضـل من طرق التَّربية الاجتماعيَّة، وأكبر فضلها أنَّها من هذه الأمة كالظلِّ في الرَّمْضـاء، والرُّقعة المخضَّـبة في الجدب العريض، وأنَّهـا مجتمعٌ صـحيحٌ في أمة متبدِّدة يمزِّقها كل شـيءٍ، حتـى الأديان التي تُعلِّم أنَّ النَّاس أخوةٌ من أبٍ واحدٍ، وحتى السِّياسـة التي تجعل أفراد كل أمَّة أعضاء من أسرةٍ واحدة.

وحتـى الأدب الـذي يضـرب مثـل الإنسـان للإنسـان، بمثل اليدين تغسـل إحداهما الأخرى، مجتمع صـحيح من هذه الأمة العجيبة التي بهرتها الأمم بمعجزات الوطنية والاتحاد والإنسـانيَّة والعلم والأدب والاختراع، وأعجزت هـي الأمم كلها في قاعدة حسـابيَّة غريبـة، وهي أنَّها أفـرادٌ ولكن ليس لها مجموعٌ في (الحساب)!

ليســت العظمة بظهور المرء كما يظهر الممثل أمام المتفرجين في خلقة مزوّرة من رأســه إلى قدمه، ولا في هذه الأخيلــة الذهبية التي تملأ رؤوس الأغنياء كأنَّها أرواح الذهب، ولا في نحو ذلك من السَّــخَافات (العظيمة) التي ملأت الشَّرق كلَّه؛ ولكن العظمة أحد شيئين: علمٌ منتِجٌ، أو عملٌ مثمِرٌ.

فالعظمة خلقٌ إنسانيٌّ يوجده العلم أو يوجد هو العمل الإنسانيَّ العظيم، فإنْ لم يكن علمٌ صــحيحٌ، ولا عملٌ صــحيحٌ، فاجمع بين الماء والنَّار قبل أن تجمع بــين النَّفس والعظمة، وقــد أرى الرجل من عظمائنا وهــو من تعاظمه لغناه أو لمنصــبه أو لجاهه أو لحسبه، كأنَّ رأســه صندوقٌ من صناديق الموسيقى، وكأنَّ كل حركاته وكلماته إنَّما توقيع توقيعاً منتظماً مع (النَّفخة) التي تخرج من هذا الصندوق، ومع ذلك فلا أكرمه ولا أجدُ له في نفسي من المنزلة، ولا أحفلُ بتلك العناصر الأربعة التي أنشأت عظمة من الغنى أو المنصب والجاه والحَسَــب، إلا كما يكون في نفســي لبعض قطع من الخشب والحديد والمعدن والنُّحاس، وهي العناصر التي تصنع منها الأدوات الموسيقيَّة.

العظيــمُ ذاتٌ مبنيــةٌ علــى مبــدأ، وما دام كذلــك فهو عظيــمٌ في خلقه وفي عمله، ولا يسـلب هذه العظمة منه إلا الموت، على أن التاريخ يَقْوَى على الموت فيَســتَلِبها منه، ويحفظها لصاحبها العظيم، ثمَّ ينفض عليها صبغة الخلود؛ فإذا هي حياةٌ ثانيةٌ لاســم من الأســماء الخالدة التي لا تموت إلا حين يموت الموت! وإذا كانت الذات مبنيَّةً على مبدأ، فيستحيل أنْ يسقط الرجل العظيم وذاته قائمة.

وعلــى هــذه الجهة أتفاءلُ بمســتقبل جمعيــة الاتِّحاد المباركــة؛ لأنَّها مظهر من مظاهر الأخلاق الفاضــلة في نفوس القائمــين بها؛ فهي بناءٌ من الأبنية الرَّاســخة، ولكن انظر إلى أحجارها الخالدة؛ فــإنَّ كلَّ حجرٍ إنَّما هو المعنى الإنسانيُّ الذي تنطوي عليه نفس الرجل العظيم.

عندنا رجالٌ كثيرون، ولكنْ ليس عندنا مبادئ ثابتةٌ؛ فالذي ينقصنا إنَّما هو المبـدأ، والرجـل إذا لم يكنْ على مبدأ؛ فهو من يوم يولد إلى يوم يموت؛ إنَّما يتسـكَّع في طريق الأقدار ليقطع مسـافة ما بين مهده ولحده، وقد تكون هذه المسـافة طويلةً أو قصـيرةً، ولكنَّها على كل حال، ليست إلا طريقاً من طرق الموت، ثمَّ يذهبُ من الدنيا وكل ما بقى له فيها حجر من الأحجار، إذا وُجد مَن ينظر فيه؛ وُجد مَن يعرف أنَّه كان في هذه الدنيا رجلٌ اسمه فلانٌ وهذا قبره.

الحياة شـيءٌ أسـمى من قطع العمر كلـه في إيجاد قبر مـن القبور يكون له اسمٌ ولقبٌ وتاريخٌ، كلَّ منا حين يَعْتَزِي[1] يقول عن نفسه كذباً: إنَّه سوريٌّ أو مصريٌّ؛ فما الذي صنع هذا القائل لمصر أو سوريا؟!

ألا إنَّ البلاد لا تعرف النَّاس بأسـمائهم، وطبيعة الإقليم لا تميز بين أناسها وحيواناتهـا؛ فمـن الحمير والبغال وصـنوف الحيـوان ما يُقال فيه سـوريٌّ ومصـريٌّ أيضـاً، ولكن الأوطان تعرف أهلها بأعمالهـم؛ وطبقة الفرق بين الإنسان والحيوان إنَّما هي طبقة تاريخه لا غير.

قولوا في الشرقيِّ على العموم إنَّه من بني آدم فقط، ومتى وجدتم رجل المبدأ الذي يظهر مبدأه في عمله والذي لا يعمل إلا ليُتِمَّ تاريخ أُمَّته، وليكون صفحةً مـن كتاب مسـتقبلها، والـذي لا يخرج مـن الدنيا حتى يترك من فضـائله المنسـوبة إليه شخصاً معنويّاً يُسمَّى باسـمه، ويُلقَّب بلقبه، ويؤرّخ بتاريخه؛ متى وجدتم هذا الرجل؛ فقولوا فيه حينئذٍ؛ بل دعوا بلاده تقول: إنَّه مصريٌّ أو سوريٌّ.

مـن أكبر عيوبنا أنَّنا لا نعرف الخلق العـام الذي يُجانس بين أفراد كلِّ أمة،

---

(1) يَنْتَسِب.

ولا نجـده إلا في أفـراد قليلين منَّا، وهو الذي تقوم عليـه الوطنيَّة، ومن أجل ذلك، ليست لنا أمَّة اجتماعيَّة، ومن أجل ذلك لا نتحد.

فَقَدْنا الخُلُق العام أو المبدأ الاجتماعيَّ الذي يرمي لإنشـاء المستقبل، وترقية الحاضـر، وحفظ الماضـي، فصـارت الصِّـلة بين الفـرد والفرد مـن الأمَّة الواحدة، صلةً لفظيةً لا معنى لها.

أو لستم ترون أنَّنا -كما هو مشهور عنَّا- يُرائي بعضنا بعضًا حتى في الحقِّ، ويُجامل بعضـنا بعضًـا حتى في الواجب، وليس منَّا من يقدر أنْ يقول دائماً للباطل «لا» وللحق «نعم»؟!

أقولُ «دائماً»، ولا أُريد معناها الصَّحيح؛ لأنَّ قيمة كل شيءٍ تعلو وتنزل عندنا بحسـب الأحوال حتى الكلمات التـي لا تعلو ولا تنزل، فإنْ شـئتم، فاعتبروا معنـى قولي «دائمـاً» غالبـاً أو بعض الأحيان؛ لأنَّ الشـرقيَّ قـد فَقَدَ الخُلُق الثابت؛ فلا ثبات له على شيءٍ، ولا ثبات بشيءٍ معه.

ولـولا أنَّ أسـماء الفضـائل مـن اللغـة، وأنَّ هذه اللُّغـة ثابتـة في كتبها التي تحفظها، لكانت أكثر أسماء الفضائل اليوم عندنا هي نفس أسماء الرَّذائل!

انظـروا إلى الرَّجل الإنكليـزيِّ الذي هو نتيجة التاريخ الحاضـر: إنَّه لا يثق بثلاثـة أربـاع الأرض التي تملكهـا دولته، كما يثـق بقدر أنملـة في باطنه، فالأرض كلها وهي تدور على محورها، وتتقلَّب بالتَّاريخ أجيالاً ودُولاً، ليسـت في عين الإنكليزيِّ أكبر من قلبه الذي يخفق بين جنبيه، والأرض لا تحفظ له فضيلةً؛ ولكن فضيلته تحفظ له الأرض.

كل إنكليزيٍّ قد يراه النَّاس مصـبوباً من معادن بلاده حتى الفحم الأسـود؛ ولكنه يرى نفسه إنكليزيّاً، ولا يُبالي ما وراء ذلك، ترونه كالحديد المُصمت لا ينبعث له صـدى؛ لأنَّه للعمل والحِمْل والثَّبات والاستمرار، وإذا كان الشَّرقيُّ

حديداً أيضـاً؛ فهو كالجرس سـواء كان في الأعلى أم في الأسفل، ليس إلا أن يهتز ويصيح بالأصوات الرَّنَّانة من جوفه الفارغ.

يعمـل الواحد منَّا عملاً ضـئيلاً، أو عمـلاً لا قيمة له، فيمـلأ الدُّنيا كلاماً، ويملأ ماضِـغَيْه فخراً، ويملأ رأسـه بهذا النَّوع الذي يُسمُّونه جنون العَظَمَة، ومـا ذلك مـن جهلنا لقيمـة كلِّ عملٍ؛ ولكن مـن عجزنا عن أكـثر الأعمال النَّافعة، ومن مجازفتنا بالأوصاف رياءً ومجاملةً.

وقد ذكر الروَّاد الذين ضـربوا في مجاهل الأرض أنَّهم رأوا قبيلةً من قبائل الزُّنُوج كان أجمل وسـام تسـطع عليه الشَّـمس في صـدر ملكها علبةً فارغةً من علب السَّـرْدين! هي علبة من علب السَّردين الفارغة التي يطرحها أفقر النَّاسـ في الطُّرُقـات، وهي قطعةٌ من الصَّـفيح قد لا تكون لهـا قيمة؛ ولكن ذلـك لا يمنعها أنْ تكون وسـاماً في صـدر الملك الزِّنجي، ومتـى قلنا «المَلك الزِّنجـيَّ»؛ فكأنَّنا قلنا «الزِّنجيَّ» فقط؛ لأنَّ أوصـاف المتوحِّشـين متوحِّشـةٌ أيضـاً، فلفظ الزِّنجيِّ يأكل لفظ الملك، وكذلك أوصـاف الضُّـعفاء، وكذلك أعمال الشَّرقيِّين.

لا تظنـوا أنِّي أنتقصـ الشَّـرق وأهله وتاريخـه؛ كلا، ولكنِّي أَصِـفُ عيوباً لا يجعلها من المحاسن أنَّها عيوبنا!

ولو سُئِلُ أفضل رجلٍ شرقيٍّ عن أحسن فضيلة فيه؛ لقال إنَّها شرقيَّة.

ولو سُـئل أرذل رجلٍ شـرقيٍّ عن أقبح رذيلة فيه؛ لقال أيضـاً: إنَّها شـرقيَّة، فهذا الشَّرق الذي هو مهد التَّاريخ، هو كذلك مهد الأديان ومبعث الفضائل؛ لكنَّ أهله قد أضـاعوا أنفسهم وأضـاعوه؛ فإذا رأوا الفضيلة قالوا: غربيَّة، وإذا رأوا الرَّذيلة قالوا: شـرقيَّة، وأحالوا بكل ذنب على الشَّرق، كأنَّ الأرض تُنبـت الرجال، وتُهيئ لهم العمل، وتُوحـي إليهم المخترعات! وكأننا نريد أنْ

تكـون هذه الأرض مثلنا في التَّقليد، فالبحر يهز أمواجه، ويجب على الأرض أنْ تهزَّ أهلها ليتخبَّطوا على ساحل الحياة.

مـا تقدَّم الغربيُّ وجرى مسـرعاً لأنَّ أرضـه من المطَّاط، ولا تأخَّرَ الشـرقيُّ وجرى متعثراً لأنَّ أرضـه من الصَّـمْغ؛ ولكن أكبر رذائلنا أنَّنا لا نتحد؛ لأنَّنا نجهل التَّربية الاجتماعيَّة، وقد تخلَّقنا بالأخلاق الفرديَّة؛ فصـار الأَلْفُ منَّا وأكثر من الألْفِ لا يُحسنون عمل اثنين مُتَّحدَيْن!

الجبل تصـعد عليه مائة قدم شـديدة الوطأة فلا تؤثر فيه ما تؤثر النَّحلة؛ وتتناولـه مائة ألف سـاعد قويٍّة فتزيله عن مكانـه؛ لأنَّ طبيعة الأقدام غير طبيعة الأيدي، فإنْ لم نجتمع، ونأخذ أنفسـنا بأصـول التَّربية الاجتماعية؛ فلا تنتظروا من الشَّرقيِّ أنْ يعمل عملاً.

المَرْأةُ الشَّرْقِيَّةُ[1]

كان للمرأة الشَّرقيَّة أخلاقٌ تاريخيّةٌ تركَتها، فيها عِزة الملك، فبطلت وبطل معها أدبٌ وجدٌّ ووقارٌ، وذهب بها ما لا يستخلف، وكان فيها أخلاقٌ دينيَّةٌ كريمةٌ ففسدت، وحصل من فسادها ما لا ينتهي سخفُهُ، ولا ينتهي العجبُ منه!

وبهذه وتلك مرض باطنها وظاهرها، فهي إلى النَّاس وليست شيئاً، وهي إلى نفسها وليست شيئاً، وصارت مع الرَّجل طبيعة متسلِّطةً على طبيعة أكثر ممَّا هي نوع يُتمِّم نوعاً آخر.

وعندي أنَّه لولا حفاظ الرَّجل الشَّرقيِّ وحميته ديناً وطبيعةً، ولولا حجاب هذه المرأة دهراً طويلاً؛ لانقطعت بها العصْمة، ولما بقيت لها البقيَّة الصَّالحة التي لا تزال ترثها وتورِّثها من تصنُّع الحياء وخلق العفَّة وفطرة الدِّين.

فالرَّجل الشَّرقيُّ هو أوجد هذه الأخلاق، وهو حفظها وأحسن القيام عليها؛ وما كان الحجاب مضروباً على المرأة نفسها؛ بل على حدود من الأخلاق أنْ تُجاوز مقدارها أو يُخالطها السُّوء أو يتدسَّس إليها، فكلُّ ما أدّى إلى هذه الغاية فهو حجابٌ، ولن يؤدِّي إليها شيءٌ إلَّا أنْ تكون المرأةُ امرأةً في دائرة بيتها، ثمَّ إنساناً فقط وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعاني.

---

(1) مجلة الهلال، السَّنة الثَّالثة والثَّلاثون، العدد 3، 4 جمادى الأولى 1343 هـ = 1 ديسمبر 1924م، ص 250–252. وأصل هذه المقالة استفتاء أجرته المجلة بدءاً من السَّنة الثَّالثة والثَّلاثين، الجزء الأول، 2 ربيع الأول 1343هـ = أول أكتوبر 1924م، ص 49، حول المرأة الشَّرقيَّة واستكتبت له الرَّافعيَّ، وأمين الرَّيحانيَّ، وعبَّاس محمود العقَّاد، وجميل صدقي الزَّهاوي... وغيرهم من النُّخبة آنذاك، وقد وجَّه المحرِّر إليهم سؤالين، هما:

ماذا يحسن أن تستبقي من أخلاقها التقليديَّة؟

وماذا يحسن أن تقتبس من شقيقتها الغربيَّة؟

ثم إنه فكر في ضمِّ هذه المقالة بعد ستِّ سنوات إلى كتابه الشَّهير «وحي القلم» إلا أنه لم يجده؛ فأخذ يلتمسه عند محمود أبوريَّة الذي كان يجمع مقالاته بالمنصورة؛ فأرسل إليه رسالةً مؤرَّخة في 5 يناير 1930م. راجع: رسائل الرَّافعيِّ لمحمود أبو ريَّة، رسالة رقم 171، ص 165.

فـإذا تبدَّلت أخلاق الرَّجل الشَّـرقيِّ، وتحوَّلت أخلاق المرأة الشَّـرقيَّة؛ فهو غالبٌ على أمرها؛ وإنَّما تتطرَّق الرِّيبة إلى مذاهبها من مذاهبه، ويرى قومٌ منَّا بعد أنْ فتنتهم المدنيَّة الغربيَّة كيف تصـير نساؤهم؛ وإنّي لأعرف رجلاً متعلِّماً أديباً أسـلس لامرأته الشَّرقيَّة زِمام أمرها، وجعل يبصِّرُها منذ بنى بهـا أنَّ هذا الحجاب ريبـةٌ وتهمةٌ، ينهاها عن أخلاق نسـائها، ويردُّها عمَّا نشـأت عليه، واختطَّ لها أسـاليب، وزيَّن لها ما شـاء لتخـرج في زعمه على أخلاقها (الشَّرقيَّة التقليديَّة)؛ فلما خرجت من هذه الأخلاق؛ كانت طاعته أوَّل مـا خرجـت منه، ثمَّ تمادت والْتَوَتْ به في كلِّ ناحيةٍ حتى اسـتطارت فيه آخراً كاللَّهب الأحمر.

ولقـد قـال بلسـانه: «والله ما شـقي زوجٌ بزوجهِ ما شـقيتُ بهـا»؛ فقُلتُ له: «ولعلَّـك تـودُّ الآن بجَدْع أنفـك لو أنَّ الحجاب جدارٌ من الطُّوب تلبسـه هذه المـرأة إذا بَـرَزَتْ، وثمانيةُ جدرانٍ من الحَجَر تسـتقرُّ فيها إذا اسـتَتَرَتْ؟»؛ قال: «ليت، وهل ينفعُ شيئاً ليت؟!».

يحسُـنُ بالمرأة الشَّرقيَّة ألا تحاول تبريد الشَّمس في هذا الشَّرق، وأنْ تعرف أوَّل مـا تعـرف فرق ما بينهـا وبين الغربيَّـة فيما جعلته الطبيعـة والأخلاق والأمزجـة فرقـاً، إذْ لا يُفيدها أنْ تبلغ ما تبلغ في علم العالم وتجهل نفسـها وموضع نفسها.

فـإذا هي عرفت ذلـك وحقَّقَتْه لم يُغرّهـا أنَّ تقليد المرأة الغربيَّة أسـهل في مأتاه ومأخذه، مما تعانيه هي من أخلاق الفضيلة الشَّرقيَّة التي رُكِّبت عليها وسوِّيت لها.

فالـذي يجـب أنْ تحتفـظ به الشَّـرقيَّات ثـلاثٌ: الحيـاء الصَّـادق، والعفَّة الصـحيحة، والخضـوع الجميل الذي هو مظهر الحبِّ لمَـن يجب له الحبُّ،

وهذه الأخلاق لا تقوم إلّا بثلاث أخرى: تصاوُنُ المرأة عن مخالطة الرِّجال إلَّا فيْ ضرورة ماسّة، وحرصُها أشدَّ الحرص على دينها كائناً ما كان، والصَّبر أقوى الصَّبر على (مَكارِه البيت)، فتلك ستَّةٌ إنْ هي أهملَتْها، أو تهاونتْ فيها؛ فإنَّ ذلك يكون من أعظم السَّبب فيْ بوارِ النِّساء الشَّرقيَّات وكسادهنَّ، ثمَّ ما يتولّد من ذلك ويحدث من ورائه، ثمَّ تهوي صخرة الاجتماع الشَّرقيِّ أول ما تهوي على رأس المرأة بنفسها!

***

أمَّا ما يحسن أنْ يقتبسه نساؤنا من المرأة الغربيَّة؛ فالعلم وحده ما هو من نتائجه كالتدبير، والحزم، والبصر بأمور الحياة، وحُسْنِ التصرُّف فيها، وما كانت الشَّرقيَّة فيْ حاجة إلى هذا من قبل؛ بل إنَّ عليها أنْ تقتبس من تاريخها لا من المرأة الغربيَّة.

روى المُبرِّد قال: حدَّثني الجاحظ عن إبراهيم بن السنديِّ أنَّ هاشميَّةً جاريةً حمدونةً كانت تصير إليه فيْ حاجات صاحبتها، وقال: فأجمعُ لها نفسي، وأطرُدُ الخواطر عن فكري، وأُحضِّرُ ذهني وجهدي خوفاً من أنْ توردَ عليَّ ما لا أفهمه لبعد غورها واقتدارها على أنْ تُجري على لسانها ما فيْ قلبها. قال المُبرِّد: وكذلك ما يُؤثر عن (خالصة) و(عتبة) جاريتيْ ريطة بنت أبي العبَّاس -وهذا فيْ الجواري- فأمَّا نساء الأشراف فالقول فيهنَّ متَّسع.[1]

وإبراهيم بن السندي الذي يهاب الجارية هذه الهيبة ويستجمع لها على تلك الحالة، هو الوزير الذي وصفه الجاحظ فيْ بعض رسائله فقال: كان فخم الألفاظ، فخم المعاني، لو قلت إنَّ لسانه أردُّ على الملك من عشرة آلاف سيفٍ شهير وسنانٍ طرير؛ لكان ذلك قولاً ومذهباً.

---

(1) انظر كتاب الكامل فيْ اللغة والأدب للمبرد 4/40، وفيْ الخبر: «هاشمية جارية حمدونة».

وكلّ فضيلة المرأة الغربيَّة عندي هي معرفة فنِّ الحياة المنزليَّة على أحسن أشكاله، وعلى أرقى ما انتهى إليه من إنشاء المرأة للبيت، ثمَّ إنشاء البيت للأسرة، ثمَّ إنشاء الأسرة للوطن. فكلُّ ما كان من هذا المعنى؛ فلتأخذه نساؤنا علماً، أو عملاً، أو نظاماً، وهو أمرٌ ليس خاصّاً بالغربيَّة؛ بل هو حقيقة الإنسانيَّة في هذه الأنوثة إذا أُريد بها النَّمَط الأعلى من كمالها.

أمَّا ما وراء ذلك من التبرُّج والسَّفَه والإسراف وفنون اللهو بين الجنسين وصناعة الحياة النِّسائيَّة صنعة غير طبيعيَّة واعتبار سلطانة البيت سلطانة الشارع، أو سلطانة البيت حين يكون كالشَّارع... إلخ؛ فهذا ونحوه لستُ أرى فيه رأياً إلّا أنَّ الشَّرقيَّة يجب أن تبقى شرقيَّةً خالصةً، فإنَّ الشَّرق في أشدِّ الحاجة إلى من يردُّ قوَّته عليه، وإلى من يعاني له أسباب القوَّة، وهي دائماً أسبابٌ خشنةٌ في جملتها؛ وإنَّ من الوسائل التي تبني المرأة الغربيَّة في هذا العصر؛ ما إذا نقل إلى الشَّرق أبطل أقوى الوسائل التي تبني المرأة الشَّرقيَّة، فجعلها بذلك لا تَصلح أنْ تُبنى، وجعلها بعد ذلك لا تصلح إلَّا أنْ تُهدم.

الطَّلبة والامتحانات [1]

اشـتَرطتْ وزارة المعـارف ألَّا يَجوزَ طالبٌ في امتحان آخر السَّـنة إلا بعد أنْ تُحسب الدَّرجات التي أحرزها في امتحانات نصف السَّنة؛ فإذا تخلَّف طالبٌ في هـذا الامتحان لخمس درجـات (...) [2] في اللُّغة الإنجليزية مثلاً؛ وجب ألا يُعدَّ ناجحاً في الامتحان الأخير إلَّا بشرطِ أنْ يكون قد أحرز عشر درجاتٍ فـوق درجة القبول، ودرجـة القبول هذه هي (16) فـلا ينجح ذلك الطَّالبُ إلا إذا نـال (21)؛ لأنَّـه مديـنٌ لـوزارة المعارف بخمس درجاتٍ من نصـف السَّـنة، وهذا على حين يُعدُّ غيره ناجحاً إذا نال في هذه اللُّغة (16) ما دام لم يتخلَّف من قبل.

فتلميـذٌ ينال في اللُّغة الإنجليزية عشـرين درجةً ولا ينجـح، وآخر ينال فيها سـتَّ عشْـرة درجةً ويكون ناجحاً وهمـا في امتحانٍ واحد والأسـئلة واحدةٌ، ولكنَّ أحدهما مَدينٌ؛ فهو في حكم المُفْلِس حتى يوفِّيَ ما عليه.

ومـا ندري في أيِّ شـرع به مثل هذا الدَّين واجـب الأداء قليلاً إنْ كان قليلاً، وكثيراً إنْ كان كثيراً؛ بحيث لا يُترخَّص منه في درجةٍ ولا في نصف درجةٍ.

نحن نُنزِّه الوزارة أشـدَّ التَّنزيه في عهد الأسـتاذ الكبير علي باشـا ماهر أنْ ترمي بمثل هذا العمل إلى إيقاع النَّفرة والبغضاء في نفوس أبنائنا وتُفسدهم علينـا وعليهم؛ فإنَّهم يُصـرِّحون منـذ اليوم أنَّهم مُرهقـون، وأنَّ الوزارة لا تُريد بهم خيراً، وهم يجعلون ذلك عذراً عند آبائهم وأوليائهم، ويقولون إذا كانت الوزارة تعمل على ألَّا ننجح فكيف نعمل نحن على أنْ ننجح؟!

(1) الأهرام، العدد (14680) بتاريخ 27 مايو 1925م.

(2) مطموسةٌ في الأصل.

ولستُ أدري –والله– أهو يوم امتحانٍ أم هو الصِّراط والميزان؟! ويومٌ كيوم القيامة لا يكون الحساب فيه إلا على أساسٍ مما مضى مثقال ذرةٍ بمثقال ذرةٍ، وذوقوا ما كنتم تكسبون.

على أنَّ من البديهيِّ أنَّ درجات امتحان نصف السَّنة إنَّما قُدِّرت على قدر علم الطالب بالمواد التي درسها في نصف سنة، فلا يجوز عدلاً أن يكون لهذه الدَّرجات أيُّ شأنٍ في امتحان آخر السَّنة إلا إذا كان امتحان آخر السَّنة مقصوراً على ما درسه الطَّالب في المدة التي بين الامتحانين، وحينئذ تُضمُّ درجات نصف السَّنة الأولى على درجات نصفها الآخر؛ ولكنَّ الوزارة لا تفعل ذلك؛ بل تختبر الطَّلبة في دروس السَّنة كلها، وهذا هو الذي يجعل الرُّجوع إلى درجات الامتحان الأوَّل شرطاً ظاهر التعسُّف لا يُقره إنصافٌ ولا عدلٌ، وبخاصة إذا لم تشترطه الوزارة من أول السَّنة؛ بل فاجأت به الطَّلبة مفاجأةً قبل الامتحان بقليلٍ، وبالأخصِّ إذا أضفنا إلى هذين الاعتبارين أنَّ الوزارة مع هذا كله قرَّرت إلغاء الامتحانات الملحقة التي كانت توسعةً على بعض الطَّلبة المُجدِّين الأذكياء؛ فالأمر من هذه الجهات الثلاث أشبه بالحصار خطاً وراء خطٍ وراء خطٍ.

لقد يئس معظم الطَّلبة من كل وسائلهم إلى الفوز، وبطلت عندهم جميع مقدِّمات النَّجاح، وأصبحوا لا يرقبون يوم الامتحان؛ ولكن يوم الصَّيْحة.

وزارة المعارف أوسع صدراً وأرجح أناةً، وأعظم عدلاً وأكبر إنصافاً من أنْ تريد بهم شرّاً ولا رهقاً ولا ظلماً.

لو أنَّه لم يكن في العدل أملٌ لكان الأملُ في هذا الرَّجل العظيم العادل علي ماهر باشا؛ فنحن في انتظار كلمته التي بها تطمئنُّ القلوب.

إنباءُ الهواتِف(1)

سيِّدي الأستاذ الجليل صاحب المقتطف الأغرِّ

في ليل الخميس 21 من شهر رمضان لهذه السَّنة (19 يونيو) بعد العشاء الآخرة تَوفَّى الله الأستاذَ الفقيه الورع سيِّدي الوالد الشَّيخ عبد الرزاق الرَّافعيِّ، وكان من قبلُ رئيسَ القضاة الشَّرعيِّين في أكبر مديريات الوجهَيْن القبليِّ والبحريِّ من هذه البلاد، ثمَّ ترك ذلك وأقبل على الله، وأرجو أن يكون قد ملأ يديه من زاد الآخرة.

وقد حدثت لوفاته عجيبةٌ من عجائب الدُّنيا نريد رأيكم فيها، فإنَّ لنا أختاً كانت بمدينة الجيزة فلمَّا وقع أمر الله أجمعنا أنْ نبعث إليها رسولاً يأتي بها، ثمَّ أنفذناهُ في القِطَار الذي فصل من طنطا في مطلع الفجر، ففي ذلك الوقت بعد أن فرغت السَّيدة من صلاة الفجر، ولم يكن عندها خبرٌ عن أبيها إلا أنَّه في عافية من الله، ولا علمت علماً يهيئ في ذهنها طريقاً إلى الظَّنِّ بما وقع؛ ذهبتْ إلى مضجعها؛ فلم تكد تضع جنبها حتى قرع مسمعها صوتٌ يقول: «أبوكِ مات»، وكانت لم تغفُ بعدُ، ولا أنكرت من نفسها شيئاً؛ ففزعت لذلك ثمَّ غلبتها الثِّقة بما كانت تعرف من عافية أبيها وأنَّهُ لو نزل به شيءٌ لبعَثْنَا إليها على البرق، وهي لا تتخيَّل ولا سلطان للوهم عليها، وكانت قد تعبت من السَّهَر (شهر رمضان)؛ فجاءها كلُّ ذلك بالنَّوم.

فلما قد بلغهم رسولنا وقد امتدَّ الصُّبح؛ أنبأ زوجها وهو من فضلاء الأساتذة؛ فذهب ليوقظها، وعلى أنَّ ذلك ليس أمراً عجيباً فإنَّها ما كادت تنتبه لدعائه حتى سألتهُ: هل مات أبي؟!

(1) المقتطف، باب المراسلة والمناظرة، أغسطس 1919، ص 166 وما بعدها.

فعجب لذلك وأشفق من المفاجأة؛ فذهب يُدافعها عن هذا الخاطر فلم يصنع شيئاً لإقناعها، فأراد أنْ يمشي بالخبر الأليم هَوْناً ما؛ فقال: هو لم يمتْ؛ ولكنَّه مريضٌ؛ قالت: كلاَّ، لم يمرض ولكنَّه مات، ونبَّأته بما هتف بها. ولم يقع لأختنا قبل هذه المرَّة أنْ سمعت هاتفاً أو تخيَّلت أنَّها تسمع، ولا أراها تعلم من أمر الهواتف شيئاً.

ولستُ أُنكر أنَّ بعض ما نقرأُ عنه من هذه الهواتف يرجع –إنْ صحَّت الرِّواية– إلى المبالغة في خطأ الحسِّ أو خطأ الوهْم وخاصة في ما زعموه من أخبار الجاهليَّة كما أشرتُ إلى ذلك في الجزء الأول من (تاريخ آداب العرب)؛ ولكن ما تقولون في ما نحن بصدده وهو واقعٌ لا ريب فيه؟!

وقد ورد أنَّه لما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعوا قائلاً يقول من جوف البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه: «إنَّ في الله خَلَفاً من كلِّ هالك، وعِوضاً من كلِّ فائت، وإن المُصابَ من حُرِم الثَّوابَ»، إلى أشباه لذلك كثيرة لا محلَّ لنقلها هنا ولا تعليلها بما تؤمن به؛ فإنَّنا تلقاء مذهبٍ كمذهب ذلك الذي قال: «لا أُصدِّق حتى أضع إصبعي...»[1]

---

(1) كتب صاحب المقتطف ردّاً على هذه الرِّسالة: «نرجح أنَّ أختكم سمعت صوت الرَّسول يخبر زوجها بوفاة والدها وهي نائمة بعض النَّوم، أي بعض حواسها نائمٌ وبعضها مستيقظٌ، فكانت تسمع مثلاً وتعي ما تسمعه؛ ولكنَّها لا تدرك أنَّها سمعتهُ سمعاً؛ بل تحسبهُ حلماً حلمت به؛ أما حسبانها أنَّها حلمت ذلك الحلم أو سمعت ذلك الهاتف بُعَيْد صلاة الفجر لا حين وصل النَّاعي فمن خطأ الحكم في الزَّمان؛ لأنَّ النَّائم تتعذَّر عليه معرفة الزَّمن. وهناك تعليلٌ آخر يقول به البعض؛ وهو أنَّ روح الميِّت أو روحاً أخرى انتقلت من طنطا إلى الجيزة وأخبرت ابنة الميِّت بما حدث؛ لكنَّ نواميس هذا الكون تجري على سنن واحد، فإذا كانت الرُّوح تنتقل وتخبر إحدى بنات الميِّت فينتظر أنْ تنتقل وتخبر كلَّ بناته وأبنائه، وأنْ تنتقل روح كلِّ ميِّت وتخبر ذوي قرباهُ أو بعضهم؛ ولعلكم أمعنتم النَّظر في التَّعليلين ترون أولهما أقرب إلى العقل التي عرفتها؛ ولكنَّه أقوى منها كلها في هذه الخاصيَّة، فجدير بالدارسين من إخواننا الزِّراعيِّين أن يجروا معارفهم النَّظرية مجرى العمل مع التَّفنُّن والتوسُّع بالتَّجربة والاختبار». راجع نفس المصدر السابق، ص 167 وما بعدها. والعبارة الأخيرة مقتبسةٌ من الكتاب المقدَّس حيث وردت على لسان توما: «إنْ لم أبصر في يديه أثر المسامير، وأضع أصبعي في أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه؛ لا أؤمن» (يوحنا 25:20).

حقيقةُ الهاتف[1]

سيِّدي الأستاذ العلَّامة الجليل..

قلتم في ما بيَّنتم من أمر الهاتف الذي سُقْتُ خبره في مقتطف الشَّهر الغابر، وأنَّه هتف بأختنا في مدينة الجيزة يُنبئها موت الأستاذ الوالد -رحمه الله- أنَّكم تُرجِّحون أنَّ أختنا سمعت صوت الرَّسول يُخبر زوجها بوفاة والدها، وكانت في منزلة بين النَّوم واليقظة؛ فاشتبه عليها ما سمعت، وأجرَته مجرى الحلم؛ ومن ثمَّ أخطأت الحكم في تعيين الزَّمن الذي سمعتْ فيه الصَّوت وحسبتهُ كان بعد صلاة الفجر إلخ.. ولقد يكون ذلك وجيهاً لو أنَّ الحادثة تقبل التَّأويل في مساقها، أو تحتمل أنْ يضطرب فيها قولان؛ غير أنَّها نصٌّ يتعيَّن أنْ يمضي على وجههِ ويستقيم على حقيقتهِ؛ فإنَّ السَّيِّدة صلَّت الفجر وميقاته معروفٌ، ثمَّ انتقلت إلى مضجعها ولا يتجاوز ذلك منتصف السَّاعة الرَّابعة صباحاً؛ فلم يكد يطمئن جنبها حتى سمعت الصَّوت يهتف بها «أبوك مات»؛ فانتفضت جالسةً تتأمَّل وتَعي؛ وإنَّما هو هَمٌّ أَهَمَّها، وخليقٌ بها أنْ تكون قد ضاقت بما ورد عليها منه، وأنْ تفزع فيه إلى وعيها وانتباهها فتؤامر نفسها في مَرَدِّهِ ومأتاهُ حتى يتبيَّن لها حقُّهُ وباطلهُ، وكلَّ ذلك قد فَعَلَت، ثمَّ غلبَتْها الثِّقة، وظاهَرَتْها أدلَّةُ نفسها؛ فحسبت الصَّوت أمرًاً شُبِّه لها، وظنَّتهُ باطلاً من الباطل؛ فاطمأنَّتْ لذلك إلى ذلك، ووجد النَّوم من اطمئنانها سبيلاً. وإنَّ امرأً يعتدل من ضجعته فيستوي جالساً، ثمَّ يفكر ويتدبَّر ويعترض أقاويل نفسه يضرب زعماً بحجَّة، ويدفع ظنًّا بيقينٍ، ويمرُّ في ذلك حتى ينتهي إلى مقطع من الحقِّ، ويقفُ على مطمئِّنٍ من الرَّأي فينام عندئذٍ وقد تعيَّنت السَّاعةُ له بميقاتٍ معروفٍ وهو صلاةُ الفجر، ثمَّ

(1) المقتطف، باب المراسلة والمناظرة، سبتمبر 1919، ص 248 وما بعدها.

ينتبه والنَّهار عند سابعته لا يُمكنه أبداً أنْ يخلط هذه وتلك، ولا أنْ يخالجهُ الشَّكُّ في أنْ يكون الفجر فجراً والصُّبح صبحاً إلا إذا أمكن أنْ يكون قد نام في نومه، وحلم أنَّه صلَّى الفجر وسقطت بذلك عنه الفريضة فلم يَقْضها، ومهما ينسَ مثل هذا؛ فلا ينسى قرائن الحادثة وهي شهودٌ يذكر بعضها بعضاً، وما يثبت في الذِّهن شيءٌ كالذي تذكِّر به قرائنه.

وذكرتم تعليلاً آخر قلتم فيه إنَّ بعضهم يذهب إلى أنَّ روحاً ما هي صاحبة الصوت، ثمَّ استدركتم عليه بأنَّ نواميس الكون تجري على سَنَنٍ واحد؛ فينتظر أنْ تذهب روحُ كلِّ ميِّت فتخبر ذوي قرباه أو بعضهم، ولقد كان يلزم ذلك أو ينتظر لو أنَّ كلَّ روحٍ ككلِّ روح وكلَّ ميِّت فإنَّما هو يموت على ما قُبض عليه سواهُ، وكيف ذلكً والأعمالً مختلفةٌ والضَّمائر بحسبها والدُّنيا مزرعةُ الآخرة، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[2] على أنَّ الأرواح لو أتى لها أنْ تفعل ذلك وأنْ تجتمع على إنشاء مصلحة تلغراف؛ لفعلت غيره وغيره؛ فيوشك أنْ ينكشف الغيب من جهاته فإذا هو شهادةٌ، وإذاً لسقطت الأديان القائمة على الإيمان بالغيب ولبطلت حكمة الوضع الإلهي ولتدافن النَّاس يَقبُرُ بعضهم بعضاً؛ لأنَّ أحداً يومئذ لا يحتمل تكاليف هذه الحياة في خيرها وشرِّها، ويكون بطنُ الأرض خيراً من بطنِ الأمِّ.

إنَّما يقع مثل هذا الهاتف في النَّدرة والفلتة لأمرٍ من أمر الله ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[3]، وما تُشير إليه هذه الآية الكريمة هو رأي هذا الضَّعيف وما بنا عن رأي الأستاذ الجليل غنًى، وقد سُقْتُ الحادثة على وجهها ورأيُهُ الموفَّق إنْ شاء الله.

(2) سورة الإسراء/ 21

(3) سورة مريم/ 64

الطَّيْف في الحلم[1]

سيدي الأستاذ الجليل صاحب المقتطف الأَغَرِّ...

نشـــرتم في جزئَيْ شهر ســبتمبر وأكتوبر لسنة 1919م من المقتطف ما بعثتُ به إليكم من نبأ الهاتف الذي هتف بأختنا وهي في مدينة الجيزة ينعي إليها الشَّـيخ التَّقيُّ الوَرِعُ ســيِّدي الأســتاذ الوالد -رحمة الله عليه- في اللَّيلة التي لحق فيها بربِّه إذْ تُوُفِّيَ بمدينتنا هذه طنطا، ولقد وقع في بيتنا بالأمس ما هو أعجب في باب النَّظر من ذلك الهاتف في باب السَّـمع؛ بل ما لا يكاد يُصـدَّق لولا أنَّه حقٌّ واقعٌ، فإنَّ أصـغرَ إخوتي -وهو في الحادية والعشـرين من سِنِّه ومن المتقدِّمين لامتحان البكالوريا- قد تأرَّق في السَّـاعة الثَّانية من صـباح يوم السَّبت 20 مارس شهرنا هذا، ووجد في نفسه ضِيقاً، وفي صدره حَرَجاً، وفي جوفه ظمأً من حَرِّ الغرفة التي هو فيها؛ فقام إلى الماء فشرب، ثمَّ انقلب إلى مضـجعه فاطمأنَّ فيه، وأخرج رأســه من الكِلَّة[2] يســتروحُ إلى الهواء، وكانت الغرفة التي أمامه قد تُرك مصباحها مضيئاً على غير العادة واكفُئَ بابُها إلا فرجةً بين مصراعيه تمجُّ رشاشاً من الضَّوء، فبينما هو ساكنٌ إلى حاله تلك إذْ ســمع في جوف اللَّيل قرعاً على البلاط فأنصــت مستوفزاً، ولم يكد يســتجمع حتى أبصر بعينَيْ رأسه أباه مقبلاً على الغرفة وفي يده عصاهُ ينقلها على الأرض كما كان يصــنع إذْ يمشــي في حياته، فلمَّا صار قريباً من الباب نظر إليه مبتسماً، ثمَّ أخذ ميسرَةً إلى غرفة أخرى.

قال فاقشــعر جســمه، وتلجلــج لســانهُ، وأخذته رجفــةٌ، وجعل يتلــو آياً من القــرآن، ثمَّ وثب إلى مفتاح الكهرباء فأطلـق النُّور ولبث لا يغتمض له جفنٌ حتَّى انطفأت مصابيح اللَّيل في الأرض والسَّماء.

---

(1) المقتطف، باب المراسلة والمناظرة، مايو 1920، ص 447.

(2) سترٌ رقيق مُثَقَّبٌ يُتَوَقَّى به من البعوض وغيرِه، والجمع: كِلَلٌ.

ولقـد رأى أبـاه -رحمـة الله عليه- في ثياب مـن ثيابه التي كان يلبسـها في حياتـه، ولم ينكر منه شـيئاً؛ إلا أنَّ نـوراً خفيفاً يُقبل مـن وجهه فيلقي على ناظره هيبةً ليست من هذه الدُّنيا، فما رأيُ أستاذنا في هذه المكاشفة؟![1]

(1) جاء ردُّ المقتطف على هذا النَّحو: «لهذه الحادثة أمثال كثيرة يرويها الرُّواة عن أناس تُوفُّوا حديثاً، وعن أناس تُوفُّوا منذ عهدٍ طويلٍ وهي تفسَّر على أسلوبٍ من أسلوبين، الأول: أن يكون الميِّت -ولا سيما البالي- قد جمع عناصر جسمه من التُّراب، والسُّحب التي طار إليها بخار الماء منه، ومن الدُّود الذي أكل لحمه، ومن جذور الأشـجار التي وصـلت إلى رمَّته، ومن فضـلات ثيابه البالية، وإن كان له عصـاً وحُرقت بعد موته فمن عناصـرها التي تبدَّدت في الخلاء وعاد جسـماً سـويّاً ليراه النَّائم ولو كان مستيقظاً، هذا هو الأسـلوب الأول. والأسـلوب الثَّاني أن تكون مخيلة النَّائم لا تزال شـديدة الانتبـاه إلى ما في دماغه من الصُّورة والقوَّة الحاكمة التي تصلح خطأها لا تزال خاملة؛ فيعتقد أنَّ الصُّورة التي تذكرها هي شخص حقيقـيٌّ، ولا تصـلح القوَّة الحاكمة اعتقـاده هذا؛ لأنَّها تكون نائمـةً أو خاملةً، ولولا هـذه القوَّة لاعتقد الإنسـان صحة كلِّ هواجسه، أما نحن فعقلنا لا يُسلِّم إلا بصـحَّة التَّفسير الثَّاني». انظر المرجع السَّابق ص 447 وما بعدها.

مِصْبَاحُ الكَهْرُبَاءِ[1]

ما هذا؟!

صرف الله عنك شدَّة البياض في غير الأعراض، أسئمتَ اللَّيلَ فأذريته صُبحاً وأوريتَه قَدْحاً؟! أم زهدتَ في السَّواد، لغير الحِداد؟! وللعيون والأهداب، لا للفنون والآداب، فأطلعت من سقفك الكواكب تتألَّق، كالعيون السَّواكب تتدفَّق، وأعفت تلك المصابيح، وهي كالحظِّ تميل مع الرِّيح، فإنْ كنتَ أشفقتَ أنْ تطول ألسنتها فتسود عرض الحائط، فإنَّ قطع اللِّسان، يكون بالإحسان لا بالهجران، وما الذي جنته -عفا الله عنك- حتَّى تجفِّفَ من الهجر لَهَوَاتها[2]، وتأخذَها بغير هفواتها، وتطرَحَها جانباً، وتنأى عنها مغاضباً؛ فلا كلمة مواساة تُطفئ من لوعتها، ولا نفخةً من صدرك لصدرها تخفِّف من حرِّها.

ولا عناية من أمرك بأمرها، تجبُرُ من كسرها، وهل عمي اللَّيل وسألك العلاج، فصنعت له أعيناً من زجاج؟! أم سألَكَ النَّاس آيةً تخرق العادة؛ فمثَّلت لهم بعد الغروب الشُّروق؟!

أم انتجع غيثك بعض المجدبين فخيَّلتَ له البُروق؟! وما أشك أنَّك أمسيت تحاول تجزئة القمر، فتكون منك لكلِ أمَّةٍ فلقةٌ إلى آخر العُمُر!

لا أعجبُ -والله- من فرعون حين قال: هذه الأنهار تجري من تحتي، ولكنِّي أعجب منك حين تقول: هذه النَّارُ أجري من تحتها، وليتني أعلم أهي استعارةٌ أم مجازٌ؟! ومن مناهل الغاز أم من مسائل الألغاز؟!

---

(1) هذه المقالة أصلها رسالةٌ قديمةٌ بعث بها الرَّافعيُّ إلى صديق له كان قد استبدل نور الكهرباء بنور الغاز، راجع الحديقة، ج 6 ، العدد (6)، 30 رمضان 1340 هـ = 1 مارس 1930م، ص 224-227.

(2) جمع لَهَاة، وهي قطعة اللَّحم التي تكون في أقصى سقف الفم.

وكأنِّي بأصــابعك وقد عرفت أنَّ لها خواتم في الهواء، فهي تلعب كما تشــاء؛ مرة تحبِّب لجليســك العَمَى، وتتركه لا إلى الأرض ولا إلى السَّما، بأسفه ليل كلما شئت أظلما، ومرةً تُذكِّره بيوم النُّشور، فتبعث عليه النُّور، بعد أنْ يكون في ظلمة القبور!!

هذا على أنَّ كواكبك من الزُّجاج، لا من الأبراج، فكيف لو كُنَّ لا كما تظنَّ؟!

أكنتَ تبتلعُ الشَّمس لتقول أنا اليومُ والأمسُ؟!

أم كنــت تلــفُّ الأرض بالأرض، لتنــزل علينــا آية ﴿ظُلُمــاتٌ بعضُــها فوقَ بعض﴾[1]؟!

وإنِّي لأنتظر لك ليلةً يخفق فيها زفير الكهرباء فينقطع بعض الأسلاك، ويقع وحش الظُّلمة في تلك الشِّـباك، هنالك إذا استوحشت فرفعت رأسك غنَّتك القنــاني لا القيان، وترامــت على قدميك تفديك بدمائهــا المختلفة الألوان، وإذا مــددت رجلك إلى الباب، ليكشــف لك النِّقــاب، ويُميط هذا الجلباب، حســبك تحييه فحيــاك، وأبى -أدَام الله عليه العافيــة- إلا أنْ يُقبِّل جبينك ويلثم فَاك.

وربما مدَّ ذراعه إلى الطَّوق، والظلمة تدعو إلى شــدة الشَّوق؛ فيظنَّه عناقاً، وتظنَّــه خناقــاً، ثمَّ تلتمس المخرج فتحســب الحيطان أنَّك تســألها الحنان؛ فتضــمَّك إشفاقاً إلى صدرها، وتأخذ رقبتك لنحرها، وهكذا من حبيبٍ إلى حبيــبٍ، ومن نصــيب في هذا الهوى إلى نصــيبٍ، حتى يوم الكيل، ويكشــف عنك الغطاء فتبصر آيةً اللَّيل.. والسَّلام.

(1) سورة النُّور/ 40.

إلى مُهندسِ مَنْزِلي[1]

تأملتُ رسمك الجميل الذي وضعتَه لمنزلي، وتتبَّعتُ الاتِّصال فيه بين قريحتك المبدعة وبين شكل الطَّبيعة وروحها؛ فأشهدُ لكأنَّ الرَّسم بما فيه من القوَّة يحاول أنْ يحيا في نظر من يتأمَّله.

إنَّك بهذا الذَّوق السَّليم الحيِّ لتُعطينا السُّرور في شكلٍ من الفنِّ حتى لو ملك المالك رقعةً من الأرض، كالبقعة من الظُّلمة لوضعت لها من هندستك غُرَّة فجْرٍ يُضيء عليها، وأراك بهذه الدِّقة وهذا العلم؛ كأنَّما ترغم الطَّبيعة أنْ تُقدِّم لك حساباً عن كل مكانٍ تتناوله منها، وأحسبها لو هي صنعتْ بناءً كما تصنع ثمارها وأزهارها؛ لجاءتْ به في موضعه على الرَّسم الذي تتخيَّله أنت لموضعه، كأنَّك أُعطيتَ بالعلم سرَّ إظهار الجمال في أشكاله، كما أُعطِيَتْ هي بالقدرة سِرَّ تكوين الأشكال في جمالها.

ما أبدع ما تمزج أيُّها السَّاحر بين القريحة والمادَّة، وما أدقَّ أنْ تصل بين الجمال والمنفعة، وما أكمل ما تحقق بين المخيِّلة والواقع!!

إنَّ هذه الخطوط التي رسمتَها لتكون ميلاد بيتٍ جميلٍ، هي نفسها ميلادُ فنٍّ بليغٍ يُقيمُ لك بناءً فخماً من إعجاب مُحِبِّكَ.

(1) نُشر بالحديقة لصاحبه محب الدين الخطيب، العدد الثامن، أول سبتمبر 1930م، ص 108 – 109.

في عيدِ ميلادِ المسيحِ[1]

أيُّها السادة..

مَلَـكٌ مـن ملائكـة الرَّحمـة، يهبـط من سـماء الله آتيـاً من حـدود الأبد، ولجناحيـه حفيفٌ طالما أنسـت به نسـمات الجنَّة، وتعلَّقـت بأطرافه أرواح أزهارها الخالدة، كأنَّها معاني الوَرْدِ في لفظ عطر الوَرْدِ.

صـفَّ جناحيـه العظيمين ثـمَّ خفق بهما خَفْقةً؛ فانزوت له سـماءٌ وسـماءٌ، وأسـلمه فضـاءٌ إلى فضـاء؛ فإذا هو في ذؤابة هذا الكوكب الأرضيِّ؛ فوقف هنـاك عند الحدِّ الـذي أقامه الله بين المعنى الخالـد والمعنى الفاني، الحدِّ الـذي يبتـدئ منه ضـوء الشَّـمس رقيقاً مستشـعراً من رحمـة الله، فيكون للمخلوقات الأرضـيَّة نوراً وحياةً معاً، وهو في أصله لهبٌ ماحِقٌ لو أُلقيت فيه كُرَةُ الأرض لاستحالت في لحظةٍ واحدةٍ شعلةً واحدةً.

هناك حيث تزدحم الأقدار، على مداري الليل والنَّهار، وقف المَلَكُ الكريم ولا تزال على قوادم جناحيه مَسْـحَةٌ زاهيةٌ من نعيـم الخُلْد، ولا يزال فيها روحٌ مـن ريحان الجَنَّة، وقف ينظر فإذا الأرواح الإنسَـانيَّة صـاعدةٌ من الأرض في زحـام، منهزمـةٌ من شـرور النَّاس أيَّ انهـزام، متقهقـرةٌ إلى ربِّها بعد المعركة بلا نظام؛ فصرف وجهه ناحيةً ثانيةً، فإذاً دعوات المظلومين، وأَنَّات المحزونين، وتأوُّهات المساكين، وزفرات الوالدات والوالدين.

فانفتل إلى ناحية غير الناحيتين؛ فإذا الحياة الأرضيَّة كأنَّها خيطٌ وُضع من مِقْراض الفناء بين شَـفَتين، أو غريقٌ يخبط في لُجَّةٍ بين سـاحلين، ولا يدرى

(1) نشـر هذه المقالة تلميذه الأسـتاذ سـعيد العريان في مجلة الرِّسـالة، السَّنة السَّادسـة، العدد 281، ص 1902، 29 رمضـان 1357 هـ = 21 نوفمبر 1938م، وقد أشـار في كتابه «حياة الرَّافعيِّ» إلى أنَّ صـديقاً مسيحيّاً للرَّافعيِّ طلب إليه أن يكتب كلمة لطالبة مسيحيَّة تُلقيها في حفل بإحدى المدارس في ذكرى عيد الميلاد؛ فكانت هذه الكلمة. راجع حياة الرَّافعيِّ، ص 322.

قبره في أي السَّاحلين، أو المحكوم عليه بالموت أُوقِف بين سيفيْن، ولكنَّ الموت واحدٌ في السَّيْفَيْن.

فلم يبق من الجهات الأربع إلا جهةٌ واحدةٌ؛ فتحوَّل إليها الملك؛ فإذا هناك في أقصى الأفق معنى الرَّحمة الإنسانيَّة، وقد انكمش وتضاءل وأخذ منه الهزال كأنَّه مريضٌ، أو كأنَّ الحزن على النَّاس قد أذابه فقطع الرجاء منهم، وانزوى في ناحية ينتظر نهاية هذا القَدَرِ المُنْصَبِّ من السَّماء على الأرض!

جزع الملك من ذلك وكاد، وهو قطعة من الخُلد، يُداخله الخوف ويُخالجه الشَّكُّ، وتمسُّه بعض الآثار الفانية؛ فقال: ما بالي قد تبلَّلتْ أجنحتي من رشاش هذه الدُّموع وهذه الدِّماء؟! وما بال هذا العالم الآخر ليس فيه إلا متألِّمٌ لميِّت، أو متألِّمٌ لحيٍّ، أو متألِّمٌ لنفسه؟!

وما بالُ الحياة قد أمست من شدة بؤسها وكَدَرِها وهمومها تطحن أكثر مما يطحن الموت؟!

هل بقي شيءٌ إلا النَّفخةُ في الصُّور، وبعثرةُ مَنْ في القبور، ووقوف الفلك الدَّوَّار فلا يدور، وانطفاءُ نور الأرض فلا ظلامٌ ولا نورٌ؟!

وقف الملك الكريم أربع سنوات وأشهراً وهو ينتظر يوماً يرى فيه السَّماء مُسفرةَ الوجه برضا الله ونعمته، بعد غضبه ونقمته، فلمَّا سطع ذلك اليوم المضيء وأبرقت بفجره أسارير السَّماء؛ هزَّ الملك جناحيه على المشرق والمغرب، وانتفض في جوِّ الأرض انتفاضةً ملائكيَّةً أطفأ بَرْدها غيظَ القلوب المتأجِّج الذي تشاتمت به أفواه المدافع زمناً طويلاً، وهبَّ نسيمها الآتي من الجَنَّة فدافع إلى ناحية الجحيم كُلَّ روائح البارود ودُخَان القنابل ولهب النَّار.

ثم ضحك الملك مسروراً؛ فانتثر من ضحكة الابتسام على كلِّ الشِّفاه، وأصبح جوُّ الأرضِ من مطلع الشَّمس إلى مغربها وهو يتلألأ كأنَّه ثغرُ طفلٍ يضحك في وجه أمِّه.

وسمع الملك حَمْدَ النَّاس وشكرهم وتهنئة بعضهم بعضاً، ورأى الأرض وقد سكنت بعد غليانها، وأقبل أهلها يُصلحون ما فسد، ويبنون ما تهدَّم، ويُديرون في الأرض حركةً جديدة، ويُسخِّرون العناصر لبناء الطَّبيعة الاجتماعيَّة أو لهدمها كما كانوا يفعلون؛ فقال: الآن أصلحتُ بين النَّاس، وأصلحتُ النَّاس للنَّاس، ثمَّ رمى بطرفه إلى الجهات الأربع؛ فإذا معنى الرَّحمة قد ملأها واستفاض عليها، فهزَّ جناحيه صاعداً في فلك النُّور، وفي أذنيه تهليل النَّاس وصلواتهم، حتى إذا انتهى إلى أُفُقه الأعلى كانت الكلمة الأخيرة التي دَخَلتْ معه إلى سماء الله هي نفس الكلمة الأولى التي خرجت من سماء الله.

وعلى الأرض السَّلام، وفي النَّاس المسَرَّة!

زواج الأدباء[1]

أمَّا احتراف الأدب، والكتابة في الصُّحف، ومعالجة الشِّعر، فهذه في الشَّرق ضُروبٌ من الفقر، كما هي ضروبٌ من الحرفة، غير أنَّه فقرٌ عاقلٌ مميزٌ يذهب بنفسه إلى السُّمو، وينزع إلى الحقِّ، ويستنكف أنْ ينحطَّ إلى منزلة الفقر العاميِّ الجاهل!

فالحوذيُّ، والكنَّاس، والمُتسوِّل، وأمثالهم من هؤلاء الذين يضطربون في معاشهم اضطراب الكرة الأرضيَّة، يقطعون كلَّ أربع وعشرين ساعة دورةً حول أنفسهم.

هؤلاء يتزوجون إذْ لا يتورَّعون أنْ يظلموا المرأة، وأنْ يزيدوها من فقرهم فقراً، ومن قِلَّتهم قلَّةً؛ ثمَّ هم لا يبالون حاجتها من الحياة، ولكنَّ حاجتهم منها هي!

فالمرأة عندهم وظيفةُ حياة طبيعيَّة لا يُشترط فيها إلا شرط الغريزة والعادة الاجتماعيَّة، وفي طبقاتها في النِّساء مَنْ لا يصلحن إلا لهم؛ وقد أعدتهن رحمةُ الله إعداداً طبيعيّاً، وأمدَّتهن بنفوس صابرة قويَّة؛ فلها أنْ تعمل وترضى وتنقاد، إذْ الرجل عندهنَّ هو الجواد الأخير في عربة الحياة، ومتى فُرشت دار الفقير بحصير فهذا هو بساطها وسِجَّادها الفاخر!

بيد أنَّ الشَّاعر والأديب وكاتب الصُّحف لا يرون على فقرهم إلا البساط والسجَّاد الفاخر والحشايا؛ فهؤلاء فقرهم هو الفقر ما دام لأنفسهم، فإنْ اتَّصل بالمرأة التي تَصلُح زوجةً لهم -أو تكون قريبةً من أنْ تصلح- لم يكنْ فقراً فحسب؛ بل فقراً وظلماً وبلاءً إنسانيّاً أسود، ومن ثمَّ لا يتزوَّجون، وهذه

(1) هذه المقالة نشرها الأستاذ نعمان أحمد عسكريَّة في مجلَّة الرِّسالة، السَّنة العاشرة. العدد 482، بتاريخ 17 رمضان 1361 هـ = سبتمبر 1942م، ص 920، أي بعد نحو خمس سنوات من وفاة الرَّافعيِّ.

ناحية مـن العدل في ذلك الفقر العاقل المميَّز الذي يحترف الأدب والشِّعر والفلسفة والكتابة في الصُّحف، فليس هنا طبيعة عبقريَّة ولا شعر؛ وإنَّما ذاك عمل النَّفس الطَّيِّبة لا غير!

ولكنَّك واجدٌ منهم من ينتحل العبقريَّة، ويُقلِّد الشَّاعر الفحل والعبقريَّ الكريم، وهذا شخصٌ مضحكٌ؛ فإنَّ الملك لا يكون بالتَّمثيل على خشبة المسرح، أمَّا الشَّاعر الحقُّ والعبقريُّ الصحيح، فكلاهما واحدٌ من ثلاثة:

الأول: أنْ يكون من مؤنَّثي الرِّجال، قد خُلق كذلك، أو عَرَضَت له آفةٌ تنقص الفحولة فيه أو تمحقها محقاً؛ وهذا معه عُذْرُهُ البَيِّن.

والثاني: أنْ يكون رجلاً قد طَغَتْ فيه الحياة طغيانها العصبيَّ الشديد المجتاح، ثمَّ يكون الفنُّ طاغياً فيه طغيانه الخياليَّ العنيف المتمرِّد، وهذا لا يصلح زوجاً ولا تصلح الزَّوجة له؛ فإنَّه إنَّما يريد المرأة المُغلَّة، كأنَّها ضيْعة من الفنِّ الحيِّ تُغَلُّ عليه من ريعها وثمراتها، وقد أبى الشَّيطان -لعنه الله- أنْ تكون المرأة المغلَّة في الفنِّ إلا امرأةً محرَّمةً، ومتى كان الشَّيطان في الأمر استطاع أنْ يجعل لكلِّ امرأةٍ فنّاً على حدةٍ!

ومن ههنا فسوق الكُتَّاب والكثرة من العباقرة، وهذا سرُّ تعزُّبهم وانصرافهم عن الزَّواج أو انصراف الزواج عنهم، وهؤلاء بركةٌ على الفنِّ، ولكنَّهم بلاءٌ على الدِّين، وعلى الفضيلة، وعلى النَّسل، وعلى الإنسانيَّة كلِّها.

ومن سخرية الحياة بهم أنْ يكون العبقريُّ العظيم فيهم، هو من ناحيةٍ أخرى الحيوانَ العظيمَ!

وليس إبليس مغفَّلاً ولا أحمقَ فيتَّخذ له أدوات من المساجد والكنائس، ويشتغل ببيع السبَح والتعاويذ للمُصلِّين؛ بل هو كما يتخذ المرأةَ من المومسات في موضعها؛ يتَّخذ الرَّجل من أولئك في موضعه أيضاً، وهذا شأنٌ ظاهرٌ.

أمَّا الثَّالث ففي رأيي أنَّه خير الأزواج جميعاً، ولن تجد المرأة خيراً منه، وهو العبقـريُّ إذا كان تامَّ الفحولة، وكان ذا دين يُمسكه وضمير يردَعُه، فهذا يكون الحيوان الذي فيه قيدُهُ، ويكون شُـذُوذُهُ كالليل الممتاز في ليالي الشَّهر يأتي ظلامه وفيه البدر.

نعم إنَّ هذا العبقريَّ قد يخسر أشياء من وسائل الفنِّ ولكنَّه مستعيضٌ عنها بخياله، ويشعر بها محروماً أكثر ممَّا لو نَالَهَا، ثـمَّ إنَّ الفنَّ ليس في جميع أدواره وأغراضه تخنيثاً للحياة ولا تفكُّكاً وخلاعةً ورقاعةً.

هناك ما هو أسمى من كلِّ أعمال العبقريِّ، هو إيجاد فضيلةٍ عبقريَّةٍ!

مع أعلام عصره

إلى الأستاذ فكري أباظة(1)

أشكرُ لك أنِّي خطرتُ ببالك حين أهديتَ مجموعتك لمن أهديتهم، ولا أدري إنْ كنتَ تعرف أنَّ في تاريخ الأدب العربيِّ رجلاً اسمه (أبو العِبَر)، ولا إنْ كانت روح أبي العِبَر هذا تعرف أنَّ في مصر اليوم رجلاً اسمه (فكري أباظة)!

ولكن اعلم -ولا مؤاخذة- أنَّ أسلوبكما واحدٌ (تقريباً)، وأنَّ كليكما جعل نفسه من بعض النَّاس بمنزلة (العربجيِّ) الحكيم من خيله، فتارةً يصبُّ على ظهورها الماء في الإسطبل، وتارةً يصبُّ على ظهورها السَّوط في الطريق.

كان -رحمه الله- فيما جن أعقل ما يكون العاقل فيضحك الواحد بما يؤلم الآخر، وأراك -حفظك الله ورحمك- فيما بعد تداعب أشد ما يكون ذو الجدِّ في الجدِّ؛ فتضرب فتضحك، وتأتي لكلِّ عيبٍ تريد أنْ تستره بمقالة في المِرآة الصافية وتقول: ههنا أختبئ .. أختبئ أمامَ المِرآة!

وكان أبو العِبَر -بل قل أبو أسلوبك- يقول فيما يصف للنَّاس من أساليب البلاغة: اجعلْ كلامك بارداً بارداً، أو حاراً حاراً، وإيَّاك والعار فإنَّه صفعٌ كله، وبلغتك أنت: فإنَّه (تلطيشٌ كلُّه)، وما أرى أحداً يُنازعك في الحكم على القسم الشَّماليِّ من هذه النَّصيحة مستقلاً به استقلالاً تامّاً.

ولكنَّك على ذلك تجعل من الثَّلج الأبيض جمراً أحمر، ومن الجمر الأحمر ثلجاً أبيض!

لا أحبُّ لك أنْ تظنَّ أو يظنَّ القرَّاء أنْ ليس في العربيَّة شيءٌ من مثل هذا الأسلوب كما تُوهِم مقدمة مجموعتك التي يقول فيها كاتبها الفاضل: «إنَّ طرق البلاغة القديمة قد ظهر فشلها في العهد الحديث»، فلقد بلغ العرب في

(1) الأهرام، العدد 14252، السَّبت 6 جمادى الثَّانية 1343 هـ = 12 يناير 1924، ص 7.

هذا الأسلوب غايةً معجزةً لا تستطاع وفي بلاغة كأنَّها منطق الطَّبيعة حين تُبيِّن عن الشَّيء بخلقه وإيجاده، وانظر هذه المقالة الصَّغيرة.

قالوا: كان كلابٌ وكعبٌ وعامرٌ أبناء ربيعة بن عامر بن صعصعة أحمقين جميعاً، فاشترى كلابٌ عجلاً وهو يظنُّ أنه مُهر؛ فركبه فصرعه، وركبه كعبٌ فصرعه، وركبه أخوهما عامرٌ؛ فثبت عليه؛ فسُمِّي الثَّابت؛ فكان كلابٌ لا يزال يحسبه مُهراً حتى نَجَمَ قرناه.

أفلا ترى أنَّ هذه النكتة في أجزائها وإلى هذا العجِل الظَّريف، وإلى قرنيه وكيف كان المحترم كلاب أفندي يُكذِّب جميع النَّاس في أنَّ مُهره عِجل، ولم يقبل الدُّخول في المفاوضة معهم إلا بعد قيام دليلين على رأس العجل نفسه؟!

***

فكرتُ الآن في رجلٍ يقف على أمواج البحر وبيده مكنسة كمكانس المجلس البلديِّ، يريد أن يكنس بها ذلك البساط الأزرق الذي لا تعلق به ذرةٌ واحدةٌ من الغُبَار!

وفي رجلٍ آخر يقف عند ساحل الدَّواة وفي يده قلمٌ يريد أنْ ينسخ به أسلوب فكري أباظة وهو من طبيعة الروح المصريَّة وكلاهما طامع في...

أعترف لك يا فكري أفندي أنِّي وقفت هنا مدةً لا أرى حرف الجرِّ هذا يجرُّ شيئاً (...) به العبارة؛ فاستوحيت روحك الطريفة وبعد التي واللاتي كان تمام الجملة هكذا: أنَّ كلاً منهما طامعٌ فيما يطمع فيه كلٌّ منهما!

انبعث أشقاها[1]

حضرة المحترم صاحب المجلَّة الجديدة:

كتبتَ عنِّي في عدد شهر فبراير من مَجلَّتك ما هو أشبه بك وبنزعتك وأدبك، وهأنذا أكتبُ إليك لا ردّاً على كلمتك؛ ولكن تصحيحاً لكذبتك، فإنْ يكنْ في نفسك خُلقٌ حُرٌّ وبقيةٌ من خُلقٍ شريفٍ؛ وجب عليك أنْ تنشر كتابي هذا، وإلا ففي القانون واجبُ مَنْ لا يعرف واجبه.

أنا، مع رأيي الذي تعرفه فيك وفي أمثالك من المُترجمين الذين جعلَتْهم التَّرجمة المعاشيَّة عن غير أُمَّتهم كأنَّهم من غير أُمَّتهم، كنتُ واللّه أرفعُك عن تَعمُّد الكذب الدَّنيء، والنُّزول على أسلوب العامَّة في مكايدهم كما فعلتَ في كلمتك على ما خيَّل الظَّنُّ الفاسد الذي ظننت.

وإنَّك لتعلم علم عينيْك أنَّك- أنت ومجلتك ومائة من مثلك ومثل مجلتك- لن تنال مِنِّي، أو تؤثِّر عليَّ لا في مصر ولا في غيرها، إلا إذا أثَّرَ ألفُ مِلِّيم على ورقة بنك صحيحة ذاتِ مائةِ جنيهٍ.

أيتها الملاليم! إنَّك لا تَحَكَّمين البنك، ولا تَمَلَّكين فيه إلا ملاليم!

زعمتَ يا صاحب المجلَّة الجديدة أنَّه ليس في دمي قطرةٌ من الدَّم المصريِّ، وهذا كذبٌ؛ فإنَّ والدتي مصريَّةٌ، وأنا مولودٌ في مصر.

---

(1) نشر هذا الردُّ في مجلة الفتح، السَّنة الرَّابعة، العدد 186، 14 رمضان 1348 هـ = 13 فبراير 1930م، ص9، بعدما كتب سلامة موسى مقالةً له في العدد الثَّاني من مجلته تحت عنوان (أوكار الرَّجعية في مصر) وحمل فيها على الرَّافعيِّ والشَّيخين محمد رشيد رضا ومُحبِّ الدِّين الخطيب. راجع العدد الصَّادر في أول فبراير من نفس العام، ص 432. وحسب محرِّر الفتح؛ فقد رفض موسى نشرها في مجلته، وكان الرَّافعيُّ قد أشار في رسالة إلى أبي ريَّة بتاريخ 4 أبريل 1925م إلى أنه أهمل الرَّد على سلامة في نقده لكتابه (السَّحاب الأحمر)، راجع رسائل الرَّافعيِّ، ص 97-98.

وزعمــتَ أنِّي أقولُ: «إنَّ الأزهر لو كان قد أُنشــئ في بــلاد أخرى (مثل وطنه سوريا) لكان له شأنٌ عظيمٌ غير هذا الشَّأن الصَّغير الذي له؛ لأنَّ القائمين به مصــريون فقط»؛ وهذا كذبٌ دنيءٌ؛ فإنَّ كتبي ومقالاتي منشورةٌ مقروءةٌ؛ وليس فيها ذلك ولا ما يشــبهه، وما أنت صــديقي فتعلم آرائــي، وإذا أَحَلْتَ عليَّ غيرَكَ وقلتَ إنَّك سمعتَ منه؛ فسمِّه إنْ كنت جريئاً، وأبعدَ اللّه الكاذب منكما.

عســاك ظننتَ أنَّ مثل هذا الهُراء بغَّض منِّي عند أساتذة الأزهر وطَلَبَته إذْ أنت مســتيقنٌ أنِّي موضع إعجابهم ومحبتهم جميعاً، وأنَّ لي بينهم أصدقاء كثيرين، وفي أوَّلِهم فضــيلة شيخ الأزهر الجليل؛ ولكنَّهم أعرفُ بي منك، ثمَّ لعلَّك نسيتَ أنَّهم ليسوا من طِرْزِك.

إنَّ العالم الإســلاميَّ يا صــاحب (المجلَّة الجديدة) حريصٌ على رجالِه من حُمــاةِ القــرآن والعربيَّة والبيان، وأنت -والحمد للّه- لســتَ من كل ذلك في يدٍ ولا رِجْلٍ[1].

وقلتَ إنَّني طبعتُ كتاباً لي مرةً ثانيةً، وخشــيتُ ألا يشــتريه من اشــتروه في المرَّة الأولى؛ فغيرتُ اسمَ الكتاب ولم أُغيِّرْ موضوعه!

أظنُّــك لا تفهــمُ ما تكتبُ أحيانــاً، وأنا أتحدَّاك أنْ تجيئنــي بكتابٍ في الأدب العربيِّ بلغ في رواجه ما بلغ كتابي هذا الذي تُشير إليه وهو (إعجازُ القرآن)، فكيف أخشى عليه وأحتال له!

ثم أتحدَّاك أنْ تجيئَني بكاتبٍ في الشَّــرق كلِّه ظفر من إعجاب رجلِ الشَّــرق العظيم المغفور له ســعد باشــا زغلول بمثل كلمته الســائرة في كتاب (إعجاز القــرآن): كأنَّه تنزيلٌ من التَّنزيل... أفمن يُقرِّظه ســعد باشــا بهذه الكلمة

---

(1) راجع تفصيل أزمة الرافعي مع الأزهر في حياة الرافعي للعريان، ص 266.

يتخلَّــى عنه العــالم العربيُّ وطُـلاَّب البلاغة العربيَّة من أجـل كلام جرائد منحطَّةٍ كالذي تقوله في مجلَّتك؟!

ثم قُلتَ: «وأرادَ أنْ يقول كلمة حســنة في سعد باشا فقال عن جثمانه إنَّه رِمَّةٌ مــن الرِّمَم»؛ وأقول لــك مثل هذا إنَّما تكتبه أنت وأمثالك ممن لا يُحســنون بلاغــةً ولا ركاكــةً، فأحســنْ إلى قرائــك بنشــر كلمتي التي رثيتُ بها ســعد باشا، وأنت مُقِرٌّ رغم أنفك أنَّه ليس في العالم العربيِّ كله مَنْ يكتب مثلها في أسلوبها وبلاغتها.

إنِّي رأيــتُ كلَّ الذين يزعمون أنَّهم مجدِّدون يســتطيعون أنْ يُنكروا وجودي، ولكنَّهم لا يُنكرون هذا في كلِّ ما أكتبه.

واعلم أيها الرَّجل أنَّ جبلًا من المِلح لن يســتطيع أنْ يُخرج ولا فصّــاً صغيراً من الألماس، فعلى رغمك ســتظل تقعدُ من عداوتي وتقوم دون أنْ يشعر أحدٌ أنَّك قُمتَ أو قعدتَ.

وَحْيُ النَّفْشِ[1]

حملـتُ نعشـ أمين فيمــن حملوه من بــاب داره إلى باب قــبره، وقطعتُ إلى جنبه مسافته الأخيرة وأنا أشعر أنَّ الأرض قد ارتفعت عن منزلتها الأرضيَّة وصارت أوَّل السَّماء إذْ تنتهي بالمحدود إلى غير المحدود.

هي المســافة التي تقع على آخر حدود الكرة الأرضيَّة لواحدٍ من أهلها؛ جعلتني نحــواً من ثلاث ســاعات في جاذبيَّــة أمين لا أنحرف عن جهة نعشــه إلى جهة أخرى كأنما يقول لي بنفس القوَّة التي يقول بها المغناطيس للحديد: لا تَدَعْني!

ســرنا معاً ولكنْ في زمنين، ومشينا معاً ولكنْ في طريقين، وانتهينا في موضعٍ واحدٍ ولكنْ إلى غايتيْن، ومن قبله حملتُ نعش أبي وأمِّي فكلُّ الثَّلاثة أعلمني أنَّ في الزَّمن ســاعاتٌ يكون بها الميِّت الحبيب في شبه من دنيا الحيِّ، والحيُّ الحزين في شبه من آخرة الموت، وكلُّ الثَّلاثة دلَّني على أنَّ في الأرض طريقاً يُســمَّى طريق الملائكة لا يمشــي فيه امروٌ إلا وراءَ قلبه، ولا يمشي فيه القلب إلا وراءَ نعشٍ، ولا يمشــي فيه النَّعشــ إلا وراء عملٍ كريم، وأوحى إليَّ الثَّلاثة كلهم أنَّ من غفلة الأحياء أنْ يفروا في كلِّ وجهٍ من الدُّنيا بأعمالهم السَّــيِّئة جاهلين أنَّ هذا الفرار لا قيمة له إلَّا إذا فرَّ القبر، وهل يفرُّ القبر؟!

***

لا أزال أُحسُّ ضغط النَّعش على فرعيِّ المنْكَبيْن، فوالذي لا ينساه النَّاسي إلا بنوعٍ من ذكره؛ ما أُحبُّ أنَّ لي بهذه الغمزات على كَتِفي أوسمة الدُّول.

إنَّ آلامــاً تُذَكِّــر بالله خيرٌ من نِعَم لا تُذكِّر إلا بالنَّاس، وما نفس الإنســان إلا مملكة كبرى بحدودها وعظمتها وأوسمتها الكريمة ومناصبها العليا، ومهما

---

(1) نشــرت هذه المقالة ضــمن كتــاب (ذكرى فقيد الوطن المغفــور له أمين بك الرَّافعــيّ) في ذكراه الأولى، ويضم ترجمة لحياته وما قيل في رثائه نظماً ونثراً، وقد قام على إعداده الأستاذ محمد صادق عنبر.

انفسح العُمُر فلن يكفي إنساناً أنْ يُطيع اللّه بما يستحق أنْ يسمَّى طاعة، ويؤدِّي الحقَّ بما يكافئ أسباب الحقِّ، ويقضي الواجب بما يقتضيه الواجب، فيا خسرانَ من حمل الأوسمة إذا جرَّدته الإنسانيَّة من وسام مملكتها!
كذلك أَوْحَى إليَّ نعشُ أمين!

***

ويحك يا مصر!! أفيك نوعٌ من الموت هو أشد الموت؛ فلا ينقذك إلا من أصدقائك خاصةً!

أمن سِحْرِك أنَّك لا تُظهرين للشَّعب عظيماً إلا بموت ميِّتٍ كأمين، أو بناء قبر كالهرم الأكبر؟!

أمن عظمتك أنَّك تُنشئين النَّبيَّ من أنبياء الوطنيَّة ليؤدِّي رسالته ثمَّ تصلبيه؟!

أمن قوتك ألَّا ينتصر فيك الحيُّ إلا بعلامةٍ واحدةٍ هي أنَّه أهلك نفسه بك؟!

أمن جبروتك أنَّك لا تُدركين حقيقة أبنائك إلا حين لا تستطيعين أنْ تُناديهم: يا أبنائي؟!

أمن عجائبك ألَّا يعرف خصومك وأنصارك الذين هم كخصومك رجلاً مثل أمين إلا أنْ يُرغمهم هو على الإقرار حين يجعله الموت جزءاً من ضميرهم الإنسانيِّ؟!

يا إلهي!! كان صوتك في مصر؛ فكان كالرَّعد في حنجرةٍ، وكان كالبرق في قلمٍ!

كان الباطل يرى في ذلك الرجل حقّاً لا يتبدَّل أبداً!
كانت الفتنة ترى فيه سُموّاً لا يتنزَّل أبداً!

كان الذُّلُّ يرى فيه عزةً لا تتحوَّل أبداً!
كان الواجب يرى فيه عاملاً لا يتململ أبداً!
كان رجلاً من الأبد قامت بينه وبين مخازي الدُّنيا كلمتان: أبداً أبداً!
كان صوته صاعقاً يشقُّ حجاب القلب؛ لأنَّه من قلبه لا من شهواته!
وهو صوت مدفعك الذي وضعته في أعلى برج من الحصن المصري تُرسل إليه كلَّ يوم شرارةً لتنطلق منه كلَّ يوم قذيفةٌ!
يا له مدفعاً مُلئ باروداً لولا مدافع أخرى يتهزَّأ بها القدر فيحشوها بما يُؤكل وما يُشرب.. بذلك ناجيتُ نعش أمين!
أيها المصريُّ عِشْ في حدود ضميرك لربِّك ووطنك وإخوانك، ولا تكن من قوم يعيشون في حدود أمعائِهم!
ولتكنْ بقناعتك توبيخاً لأهل الطَّمع، وبفضيلتك ذمّاً لأهل الرَّذيلة، وبتواضعك زرايةً على أهل الغرور، وبحقِّك هدايةً لأهل الباطل، واعلم أنَّ الموت آتٍ لا ريب فيه وإنْ ذهب النَّعيم هنا وحلَّ الجحيم هناك.
وسينقل الأغنياء المبخلون إلى مكانهم في الآخرة كلَّ مستنقعاتهم ووحُولِهِم الحمراء، ولقد تكون نعوش بعض الموتى كعربات الفحم والنَّاس لا يدرون!
ألا وإنَّ للموت ضرباتٍ قبل الضَّربة القاضية؛ فاحذر أن تقع منها ضربةٌ في دينك أو وطنيَّتك أو أخلاقك أو سيرك، وإذا كان لابد أنْ يضرب هذا الموت ضرباته الثقيلة على الحياة فقل له: دعْ لي وطني.. دعْ لي يقيني.. دعْ لي محبة إخواني.. دعْ لي مجد نفسي.. واقطعْ أيُّها الموت في جسمي، واسحقْ أيُّها الموت من عظامي، وامتصْ أيُّها الموت من دمي، واضربْ ضربتك الأخيرة أيُّها الموت في قلبي!

كذلك أَوْحَى إليَّ نعشُ أمين!

وأوحى إليَّ أمين ونحن على كَثَبٍ من قبره: لقد كتبتُ السَّاعةَ مقالتي اليوميَّة الأخيرة، كتبتُها بمرورِ نعشي على أعين أهل وطني، فإنْ يتعظوا فلا وعظتهم حادثةٌ بعدُ! لقد كنتُ أُخرِج المجهول فأجعله من علم الجاهلين ليعلموا وأبقى أنـا من بعض المجهول، فقد كنـتُ أنفخ في نـار الوطنيَّة فلا يخـرج النَّفَس الواحد من شـفتي إلا بأيـام منٍ عمري! ولقد بقيتُ في المعركـة أُقاتلُ عنهم وللأمراض معركةٌ في جسميً سأُقتل بها أنا وحدي! لقد رضيتُ في ضجرهم أنْ تكون نفسـي آخر حدود الصَّـبر، وفي جزعتها أنْ يكون عملي آخر حدود القوَّة، وفي جحودها أنْ يكون إيماني آخر حدود الرِّضـا، وفي غنائي أنْ يكون فقـري آخرَ حـدود الاحتمال! رضـيتُ أنْ أكون بينهم الأخير منصـباً ومالاً وعافيةً وسـعادةً، إذْ لم أجد فيهم مَن يصبر على أنْ يكون الأوَّل في الحرص على مصر، والتَّضحية لمصر، والوفاء بحقِّ مصر، والموت في سبيل مصر!

***

رَحِمَكَ اللهُ يا أمين!

لم تجد مصـرُ المسكينة غير هذه الوسيلة، فيموت أطهرُ أبنائها وأَبَرُّهم بها فقيراً مريضـاً مظلومـاً لتتجلَّى في موتـه الوطنيَّة العظيمـة الثَّابتة النَّزيهة وتقول للنَّاس: آمنوا بي!

الملكُ فؤادٌ[1]

ماتَ الملكُ العظيم[2]، فرأى النَّاس من ذهولهم كأنَّما زيدت في الموت زيادةٌ!

وكأنَّ يوماً ليس من الدُّنيا وقع في الدُّنيا فترك الحياة في غير معناها!

وكأنَّ العيونَ انفتحت فجأةً على شكلٍ مُحزنٍ من هذا الوجود!

وكأنَّ حادثاً عظيماً انتهى من التَّاريخ المصريِّ إلى نقطة انقلاب؛ ورأى النَّاس كأنَّ غيمةً فوق مصر تجتمع من حزن ستة عشر مليون قلبٍ[3]!

***

مات فؤاد العظيم؛ فعرَفَت مصرُ أنَّ معجزةً فارقتها، وأنَّه لم يَنْقَضْ رَجَلٌ؛ ولكن ذهب قَدَرٌ كان في خدمة حوادثها المضطربة، ولم ينته عُمُرٌ؛ ولكن انتهت سعادةٌ كانت من حظِّ أيَّامها!

ولم ينطو تاريخٌ؛ ولكن انطوت قوةٌ كانت تعمل في حلِّ مشاكلها!

فارقت معجزةٌ، وذهب قدَرٌ، وانتهت سعادةٌ، وانطوت قوَّةٌ!

ما أفدحَ خطبُكِ يا مصر!

***

وكيف لا يكون معجزةً من خُلقت مواهبُه على قدر أُمَّةٍ تنال به التَّاجَ بعد أنْ فقدَتْه ألفي سنة؟!

وكيف لا يكون قَدَراً من بُعثت عزيمتُه لحلِّ الزَّمن السِّياسيِّ المعقَّدِ منذ دهور ودهور؟!

---

(1) الرِّسالة، السَّنة الرَّابعة، العدد 149، 20 صفر 1355 هـ = 11 مايو 1936م، ص 763-764.

(2) هو فؤاد الأوَّل، ابن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي باشا (1868-1936)، سلطان مصر في الفترة (1917 – 1922م)، وقد غيَّر لقبه إلى «ملك مصر وسيِّد النُّوبة وكردفان ودارفور».

(3) عدد سكَّان مصر يومئذٍ.

وكيف لا يكون سعادةً هذا الذي مرَّت آثاره على فقر التَّاريخ مرورَ الغنى؟!
وكيف لا يكون قوةً وإرادتُه الجبَّارةُ كانت مظهر السِّرِّ الذي يعمل وينتصر؟!
أيتها الحقيقة العظيمة! هل كانت النُّبوَّة في شكل سياسيٍّ؟!

***

مرض الملك -رحمه الله- فكانت أخبارُ مرضه روايةَ أحزانِ الشَّعب!
وعرف كلُّ مصريٍّ أنَّ هذا الملك هو الوطن في صورة رجلٍ، واتَّجهت العاطفة الوطنيَّة في البلاد كلِّها إلى رمزها الحيِّ!
وأثبت الشَّعبُ في سموٍّ أخلاقه أنَّ ملكه العظيم هو الذي ارتقى به إلى هذا السُّموِّ، وأُصلحت غلطةٌ كانت السِّياسة الأجنبيَّة تُسمِّيها التفرُّق.

***

ومات الملك -رحمه الله- فأتمَّ موتُه عمَل حياته العظيمة!
جمع الأمة كلها على أسمى أخلاقها من الحبِّ والوفاء والاتِّحاد؛ وأظهرها حوله كأنَّها في صلاةٍ تتدفَّق منها الرُّوحانية العظمى؛ وراع بها العالم السِّياسيَّ كأنَّه يقول للدنيا: هذه مصر كما أنشأتُها، وترك لأمته الدَّرسَ الأخير في هذه الصُّورة كأنَّه يقول: هكذا عيشوا!

***

وبكاه الشَّعبُ من كلِّ عينٍ، حتى لو كان يبكي من نهرٍ لَيَبَسَ!
وأصبحت القلوبُ من الحزن كأنَّ كلَّ قلبٍ اجتمعت فيه أمواتُه ذلك اليوم، وبرزتْ فجأةً من النِّسيان همومٌ وهمومٌ وهمومٌ!
ودَنَتْ الآخرة حتى لا يذكر النَّاس غيرها، كأنَّ الخلد يتسلَّم الرَّاحلَ من أيدي الشَّعب!

وحكم الملكُ يومَ موته حكماً آخر، كما تحكم على النَّاس جميعاً طبيعةُ الخير.

***

«في ذمَّة الله يا فؤاد»!

هذا هو صوتُ الشَّعب يوم وفاة الملك!

صوتُ الفطرة على سجيَّتها مع نفسها؛ لا من سياسةٍ ولا رياءٍ ولا مجاملةٍ!

صوتُ الإيمان على طبيعته مع القلب، لا من غرضٍ ولا تصنُّعٍ ولا خديعةٍ!

صوتُ الوطنيَّة على عقيدتها مع الحبِّ، لا من خوفٍ ولا كذبٍ ولا اضطرارٍ!

وما عسى أنْ يقول مَنْ فقد أباه العزيز، إلا أنْ يقول: في ذمَّة الله يا أبي؟!

***

في ذمَّة الله ذلك الملكُ الذي كان كالأنبياء محصوراً في واجبه ورسالته، ولم يكن بين فكره وعمله أحلامٌ تُفسد الفكر أو تُضعف العمل، وكان يقول: «ليس شيئاً يُذكر أنْ يكون المرءُ أميراً؛ ولكنَّ الشيء الجدير بالذِّكر أنْ يكون نافعاً». ومن أجل ذلك استمرَّ يعمل كأنَّه مؤتمر ملوكٍ لا ملك واحد؛ وتألَّفت مدةَ حكمه اثنتان وعشرون وزارة، فكانت له على مصرٍ بركةُ اثنين وعشرين ملكًا!

***

وكان بنشأته واختباره وعلمه ودينه تصحيحاً لأغلاط من سبقوه في الملك، وبذكائه وبصيرته كان يسوس رعيَّتيْن في مصر: إحداهما الحقائق، وكان موفَّقاً بقدر ما هو قويٌّ؛ فخدم الشَّعبَ عقله وحَظُّه.

تراه دائماً بحكمته وحزمه في عمله للحاضر، ودائماً بصبره وإيمانه في عمله للمستقبل!

هــو ملك الصَّــبر والإيمــان؛ وبهاتين القوَّتــين كم من مرةٍ جعــل ما لا يمكن يمكن.

***

وكان مــن أكبر همِّه أنْ يألف العالم اســمَ مصــر وأنْ تعــرف ممالكُ الدُّنيا جَدَّتها فحرَّك اســم مصــر في كل أمَّة لأنَّه وحده الاســم الــذي يخاطب كلَّ تمدُّنٍ بلغةِ خياله.

إنَّ المجد المصريَّ إذا انبعث كان قوةً من قوى الجلال في الدُّنيا!

إنَّ السِّحر المصريَّ إذا عُرف كان قوةً من قُوى الحبِّ في العالم!

إنَّ فنَّ الإعجاب بمصــر ليخرجُ من درس آثارها، كما يخرج علم الفلك من درس النُّجوم!

***

في ذمَّة الله يا فؤاد، وعزاءً يا مصر!

قد أعطاكِ من الفاروق المحبوب أكبر حســناته، أعطاكِ فيه أســرار عظمته تتجلَّى بادئة بنشاطها.

غابت الشَّمس ليبدأ الفجر الجديد.

مات الملك؛ يحيا الملك!

إلى مِصْرَ[1]

إلى مصـرَ التي بَنَـت الأهرام لتُري الأجيال الآتية أهـي أبقى من الزمن أم الزمـن أبقى منهـا؛ ورفعتها لتُؤرِّخ الدُّهور بأحجارهـا؛ فكان كلُّ حجر منها تاريخَ دهر، ونصـبتها صـخورٌ قائمـةٌ في محيط العمر الإنسـانيِّ؛ وأقامتها تحت الفلكِ الدَّائر كأنَّها فلكٌ ثابتٌ لا يتزحزح؛ وأظهرتها على الأرض لتنبئَ الخالفين أنَّ مصـر إنْ لم تكن أكبر ما في الأرض وأوسـع فهي أرفع ما فيها وأقوى وأشدُّ.

***

إلى مصـر التي شـادت هياكلها فحسـبها العالم أثقالاً علـى ظهرها، وهي حصـونٌ حول دهرها؛ وظنَّها مقابر أكبر من الموت والفناء، وهي كأنَّها على التَّاريخ مهد يُولد فيه البقاء!

***

إلى مصـر التي غلبت الدَّهر بهذه الآثار، حتـى قتلت أربعين قرناً في معركة اللَّيـل والنَّهار، وبقيت كأنَّما تقول للسَّـماء: إنْ كانت نجومك الخالدة لهيباً؛ فإنَّ نجومي أحجار!

***

إلى مصـر التي يجري فيها النِّيل كأنَّه جانبٌ من السَّـماء اندفق فسـال، أو ذهـبٌ تحوَّل ماءً فهو ماءُ المال؛ أو رسـالةٌ من رحمة الله إلى هذا التُّراب، أو تحيةٌ من الله جلَّ جلاله يُرسلها كلَّ سَنةٍ إلى أهل مصر مع السَّحاب.

(1) عثرنـا علـى هـذه المقالة –التي هي مقدمة لنشـيد الرَّافعـيِّ- وبعض المقالات التي تليه في صـدر كتاب (ملاحظـاتٌ علـى القانون النِّظاميِّ) تأليف سـعد زغلول بعد إعادة نشـره، وقد سـبق طبعه في فبراير 1919م في مطبعـة الصَّـباح بالقاهرة، ثمَّ بدا للقائمين على أمره أنْ يُصـدِّروه بمقالات للرَّافعيِّ وأحمد زكي باشا.

***

إلى مصر التي هي روضة الدُّنيا بخصبها، وتبرُ هذه الأرض بتُرْبها، والوادي الأغنُّ الذي لو أطلق الله طائراً من جنَّته لَمَا نزل إلا فيه، ولو سُئِلَ الكوثر عن نَسَبِ نيله السَّعيد؛ لقال إنَّه ابن أخيه.

***

إلى مصـــر التي قيل إنَّها أرض السِّــحر لأنَّها ضعيفةٌ ولا تزال بضعفها غالبةٌ وباقيةٌ، والأمم في الأمم ذاهبةٌ، وكلُّ أرضٍ لها في إعراب الدَّهر حركةٌ واحدةٌ ومصرُ وحدها رافعةٌ خافضةٌ ناصبةٌ.

***

إلى مصـــر التي أنجبت (ســعدها)؛ فأنجزت للتَّاريــخ وعْدَها، ورأت النَّاس يتجاهلــون أهلها؛ فجاءتهم من بطلها بعِلْم، وأنكروا معجزاتها فرَمَتهم منه بحربٍ في سِـلْم، وأَرَتْهم بـ(ســعد) أنَّها متى شاءت بَنَت الرِّجالَ على طريقة الهرم، وأخرجت من روح نيلها جمراً ذا ضَــرَم، وصوَّرت التَّاريخ حيّاً، ولكنْ في جسدٍ من لحمٍ ودمٍ.

***

إلى مصر التي ينطق باسمها سعد باشا،

أُهدي هذا النَّشيد الذي وضعتُهُ باسمِ سعد باشا.

زَهرةُ الاستقلالِ[1]

يكون الشِّـتاء كما هو ويَعتصـر السَّـحاب لأنَّه يغسـل الأرض للرَّبيـع، فكأنَّ الأرض تظلُّ في حمَّام الشِّتاء بضعة أشهر، وقد كان في شتاء نهضتنا المصريَّة عواصفُ وبروقٌ ورعودٌ وأمطارٌ، وكان (سعد) فوق غيومها وهو اليوم كأشعة الشَّمس في الربيع تفتَّحت به القلوب كلُّها.

وهناك على غصـن التَّاريخ في هذا الربيع النَّاضر نبتت زهرةٌ غضَّةٌ لا تزال في كِمِّها، اللهم فلتكن زهرة الاستقلال.

(1) ملاحظاتٌ على القانون النِّظاميِّ، مرجع سابق، ص 10.

كتاب صاحب النشيد إلى معالي الرئيس[1]

مولاي الرئيس الجليل..

لقد وضـعتُ نشيدًاً مصريّاً تيمَّنتُ له بالسَّعد من اسمك الكريم، واستوحيتُه من روحك فكَبُر عن شعر الشَّاعر بحكمة الحكيم، وأخرجتُهُ لُمْعَةً اقتبستُها مـن نـورك، وقطعـةً نظمتُها من سـطورك، فكنـتَ كلَّ معانيـه، وكان بعضَ معانيك، وجاء كالكوكب السيَّار إلا أنَّه تلألأ في سماء معاليك.

ولا أقـولُ إنِّي اسـتوعبتُ في ألفاظـه ووفَّيـتُ؛ وإنَّمـا بنيتُه لتمثيـل الحقيقة الوطنيَّة حين بنيت؛ فإن قصَّـرتُ في هـذه الأبيات فلتمثيل الحقيقة العُظمى كان يرفـع إبراهيـمُ القواعد من البيت، وإذا مثَّلتُكَ بالـكلام؛ فما أطمعُ أنْ أجيء بالنَّجم على سِـنِّ القلم، وإذا حكيتُ صـفير النَّسْـرِ بشـعري فهيهات هيهات، والنَّسْـر بين السـحائب والقمم، ولئن ارتفعتْ صفاتُك عن كلامنا؛ فإنَّ انخفاض الكلام يشـرِّفُه ارتفاعها، وإذا كنتَ كالشـمس؛ فما نقول إنَّنا بلغناها؛ ولكنْ هبط إلينا شعاعها.

ومـا أردتُ بإظهـار نشـيدك إلا أنْ تظهـر في كلِّ فـرد مـن الأمـة على قدر اسـتعداده، ويبقى اسمُك الجليل مع كلِّ مصـريٍّ على الدَّهر ليكون مصدراً من مصادر إمداده.

ويقولون إنَّه نشـيد يُقربُك من الأجيال الآتية، وأنا أقول إنَّهم هم يتقرَّبون به إليك، ويجدون منه الوسـيلة لتقبيل اسـمك المحبوب إذْ لا يسـتطيعون مثلنا تقبيـل يديك، ويعلمون في كلِّ زمنٍ من شـرح هذا الاسـم الكبـير أنَّه الرَّجل

---

(1) المرجع السابق ص 11، وقد أرسل سعد باشا زغلول إلى الرَّافعيِّ خطاباً جاء فيه:

«حضـرة الأديب الفاضل مصطفى الرافعيِّ. قرأتُ هذا النَّشيد الذي ألَّفته، والخطاب الذي أرسلته؛ فرأيتهما جديرين بأدبك، ولكنَّهما فوق ما يستحق. فلك مني وافر الشكر، ومن الله حسن الجزاء. (سعد زغلول – جبل طارق في 13 يناير 1923م)»(انظر صورةً ضوئيةً للخطاب، المرجع السابق ص 15).

الذي خطَّ قلم الأزل كتاب نهضــتهم بيده الكريمــة، واختاره الله للأمَّة كما اختار الأنبياء؛ إلا أنَّه نبيٌّ الفكر والعزيمة.

وقــد انبعثــتْ في البلاد دعوةٌ لجعل صــوتك في هذا النَّشــيد صــوتَ البلاد، واتخاذ ما فيه من معاني المجد شعاراً لمن فيها من الأمجاد، وهم يبتغون من وراء ذلك ألَّا يزال اســم (سعد) مع كلِّ مصريٍّ كالكلمة الأزليَّة في فمه، وأنْ تظلَّ أحرفه الثلاثُ «السِّين والعين والدَّال» كأنَّها من سريرتِه وعينِه ودمه.

وأكــبر فخــري أنْ يكــون نوركم ســطعَ في قلمــي، وعزيمتكم خاطبــت الأُمَّة بكلِمي، وأنْ ترى مصــر نشيدي كطلعتكم ســعداً، وإذا غامت الحوادثُ صار فيها كصوتكم رعداً.

لا زال اســمك يا مولاي الرئيس يكتبه في حسنات الألسنة ملكٌ بعد ملكٍ، ولا زال في عنوان نشيدك على الدَّهر كأنَّه نجمٌ في قبةِ فَلَكٍ .. والسلام.

سعدُ باشَا زَغْلُول[1]

سعدٌ وما سعدٌ إلا توقيعٌ من يد الله على صحيفة هي حكمٌ من أحكام السَّماء، ولا يزالُ من آيات الله في الخلق أنْ يجعل كبار الأفعالٍ لكبار الأسماء، وإذا أرسلت السَّماء أحكامها العظمى إلى الأرض خَلَق الله لحَمْل كل واحدٍ منها واحداً من العظماء.

سعدٌ وما سعدٌ إلا مبدأُ هذه الأمة، وتاريخٌ مُتجسِّمٌ في رجلٍ ورجلٌ مُتجسِّم في همَّة؛ ولو أنشِئَتْ محطات كهربائيةً لبَرْقِ القضاء والقدر لكان فؤاد سعد إحداهـا، وهـو بهذه الخاصـيَّة أينما وُجِد لا تتخطَّى جهته أفكار الأمة ولا تتعدَّاها.

***

ليس يُحْصِي أساليب الله في نظام الكون إلا الله؛ وكما أنَّ من أساليبه تَغَيُّر الفصول فمن أساليبه تَطَوُّر الرِّجال، وكما أنَّ منها العاصفة التي يلدها النَّسيم؛ فمنها الفكر الذي يكبُرُ في قلب الرَّجل العظيم، وكما أنَّ منها الأنبياء والحكماء؛ فمنها اليوم لمصر سعد باشا زغلول.

وإذا كان عظماء الخلق يُمثِّلون في بعض حوادث الشُّعوب أنواعاً من نظام الخالق؛ فما يُمثِّل سعد باشا في جسم الأمَّة المصريَّة إلا نظام القلب.

***

آيةُ الرَّجل العظيم أنْ تُشرق روحه أمامه إلى مسافة بعيدة بنورها الإلهي؛ فلا تكاد تُبصره أو تُدانيه حتى يأخذك بأخذه، ويمتلكك منه شيءٌ لا تدري ما هو، وتُحسُّ كأنَّ في نفسك شيئاً من نفسه.

---

(1) ملاحظاتٌ على القانون النِّظاميِّ، مرجع سابق، ص 7.

وما أُحيط هذا العظيم بإشراقِ روحه إلا ليتَّصل بأرواح النَّاس؛ إذْ هو مخلوقٌ لها أكثر مما هو مخلوقٌ لنفسه، وإذْ هو أسلوبٌ من سعادتها التي تقدر لها. فالـرُّوح العظيمـة التـي يحملها (سـعد) تُشـرق أمامه على مدِّ ما تنفسـح خريطة مصـر، حتى كل مصـريٍّ في نـوره، وحتى كأنَّ في نفس كلِّ مصـريٍّ شيئاً من عظمةِ نفسه.

***

لا ترى الأمة في (سعد) إلَّا مظهر أفكارها، وإلَّا صور الرُّسوم التي في فؤادها يُلوِّنها الضَّـوء من ألفاظه ومعانيه؛ ولا يرى سـعد كذلك في الأُمَّة إلا مظاهر فكـره ورسـوم عواطفه، فالأُمَّة مجتمعةٌ في سـعد، وسـعدٌ متفـرِّقٌ في الأُمَّة، وشخص سعد نفسه ليس إلا حجاباً إنسانيّاً بين ما وراء قلبه وما أمام قلبه، وهـو في الأُمَّة قريبٌ مما يكـون النَّبيُّ من الأنبياء حـدّاً قائماً بين قطعةٍ من هذه الدُّنيا وبين اللانهاية.

***

الفجـر ينبثق عن نهارٍ، والبذرة تتفطر عن شـجرة، والنَّبع ينسـاق بالنَّهر، وكلُّ شـيءٍ هو كامنٌ في شـيءٍ، والآخر في أولِّه، والغايةُ مهما بعدت فسـبيلها الخطـوة الأولى، ولقد كانت نهضـة (سـعد) فجر آمالنـا، وكان عمله بذرة أعمالنا، وكانت عزيمته منبع استقلالنا؛ وكان هو الأول لما نرجوه من الآخر، وكذلك كان في غاية الغايات هو الخطوة الأولى، فمصـر كلها تسـأل الله أن يحفظه لها إلى ما بعد الخطوة الأخيرة.

مثالٌ صغيرٌ من عَظَمةِ سعدٍ[1]

غابَ سعدٌ عن مصر سنتين يعمل في تاريخها ثمَّ آب إليها؛ فاستقبله من تاريخها بيومين كان في كلٍّ منهما روح الدَّهر كلِّه، وغدت مصر في يوميها ما يجتمع اثنان من أهلها إلَّا كان سعدٌ لهما ثالثاً.

يومان أحسَّ فيهما الشعب المصريُّ أنَّ له رجلاً عظيماً؛ فدخل على قلبه من العظمة دولة جعلته دولةً كبرى، وأحاط به من نبوغ رجله معنى الخلود، وتمثَّل له في قوَّة البطل معنى النَّصر، وأراه ابن مصر كيف ينبغي أنْ يكون ابن مصر، وانبعثت في نفسه حركةٌ هي بعض ميراثه التَّاريخيِّ عن أسلافه العظماء؛ فخرج الشَّعب كلُّه للقاء سعد، واندفع بعاطفة طبيعيَّة يطلب لظلام حريته مظهر النُّور، كما تتحرَّك كلُّ نفسٍ لرؤية شمس الشِّتاء إذا طلعت والتعرُّض لها والاستشراق في نورها بعد فجرٍ لفَّه الضَّباب في ذيل الليل.

رأيتُ الشَّعب ورأيتُ سعداً؛ فأمَّا الشَّعب فلاحَ لعينيَّ رجُله العظيم كأنَّه في مقدار أكبر أمَّة في الأرض، وظننتُ وأنا أراه وأعجبُ به أنَّ الدَّهر وضع شيئاً جديداً في أرض السِّحر، وأنَّ التَّاريخ كان نائماً فاستيقظ، وأمَّا سعدٌ فرأيتُهُ شخصاً تاريخيّاً من العِظَم والقوَّة والمجد في مقدار يومه الذي أبطأ على مصر في دورة الفلك أربعة آلاف سنة.

وأحسبُ أنَّه لا يعرف شخصَ سعدٍ وماهيَّتَه في هذا اليوم العظيم ولا سعدٌ نفسه، ولو هو وقف أمام المرآة وفي نفسه الكبيرة ما فيها لرأى عليها يومه لا شخصه.

وبالأمس رأيتُ منه ومن الشَّعب صورةً بديعةً في رَجُلين أقصُّ حكايتهما بإيجازٍ لا أعدو فيه نقل صورتيهما إلى القُرَّاء:

---

(1) ملاحظاتٌ على القانون النِّظاميِّ، مرجع سابق، ص 60.

كان أحدهمـا راجعـاً من الإسـكندريَّة، وقد رأى البطل هنا وسـمعه وحيَّاه، وملأ منه عينيه وأذنيه، وأفاضـه على نفسـه من كلِّ جهاته، وكان الآخر قد انقطعتْ به الأسباب في بلده فلم يبرحها، ونبَّأه سوءُ حظِّه في ذلك اليوم على غير أسـاسٍ، وجلس إليه صـاحبه يُحدِّثه ويصف له، ويحاول أنْ ينقل البحر بالقلم الأزرق. المحدِّث قصـيرٌ قميءٌ يُرى بين الرِّجال الواقفين كأنَّما بقيت منه بقيةٌ لم تُولد، وأحسب لو نُشر عليه عددٌ من جريدة الأهرام لتركه رجلاً ثلاثة أرباعه من الورق، ومع ذلك فإنَّه ليجلس مزهوّاً ينتفخ ويربو في ثيابه؛ لأنَّه يُحدث عن سـعد، كأنْ قد رأى مائة ألف أو يزيدون؛ فهو يجهد أنْ يكون لسـانهم جميعاً في حديثه، وأنْ يأخـذ نَجِيَّه بأفقٍ من الكلام ذي برقٍ ورعد، ويـروي من وجهه ههنا وههنا، ويصـبُّ عينيه عن الرَّجل صـبّاً، والرَّجل في كلِّ ذلك ينتفض، ويمدُّ بصـره كالذي يريد أنْ يـرى ما في الغد، ويُميل أذُنه كالذي يحاول أنْ يسمع ما في الأمس.

ورأيتُ المحدِّث بعد أنْ فرغ من صـفات النَّاس، وانتهى إلى الكلام عن سعد؛ قـد عظم وأشـرق وانبسـط من نواحيه، كأنما اسـتفاض سـعدٌ مـن خياله وانسـدل عليه فلبسـه لبساً، ونسـي قِصَرَه فهو يَسْـتَوفِز[1] ويطول، وإذا هو يتحدَّث على هذا الاعتبار ويُلقي على صاحبه الذي يجمع في شخصه خضوع الأمة كلها، وكأنَّه يُلقي خطبةً على المُصلِّين من ذؤابة المنبر.

وجـدَّ به الجَدُّ حين مثَّل سـعداً يخطب في أبنائه من الطَّلبة؛ فنفخ شـدقيه، وتهدَّلت شـفته، وقعَّب فمه، وأخرج أكـثر روحه في وجهه، وطفق يرعد مرَّةً، ويستكين مرَّةً، وخُيِّل إليَّ ساعتئذ أنَّ للمُلك صناعة، وأنَّ هذا نوع منها يجعل به الرَّجل نفسه ملكاً في رأي نفسه، أو تجعله نفسه كذلك.

---

(1) وَفَزَ واستَوْفَزَ في قِعْدَتِه إذا قَعَدَ قُعُوداً منتصباً غير مطمئنٍّ.

ورأيتُــه يُحاول أنْ يفهم صــاحبه أنَّه الآن ليس فلاناً ابن فلان الذي يتَّصــل نســبُ بيتيهما بالحائط والجدار؛ بل هو من ســعد زغلول، ولا يدخل الكلام عن سعدٍ في هذا الرَّأس إلا من هذا اللِّسان.

أما المســتمعُ فذهب مع الحديث كلَّ مذهب، وطال خشــوعه واســتكانته، وما راعنــي إلا انقلابه يريد أنْ يأخذ هو أيضــاً قِسْــطَه من تمثيل ســعد؛ فابتدأ يصــف حماســة الأُمَّة وكيف تكون، ثمَّ تطاير عن نفســه وكدَّها كدّاً شديداً، وضــرب الضَّربة الفاصلة؛ فإذا هو قد جعل صــاحبه يُصغي إصغاءَ المأموم للإمام، وانبعث فصار في لحظةٍ سعداً أو كسعدٍ.

غـير أنَّ هذا الانقلاب شــقَّ على نفس الآخــر، وهو الذي رأى وســمع؛ فأبى أنْ تخمد العاصــفة في بضــعة أنفاس، وراغ فأَنْبَط للحديث مجرى دفع فيه، واشــتقَّ فرعاً من الوصــف ظهر كأنَّما أُنســيه من قبل، ورجع فصــار سعداً، وأكره المسكين على أنْ يكون الشَّعب مرةً أخرى!

***

تنافس الرَّجلان في ســعد، وفي اســتعداد العظمة منه، وفي اتصــال روحيهما بروحه، وصــار كلاهما سِياســيّاً وبليغاً وحرّاً؛ لأنَّ سعداً سياسيٌّ وبليغٌ وحُرٌّ، وهكــذا يُخلق التَّاريخ من قلوب النَّاس، فمتى انبعــث التَّيار جرى النَّهر ملءَ شــاطئيه، ومتى وجد بطل الشَّعب أوجد التَّاريخ معركة الأسبابِ والمسبِّبات، ومتــى ظهر الرَّجل العظيــم الذي تتنافس فيــه الأُمَّة ظهرت الأُمَّة بنفســها الواحد ينتهي بالعدد إلى ما لا يُعدُّ ولا يُحصى لكثرته، والرَّجل العظيم الذي يجعله التَّاريخ أولاً أُمَّة هو واحد العدد كلِّه فيها، فجئْ به يُعطِك ما شئتَ.

إنَّ الأُمَّة متى قالت: واحد؛ قال التَّاريخ: اثنان ثلاثة .. إلى أنْ يعدَّها كلَّها أو أكثرها رجالاً.

جُنودُ سَعدٍ[1]

استفاض بين النَّاس أنَّ معالي سعد باشا ذو جنود، وأنَّه هو وقَبيلُهُ يُطلقون اسم (جنود سعد) على فئةٍ أمدَّه الله بها، تنصره بالرُّعب، وتبتلي خصومه بالأذى، وتتدسَّس إلى مكروههم بأنواع البلاء، وهم طائفة الشـرِّ في خيرِهِ، وجنود الحرب في سياسته، على أنَّهم لا ينشرون دعوة الإسلام، ولا هو بالجهاد في سبيل الله، ولا هو بحرب الرَّأي والعقيدة تحت لواء من جناحيْ جبريل يبسطه على المشرق والمغرب.

ونحن وإنْ كنا نَكْبُر سعد باشا ونُكبِّر ونُهلِّل لجنوده؛ غير أنَّنا لا نرضى له أنْ يُسمِّي طائفة من قومنا بـ(جنود سعد)، ونحن من أهل هذه اللغة العربيَّة، ومن السَّاعين في نشرها وإثارة دفائنها، فإنَّ المطَّلع على اللُّغة يعلم أنَّ تلك التَّسمية من أقبح ما يُسبُّ به، وكأنَّ الله تعالى إذْ علم أنَّه سيُجريها على لسان سعد باشا؛ خلق الردَّ عليها، وقذف به في أفواه العرب قبل أنْ يولد معالي الرئيس بأربعمائة وألف سنة، وكانت الكلمة في عالم الخلق يوم كان معاليه في عالم الذَّر.

فلقد كان العرب من جاهليتهم إلى إسلامهم إلى عجمتهم يُطلقون لفظة (جنود سعد) - التي يفخر بها اليوم معالي الرئيس- على الحشرات والهوامِّ المؤذية التي يجيء بها الصَّيف، وينشر بها اللَّذعات واللَّسعات والمؤذيات، إلى ما يجلب الأمراض ويُدني العلل، وما عسى أن يكون سبباً في وباءٍ مجتاحٍ، أو بلاءٍ يحلق النَّاس حَلْقَ الشَّعْر.

---

(1) حسب ما أورده أبو ريَّة، فقد كتب الرَّافعيُّ هذه المقالة بصحيفة الأخبار في العام 1921م تقريباً لمناسبة اتخاذ سعد زغلول مجموعة أطلق عليها (جنود سعد) لإرهاب خصومه، وقد تعرَّضت لابن عمه أمين الرَّافعيِّ بك بنوع إيذاء؛ فكتب الرَّافعيُّ هذه المقالة بدون توقيعٍ، ثمَّ اعترف بكتابتها في رسالته لأبي ريَّة. راجع: رسائل الرَّافعيِّ ص 77-78.

نقل الجُرْجاني في كتاب (الكنايات) المطبوع بمصر مع كنايات الثَّعالبيِّ صفحة 130، قال: العرب تُكنِّي عن الحشرات بجنود سعد، ثمَّ علَّل ذلك بقولهم: إنَّهم يُريدون سعد الأخبية (وهو من منازل القمر)، قال: لأنَّه إذا طلع انتشرت الهوامُّ!!

قال الشَّاعر:

قد جاءَ سعدٌ مُؤْذِناً بِشَرِّه
مُؤذِنَةٌ جنودُهُ بضُرِّه[1]

وفي رواية «: بحرِّه»، ولا وجه لها، وإنَّما هو تحريف.

فلنتقدَّم إلى معالي الرئيس أنْ يعفي قومنا من هذه التَّسمية، ويختارَ لهم غيرَها، إلا أنَّ يكون معاليه من كبار علماء اللُّغة وأهل الاطِّلاع والتَّحصيل وقد عثَر على هذه التَّسمية فابتعثها ليعلم النَّاس أنَّ القَدَر كما ينزل من السَّماء على النَّاس يدبُّ إليهم بهؤلاء الجنود من بيت الأُمَّة (بيت سعد باشا).

وأرجو ألا أكون قد جنيت على اللُّغة بهذه الكلمة فيقابلها القوم بقولهم: لا لغة إلا سعد!!

---

(1) راجع: كنايات الأدباء وإشارات البلغاء للقاضي أبي العباس أحمد بن محمد الجُرْجاني، ص ٤٠١ والرِّواية هناك: مؤذنة جنوده بحرِّه.

سَعْدٌ[1]

مات الرَّجل الذي كان مخلوقاً لأحلام السِّياسـة المصـريَّة، حتى كأنَّه كتابٌ يقـرأ فيـه التَّاريـخ الـذي لم يُخلق بعـد، وكأنه رُسـم بيد الله علـى طريقة المصـوَّرات الجغرافيَّـة في قياسـ وتدقيق؛ لترى فيه مصـرُ الحاضـرة أين تذهبُ بها خطوط الغيب، وإلى أيِّ النَّواحي يدفعها القَدَر.

مـات الرَّجل الـذي كان يفـرح النَّاس بـه فرح أهل المشـكلة أعضَـلَت حتى استيأسـوا منها، وتناولت كلَّ قلبٍ بعقدة همٍّ، ومَدَّت على كلِّ وجهٍ خيطاً من كآبة، ثمَّ يُصـيبون قدرة الله في رجلٍ عظيم مرسـلٍ منه سـبحانه لقدره في الحادثة العظيمة، فإذا الرَّجل أسـمى منهمٌ ومن نفسـه؛ لأنَّه أملٌ وتيسـيرٌ، ولأنَّهم في حاجةٍ وشدَّة.

مات سعد، فيا رحمة الله لسعدٍ!

أكانت مصر في حلم من أحلامها انفرج فيه ستار الغيب فإذا سعدٌ قد اطَّلع عليها، وإذا هي قد ظفرت مما فوق المادة برجلٍ في إحدى يديه السِّـحر وفي الأخرى المعجزة، ثمَّ انسـحب الحلم، فـإذا للرَّجل مواقف يندمج عندها في قـوَّة الكـون، فلا يزال يمضـي في الحوادث ويعـزم حتى نقول إنَّـه رجلٌ من أقدار، ويُضـيء للسِّياسة ويُظلم حتى نقول إنَّه رجلٌ من ليلٍ ونهارٍ، ثمَّ تنفَّس الحلـم؛ فـإذا البطل جبَّارٌ من هذه الأعاصـير، وإذا هو يطـير فيكاد كلُّ ما يلمسه على الأرض يطير.

(1) الحديقـة، ج5، العدد الخامس، 15 جمادى الأولى 1346 هـ = 1 يناير 1930م، ص 173–178. وقد أخبر أبا ريَّة في رسالة مؤرَّخة في أول أكتوبر 1932م أنه يعمل جاهداً على إصدار كتاب (الأدبيَّات) ليشمل كلَّ ما كتبه في الأدب كمقالته عن حافظ إبراهيم ومقالته (سر النُّبوغ)، وسيستبعد المقالات التي لا صلة لها بالأدب كرثاء سعد زغلول، انظر: رسائل الرَّافعيِّ، ص 240–241.

ثـم يتضـرَّم الحلم فـإذا عبقريٌّ كالجمـرة الملتهبـة لا يُقال إنَّـه يعيش؛ بل يحـترق، ولا يجتمع في النُّور إلا ليتبـدَّد ويفترق، ثمَّ يتندَّى الحلم؛ فإذا رجلٌ من الرِّقة كالروض فأنت منه في نسـائم عطـوره، وإذا كتابٌ من الفكاهة لو تُرجـم إلى الطَّبيعة لكانت الأزاهر من سـطوره، ثمَّ تهافـت الحلم؛ فإذا ما جاء من النُّور قد غاب في النُّور، ثمَّ اضمحل وتلاشى؛ فإذا الغطاء على هذه الدُّنيا كلها قبرٌ من القبور!

يا رحمة الله لسعد!

كان رجـلاً مـا نظر إليه إنسـانٌ إلا بعينٍ فيها دلائل أحلامها، كأنَّه شـخص فكرة لا شـخص إنسـان، فإذا رأيتَه كانً في فكرك قبل أنْ يكون في نظرك، فأنت تشهده بنظرين: أحدهما هذا الذي تُبصر به، والآخر ذاك الذي تُؤمن به!

رجل كأنَّما كان يمسـك في جسـمه زلزلة فهـو أبداً يرتجُّ، وهو أبـداً يَرُجُّ ما حوْلَـه، فلمَّـا مات انطلقتْ فتركـت الأُمَّة على هزةٍ عنيفةٍ تشـعر كأنَّ معاني الحياة يرجع أعلاها على أسفلها، أو يوشك أنْ يرجع.

كان قـوةً عامَّـةً لا بدَّ من فعلها في كلِّ حيٍّ تحت هـذا الأفق، حتى كأنَّ معاني نفسـه تنتشر في الهواء، أو كأنَّه محطٌّ لبرقيات إلهيَّة يخاطب بها قَدَرٌ قَدَراً، وتدعو منها حادثةٌ حادثةً، قوةٌ مرسـلةٌ لا تُمسـك، ماضيةٌ لا تُرد، مقدورةٌ لا يُحتال لها بحيلة، فلا يُقال في مثله إنَّ له محاسـن وعيوباً؛ بل محاسـنُهُ هي محاسـنه من أنَّه قوةٌ لا بدَّ له من ضـعف الإنسـان؛ لأنَّه خلقٌ إنسانيٌّ، وتكاد معايب الرَّجل العظيم تكون ظلال حسناته، فهي منها ولن تكون إلا بها.

فإذا كان لسـعدٍ هنَّاتٌ فليسـت من خطـأه؛ ولكنَّها طبيعةٌ مـن ناموس النُّور الذي كان فيه.

يا رحمة الله لسعد!

إنَّما كان رَجُلَ الشَّعب؛ فكان كلُّ مصريٍّ يُحسُّ أنَّه يملك فيه ملكاً، فيَشعر من ذلك أنَّ له كبرياء وعظمة وطنيَّة.

كان الذَّات المتَّسعة التي لا يعرف لها معاصروه حدوداً؛ لأنَّها ذات التَّاريخ المتشبِّعة في الماضي، والمستوعبة للحاضر، والمترامية إلى المستقبل، فيها ذكرى المجد الوطنيِّ والعمل له والأمل فيه.

وكان من قومه في إكبارهم وإعظامهم، كأنَّه وإيَّاهم رجلٌ خُلِق وصُنعوا، أو رجلٌ صُنع وخُلقوا، لابدَّ من أنَّ يباينهم حتَّى في وجوه الشَّبَه بينهم وبينه، وبذلك بلغ ما لم يتمنَّاه إليه الأمل، وكانت قاعدة تمثاله الشَّخصيِّ قلوب أُمَّة كاملة.

يا رحمة الله لسعد، إذْ يجود بنفسه وتزمزم شفتاه «أنا انتهيتُ، أنا انتهيتُ!» أُقسمُ ما تكلَّم سعدٌ بأبلغ ولا أبدع ولا أدقَّ من هذه الكلمة، على إقراري أنَّ خطيب الشَّرق ولسان العربيَّة انتهى منه ما يُسمى «أنا»؛ ليبتدئ فيه ما يُسمَّى هو، انتهى الذي آخر حدوده الذَّات الفانية، ليبتدئ الذي أوَّل حدوده الفكرة الخالدة.

انتهى ما كان ابتدأ في التَّاريخ؛ ليعمل بالتَّاريخ فيما لا ينتهي!

إنَّها بلاغةٌ خرجت فيها روحٌ عظيمةٌ، فهي منطويةٌ على سرٍّ دقيقٍ، حتَّى كأنَّه جملة وقعت من السَّماء، فعليها روعة الوحي، وفيها دقائق الإعجاز، أو هو اقتبسها من لغة الخلود ليُرسلها في آخر حركة من حركة لسانه!

يقول: أنا انتهيتُ، أمَّا أنتِ يا أُمتي العزيزة فباقيةٌ؛ فاعملي ولا تيأسي.. أنا انتهيتُ؛ أمَّا أنت يا أمتيَ العظيمة؛ ففكِّري كل يوم أنْ تبدأي في الحياة بدءاً جديداً!

أنا انتهيتُ، أقولهُا يا أُمَّتي، لتعلمي أنَّ وصـــايتي الأخيرة إليك ألَّا تقولي أبداً «أنا انتهيتُ»؛ لأنَّ هذه كلمة الموت!

يا رحمة الله لسعد!

وسلامُ الأمَّة في سلامِ اللهِ عليه

في صَاحِبِ صحيفةِ النَّاسِ[1]

الأســتاذ حسين شفيق المصريُّ[2] الذي يُمتع الأمة بهذه الصَّحيفة (جريدة النَّاس) ماجِنٌ[3] ظريفٌ، ولو تقدَّم به الزَّمن لتهاداه الملوك والأمراء؛ فقام على بســاط مُنشــداً، وجلس على آخــر نديماً، وتقلَّب على الثَّالث مضــحكاً، وعربَدَ على رابعٍ، وجُلِدَ على خامس -ولعلَّ الله أخَّره إلى دهرنا رحمةً به أنْ يأمــر أحــد الملوك فيملأوا فَاهُ دُرّاً بعد أنْ فرغ من إنشــاده المُعجِب المُطرِب- ويشــره هو إلى الــثَّروة والغِنَى فيفتح فمه إلى أقصــى الحلق فتدخل اللآلئ وتخرج الحياة.

وهذا الأديب في عصــرنا إنَّما هو بقيَّــة فنٍّ من أبدع فنون الأدب، كما كان لا ينبغُ فيه إلا عقولٌ معدودةٌ لا تقصــر في حكمة الــكلام عن غاية، ولا تتخلَّفُ في ظــرف البلاغة عن شــأو، ولا تجيء بما تأتي إلا على الأســلوبٍ الذي يهزُّ النَّفس من طرفيها، كأنَّ الله قد وهبها ســرَّ القدرة على ما يعســر وما يُؤلم؛ فــلا تتنــاول معنــىً إلا انشــقَّ لها عن فنــون غريبَّــة تُهديها إلى مــا فيه من الضــحك الذي لا ينكشــف إلا للنَّفس الشَّــاعرة، والتهكُّم الــذي لا يظهر إلا للنَّفس الحكيمة، والمزاج الذي لا يبدو لغير النَّفس الظَّريفة.

وما الشِّــعر والحكمة والظُّرف إلا أســرار ذلك الأسلوب النَّادر الذي لا ينقاد إلا لأعقل العقول متى أُريد به استخراج المعاني المجنونة من الطَّرب.

---

(1) نشــر هذه المقالة محمود أبو ريَّة بعد نحو 25 عاماً من نشــره بجريدة (النَّاس)، انظر: الرِّســالة، السَّنة السَّادسة عشرة، العدد 800، 29 ذو الحجة 1367 هـ = 1 نوفمبر 1948م، ص 1250-1251.

(2) حســين شــفيق المصــريُّ (1882 – 1948): كاتبٌ وشــاعرٌ ســاخرٌ، ولد بالقاهرة لأبوين تركيَّين، ترأَّس جمعيات الزَّجل، عمل في عدة صحف ومجلات، كما أصدر أخرى، منها: (السَّيف)، و(الأيام)، وترأَّس تحرير مجلة (الفُكَاهة) و(كلُّ شيءٍ) و(العالم). انظر: معجم البابطين 716/6.

(3) يقصد ظريف كثير الهزْل وليس المعنى المتعارف عليه وهو الخلاعة.

فالبلاغة الظَّريفة الماضية التي بعضها من سياسة وَخْزِ الإبر، وبعضها من سياسة الظَّهر والعصا؛ قلَّما تستجيب إلا للعقول المبتكرة التي خُلقت متسلِّطة على النُّفوس من أقرب جهاتها، وهذه العقول لا تسرف القوَّة الأزليَّة في خلقها؛ بل هي حين ترحم النَّاس بها؛ فتجعلها قليلةً نادرةً.

وإنَّك لتجد أهنأ الضَّحك ذلك الذي ينفجر من القلب، ولكنَّه إنْ طال انفجر القلب، ولستُ أعرف تلك العقول إلا في كبار رجال السِّياسة الذين يُدبِّرون أمر الممالك، وفي كبار رجال الأدب الذين يُدبِّرون أمر العواطف، وفي كبار رجال الفلسفة الذين يدبِّرون كلَّ شيءٍ ولا يُدبِّرون شيئاً!

فمن أي أولئك نعدُّ (حسين شفيق) هذا الذي لو تألَّفت من رؤوس الأدباء صيدليَّةٌ لطبِّ الكلام لكان هو (دولاب السُّموم) فيها!

لا نعرف من أمثال كاتبنا هذا في تاريخ الأدب على تقادم الزَّمن إلا قليلين يُسمُّونهم أصحاب النَّوادر، وقالوا إنَّ المشهورين منهم: ابن أبي عتيق، وأشْعَب، وأبوالغُصْن، وجُحا، وأبو العِبَر، وأبو العَنْبَس، وابن الجصَّاص، ومزيد المدنيُّ، وهم ثمانية.

فإذا توسَّعنا وأضفنا إليهم الشُّعراء الماجنين: أبا الرَقْعَمَق، وصريع الدِّلاء، وأبا الحكم الجاهليَّ، والإسطرلابيَّ، وابن حجاج؛ فلا نكون قد زدنا في القليل إلا قليلًا، فإذا استقصينا بغاية الاستقصاء، وتمَّمنا عليهم بأصحاب الأجوبة المُسكِتة كأبي العيناء ونظرائه؛ فلا نزال حيث كنَّا.

ولا يذهبَنَّ عنَّك أنَّنا لا نعد إلا المشهورين الذين أُوتوا مُلك النَّادرة، لا بالرقاعة والحمق؛ ولكن بالأدب والبلاغة والشِّعر والحكمة، وتوجيه كل ذلك إلى الجهة الضَّاحكة المسفرة من الحياة.

ثم إنَّ لهذا الأديب بعد ذلك فضلاً كثيراً على العربيَّة، إذ يُمكِّن لها بين قرائه

من العامة وهم ألوفٌ كثيرةٌ، وينشر الفكاهة بمقالاته القصيرة في أذواقهم وألسنتهم، ولا سبيل إلى إحياء العربيَّة في هذا العصر إلا أن نجعل العامَّة أشبه بالعرب المُلوَّحين[1]، لا يُنكرون الفصيح ولا يأبونه لمكان طباعهم، وإنْ كانوا لا يستطيعونه على وجهه لمكان ألسنتهم.

فجريدة (النَّاس) صحيفةٌ من الصُّحف؛ ولكنَّها مع ذلك ناموسٌ اجتماعيٌّ عظيمٌ دائبٌ في ترقية الطِّباع والأذواق، ولو أنَّ لها من القُرَّاء عددَ مَنْ عندنا من العامَّة؛ لكان ذلك من فضل الله علينا وعلى (النَّاس).

(1) هم العرب الذين لوَّحتهم الشَّمس أي سفعتهم وأثَّرت في بشرتهم لمكان إقامتهم في البادية، لا يُنكرون الفصيح ولا يأبونه، ولا يستطيعون لعدم تعلُّمهم.

مع الكُتُبِ والكُتَّابِ

أَعْجَبُ العَجَبِ[1]

الحمد لله الذي اختار العرب ليختار منهم أفضل أنبيائه، واصطفاهم بما شاء من مواهبه ليخرج منهم أكرم أصفيائه، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد الذي نشأ في قومه أُمِّيّاً، وجلست الأُمم بين يديه تتعلَّم، وجاء بكتاب الله عربيّاً؛ فلا يزال لسان العرب إلى آخر الدَّهر يتكلَّم، وسنَّ للدُّنيا مكارم الأخلاق فلا تزال الدُّنيا تقول:

أمَّا بعدُ فهذا قريضٌ من الشِّعر في هذه الرِّسالة نفثتهُ الغيرة الإسلاميَّة والأريحيَّة العربيَّة على لسان قائله الفاضل فثارَ به ثوران البركان، واندفع اندفاع الزِّلازل يهزُّ الشَّرق الإسلاميَّ من الأركان؛ وقد تناول فيه مجدَ العرب فبكى ما وَسِعتهُ الدُّموع، وزفر ما استطاعت له الضُّلوع، وأرسل كلاماً لو أبصرتَ الدَّهر لرأيته مُتَحَفزاً يُصغي إليه، ولو نطق المجد نفسه لما زاد في وصف نفسه عليه.

إنَّ في تاريخ الأرض صيحات إنسانيَّةً بالغة هي من جملة نظام الخَلق كسائر السُّنَن الإلهيَّة التي تدير هذا العالم؛ فتراها تُقْذَفُ في أسماع الأمم دهراً بعد دهرٍ وجيلاً إلى جيلٍ للعبرة أو الموعظة أو الزَّجر أو التَّأديب أو العناية أو الهدايةٍ أو ما شاء الله؛ وكانت من قبل تنبعث من أفواه الرُّسل والأنبياء صلوات الله عليهم، ثمَّ بقيت بقيتها يصدع بها في جوانب الأرض أفرادٌ قلائل من أئمة العلماء وأفذاذ الحكماء ونوابغ الشّعراء، وما أرى صيحة

---

(1) هو كتاب (أعجب العجب من أحوال العرب في ماضيهم المنيف وحاضرهم المخيف أو مظاهر رضا الجبار عنهم وغضب القهار عليهم، في عظيم سيرتهم الغابرة وأليم حالتهم الحاضرة) نظم السيد عبدالحقّ حقّي الأعظميّ البغداديّ. وقدَّم له الرَّافعيُّ، ولم أجد على النُّسخة تاريخ النَّشر ولا اسم الدَّار، ولكن ذُكر في (معجم البابطين) أنَّها نُشرت في القاهرة سنة ١٩٢٢م، وبلغت القصيدة مائتين وستة عشر بيتاً.

الأستاذ الجليل السيد عبدالحقِّ الأعظمي[1] في هذه الرِّسالة إلا منها؛ إذْ خرجت من قلبٍ عَمَرَه الإخلاص، وملأه اليقين حتى كأنَّ هذا القلب قد ذاب فيها، وهذا اليقين قد استمسك بقوافيها، وحتى كأنَّه لم يقلها قولاً؛ بل نفثت على لسانه نفثاً من الرُّوح الأسمى لغرضٍ يُراد بها، وغايةٍ في المجد بعينها، ممَّا تنبعث له تلك الصَّيحات الكبرى، إذْ يقف بها فَلَكٌ ويدور فَلَكٌ، وتُقلب صفحةٌ في التَّاريخ، وتبدأ صفحة أخرى.

ثمَّ هي فوق ذلك ليست كسائر الشِّعر الذي يقصد به إلى مناقلة الكلام، وزخرف صناعة الأقلام، ويدور دوره على كذبٍ يُلفَّق، ونفاقٍ يُوفَّق، ومعنى يسخر ممن عناه، ولفظٍ يتبرَّأ من معناه؛ بل هي لله خاصَّةٌ، وللإسلام خالصةٌ، ثمَّ للعرب الكرام وفي سبيل مجدهم وعزِّهم تصف ماضياً كاد يُنسى، وحاضراً يكاد ينقلب أمساً، وتهتف من جوانب أفئدتهم، وتمتزج بأحاديث أنفسهم، وتتنبع من خواطرهم، وتنساق بهم إلى حيث يدفعهم كرم العُنْصُر، وطيب الأصل، وخلوص المنشأ، وذلك العرق القويُّ المتينُ يصل بينهم وبين أسلافهم بميراث الدَّم العربيِّ، الذي نبتت من قطراته الزَّكيَّة في بقاع الأرض أرواحٌ لا كالأرواح، طارت بمجدها في العالم أجنحة الرِّياح، وبلغت بها أشعة الشَّمس من الآفاق مبلغ ما ينفجر الصَّباح.

التَّاريخ كلُّه دليلٌ على أنَّ العرب مادَّة كريمة في عنصر الإنسانيَّة، وقد خصَّهم الله بإقليم وطبيعة لم يخص غيرهم بهما؛ فخرجوا من أثر هذا الإقليم وهذه الطَّبيعة وهُم أكرم الخلق غريزة وطبعاً في النَّفس والخلق

(1) عبدالحقِّ حقِّي بن عبدالله بن عثمان الأعظمي (1290–1343 هـ = 1873 – 1924م) (وقيل: تُوفي في 1354 هـ = 1935م): كاتبٌ وشاعرٌ ولد في بغداد، وقدم مصر فقابل كثيراً من أعلامها، ثمَّ قصد الهند فعمل أستاذاً بكلية عليكرة عام 1908، والتقى هناك الشَّيخ محمد رشيد رضا وترجم له، كما ترجم للشَّاعر محمد إقبال. راجع: تأريخ علماء بغداد في القرن الرَّابع عشر الهجريِّ ليونس السَّامرائي، ص 338، وانظر: أعلام الأدب في العراق الحديث لمير بصري، ص 92–93.

والعقـل والـرُّوح، لا يحتاجون من التَّهذيب والتَّدريـب إلى أكثر مما يحتاجه الألماس الكريم في الصَّـقل والرَّونق؛ فإذا هو مشـرقٌ يتـلألأ من كل جهاته، وإذا هو ينبئُ عن صفاء معدنه بنوره، ويُبينُ عن كرم أصله بفضيلته.

ولمَّا أراد الله أن يبعث في الأرض خلقاً جديداً، ويُنشئ للدُّنيا أمماً مستحدثة فتيَّة؛ بثَّ فيها العرب تحت ظلال سيوفهم وأروقة أخلاقهم وطباعهم؛ فكانوا مادةً قويةً في دماء الشُّـعوب انبعثت بها تلك الأجيال المتحضِّرة التي أنشأت التَّاريخ الإســلاميَّ العظيم، وأدارت كرة الأرض دورةً جديدةً بما دفعت فيها من القوَّة والنَّشاط والحركة.

وقـد يقولـون إنَّ العـرب في حاجـة إلى المدنيَّة الحديثـة؛ فأمَّا هـذه المدنيَّة الحديثة فما أغنى أهل الشَّـرق جميعاً عما تجرُّه وما تجرُّ إليه! إذْ هي أصـل البـلاء على الشَّـرق وأهله، وإذْ هـي داعية الأوروبيين إليـه وإلى التَّحكُّم في أمـره، وهـي بعينهـا حُجَّتهم في مـا يحاولون منه، فـلا حجَّة لهـم إلا أنَّهم يريدون تمدينه؛ على أنَّنا لم نرَ من مَدنيتهم تلك إلا أنَّ مفاسـد أوروبا كلها تَنصَـبُّ في أخلاق الشَّـرقيِّين السَّـمحة، كما تَنصَـبُّ أقذار مدينة كبيرة في نهر صـغير عذب قد رقَّ وصـفا حتى ما يطيق غبار الأرض، فلا الدِّين بقيَ فينا أخلاقاً، ولا الأخلاق بقيت فينا ديناً، وأصـبحت المَيْزَة الشَّرقيَّة فاسدةً من كلِّ وجوهها، ولم يعدْ لنا شيءٌ مع المدنيَّة الغربيَّة يمكن أن يُسمَّى المدنيَّة الشَّرقيَّة.

وهذا الشَّـرق روحـانيٌّ بطبيعته، إذْ كان مبعث الأديان كلها، فلا يفسـده ولا يأتي على أخصِّ فضـائله إلا هذه الرَّذائل التـي تقذف بها المدنيَّة الحديثة، مما يُوهن القلب الشَّـديد، ويُضـعف النَّفس القويَّة، ويُزعزع الخُلُق الرَّاسخ المتين، وقد علم الأوروبيُّون ذلك فأفرطوا علينا من زخرف مدنيَّتهم يريدون محـق أرواحنـا، وإفسـاد طباعنا، ثمَّ تحويلنـا إلى نوعٍ من الخلُق لا يصـلح

شــرقيّاً ولا غربيّاً، ولا يكون منه إلا أن يضــرب الذِّلَّة على نفســه بنفسه؛ إذْ يراها روحاً شرقيَّة جامدةً بلا أخلاقٍ، وأخلاقاً غربيَّةً هامدةً بلا روحٍ.

ولا يحســبنَّ أحدٌ أنَّنــا نريد بالمدنيَّة العلــومَ والمخترعات، فهــذه نتاج العقل الإنســانيِّ يأخذ النَّاس بعضــهم عن بعض فيها؛ فلا يســتغني عنها ذو عقلٍ في جهة من جهات الأرض، ثمَّ هي أســلحة الحياة لا كِفاح بدونها، وليس في تركها إلا الاســتعباد والاستســلام ثمَّ الموت، إنَّما نريد بالمدنيَّة الحديثة هذه الأزيــاء وهذه الزَّخارف وهذه الفتنة وهذه الأخــلاق المؤنَّثة، وهذه الرَّفاهيَّة المقوتة، وهذا التَّرف المهلك، وهذا الإعراض عن الدَّين، وهذا الخروج على مبادئــه، والتحلُّــل من أوامره ونواهيه، فكلُّ هذا في اعتبار القوم من أصــول المدنيَّة الحديثة، وكلُّ هذا من أسباب شقائنا وبلائنا، وما نحن في حاجة إلى شــيءٍ أكثر من المبادئ والأخلاق، وهي كامنةٌ فينا، ومســتقبلنا كامنٌ فيها؛ ولســنا نراها في جنس من الشَّــرقيِّين كما نراها في العرب؛ فإنَّ لهؤلاء أَنَفَةً لم يُفســدها الــذُّل، وإباءً لم يأت عليه الرِّقُّ، وقــوةً مرَّة لا تزال على طبيعتها وفطرتهــا، وإنَّ فيهــم الإرادة القويَّــة، والخلق العزيز، والاســتهانة بالحياة والصِّبغة الخاصَّة بهم، وهذه الأربعة هي الأركان التي تقوم عليها كلُّ نهضةٍ صــحيحةٍ في أمم الأرض، فليس ينقصهم إلا الأصل الذي يتَّبعونه، والغرض الذي يجتمعون عليه، وهذا كله في دينهم الإســلاميِّ الحنيف؛ بل ليست روح الإسلام إلَّا هذا كله.

والعــرب على أنَّهم أهلُ هذا الدِّين، وعلى أنَّهم كانوا مادته وعماده؛ فهم مع ذلك كأنَّهم أبعد النَّاس عن روحه وأغراضه، لما أصابهم من دهاء السِّياسة الأوروبيَّــة، وما عبــث بهم من أســاليبها وحيلها التي جعلت بأســهم بينهم، وصــارت تضــرب المُقبل منهم بالمُدبــر، والمُدبر بالمُقبــل، وتركتهم يُخربون بيوتهــم بأيديهــم، وجرَّت معهم على طريقة فَلِّ الحديــد بالحديد، وإهلاك

القديم بالجديد، وكان مثلها وإيَّاهم ﴿كمثل الشَّيطان إذْ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنِّي بريءٌ منك﴾[1].

لم ينهض العرب في ماضيهم إلا بالدِّين الإسلاميِّ وائتلاف أخلاقهم بأخلاقه ونفاذهم في أغراضه وغاياته، ولا ينهضون ولن ينهضوا إلا بذلك الدِّين عينه، وعلى هذا الوجه من ائتلاف الخُلق بالعقيدة الصَّحيحة، والدِّين وحده هو الأصل الرَّاسخ في الدِّماء والأعصاب، وهو المصدر الثَّابت الذي تستمدُّ منه الوراثة؛ فرجوع الأمة إليه وفهمه حقَّ الفهم والعمل به حقَّ العمل هو كل ما تحتاج إليه الأمَّة العربيَّة، والدَّين وحده كفيلٌ أنْ يواخي بينهم، ويجمع بعضهم على بعض، ويجعل من أحزابهم وقبائلهم وأمصارهم مادةً متماسكةً تماسك الجسم على اختلاف أعضائه، وعلى تباين ما بينها في أعمالها المتمدِّدة، فإنَّ الأصل الذي تعمل له كل الأعضاء هو حفظ الحياة، فمن ثمَّ ترمي كلها إلى غاية واحدة؛ فلا يضرُّها أنْ يختلف بعضها عن بعض، ولا أنْ يكون هذا دقيقاً وذلك جليلاً، وهذا في الأعلى وذاك في الأسفل.

وقد كان أسلافنا -رحمهم الله- يقولون: «من أعان ظالماً وشدّ عَضُده؛ فقد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه»[2]؛ وإنَّما يريدون أنَّ مبنى الإسلام على أنَّ المؤمن أخو المؤمن، وإنَّ مثل أحدهما من الآخر كمثل اليد من اليد تخلق كلتاهما لمعونة الثَّانية، وتتعاون اثنتاهما لفائدة الجسم كله، فأيُّما مؤمنٍ

---

(1) سورة الحشر/ 16.

(2) أخرجه: الطبراني في (المعجم الأوسط 21/2)«، وفي (المعجم الصغير 14/1)، وفي)مسند الشاميين((61/1)، وابن حبان في (المجروحين 328/1)، وأبو نعيم في (الحلية 248/5)، من رواية عكرمة، عن ابن عباس، ولفظه: «مَنْ أعان ظالماً بباطل ليدحض بباطله حقاً فقد برئ من ذمة الله، وذمة رسوله«، وإسناده ضعيف لضعف سعيد بن رحمة المصيصي. قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به لمخالفته الأثبات في الروايات. (المجروحين 328/1).

أعان ظالماً على أخيه في ظلم شخصيٍّ أو سياسيٍّ أو اجتماعيٍّ؛ فهو شرٌّ على هذه الأمَّة من الظَّالم نفسه؛ لأنَّه في الأولى ظلم أخاه بإعانة الظَّالم عليه، ثمَّ ظلم نفسه بما طوَّع لها من ظلم أخيه، ثمَّ ظلم ذلك الذي أعانه بتهوين بغيه وتزيين فسقه، وإتيانه من جانب العون والمُسَاعَفَة، فهذا هو الظُّلم ثلاث مرات، والإفساد من ثلاث جهات، وعصيان الله في ثلاثة لا رخصةَ للمسلم في واحدة منها؛ ثمَّ هو خروج من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1]، وتأمَّل أنت هذا الأمر في الآية الشريفة ثمَّ هذا النَّهي عن ضدِّه فكأنَّ الله يأمرنا فيها مرتين بشيءٍ واحدٍ لمساس الحاجة إليه؛ ولكونه أصلاً يقوم عليه الاجتماع الإسلاميُّ حيث وجد المسلمون.

ولعمري إنَّ من لم يُقم إسلامه على هذا الأصل؛ فلا خير في إسلامه لأحدٍ البتة، إذْ لا يُعد إسلامه هذا شيئاً في ما بينه وبين الله، ولا في ما بينه وبين النَّاس، فهو إنْ كفَّ أذاه عن قومه ولم يفهم ولا أعان عليهم؛ كان كقطعةٍ ملقاة من جسم ميِّت؛ وإنْ اتصل بهم شرُّه ومَالأَ الظَّالمين عليهم؛ كانَ كالمرضِ في الجسم الحيِّ السَّليم، وفقد المسلمون منفعته في الحالتين وقطع هو ما بينه وبينهم؛ فكأنَّما خلع إسلامه من عنقه؛ وإنَّما هو مُتَّهمٌ بإسلامه.

فذلك لعَمْر الله هو الإسلام، وأولئك والله هم الأقوام، وتلك هي الأيام لا ما نحن فيه من شؤم هذه الأيام، وهكذا فلتكن السِّياسة الإسلاميَّة التي يقوم بها الاتحاد، وتعتزُّ البلاد، وينقاد من الأمور ما لا ينقاد، فلا يُعان الظَّالم على أحد وفي ذلك محوه؛ لأنَّه لا يظلم إلا بأعوانه، ولا يضعف المسلم مهما قلَّ شانه؛ لأنه يرى نفسه على قِلَّته كثيراً بإخوانه.

---

(1) سورة المائدة/ 2.

فاتقــوا اللّه أيها العرب الأمجاد أنَّكم لا تزالون مادة هذا الدِّين الكريم، وما أحســب الإســلام يرتقي بأهله في هذه العصــور حتى تنهضــوا به، وتَحْدِبُوا عليــه[1]، وتعودوا إلى سياســته، وتُجمعوا أمركم على مناصــرته بمناصــرة أنفســكم، وتأخذوا الأمور من جهة هذا الدِّين لا من جهة تلك السِّياسة التي ابتلــت العامَّة بالخاصَّــة؛ فأطاعوا ســادتهم وكبراءهم فأضــلُّوهم، وابتلت الخاصَّة بالنِّعم واللَّذَّات والعهود والمواثيق على مطالب الدُّنيا.

ورحم اللّه عمر بن الخطاب؛ لقد كان أعلم بالطَّبع العربيِّ وما يصلح له وما يصلح به؛ إذْ قال لسعيد ابن حاتم: «احذر النِّعمة كحذرك من المعصية ولَهِيَ أخوفهما عليك عندي».

على أنَّ الزَّمن قد اســتدار، والشَّــرق قد استضاء فاســتنار، والعرب خاصَّة قــد عرفــوا بعد الحرب الكبرى عــمَّ انجلى الغُبار؛ فعســى أنْ تذكِّرهم هذه الرِّســالة؛ والذِّكرى تنفعُ المؤمنين، ولعلهم يتدبَّرون الأمر قبل أنْ يُقال: ولاتَ حين، وعسى أولئِك أنْ يكونوا من المهتدين.

---

(1) تتعلَّقوا به.

الفـاروق عمر بن الخطـاب [1]

روى البخاريُّ بسـنده عن ابن عمر -رضـي الله عنهما- قال: سمعتُ رسول الله عليه الصـلاة والسـلام يقول: «بَيْنَا أَنَـا نَائِمٌ، أُتيتُ بقَدَح لَبَنٍ فَشَـرِبْتُ حَتَّى إِنِّي لأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي، ثمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْعِلْمَ» [2].

وروى بسـنده عن أبي سـعيد الخدريِّ عن النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام قال: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، رأيتُ النَّاس يُعرضون عليَّ وعليهم قُمُصٌ منها ما يبلغُ الثَّدي، ومنهـا ما يبلغُ دون ذلك، ومـرَّ عليَّ عمرُ بن الخطابِ وعليـه قميصٌ يجُرُّهُ، قالوا: ما أوَّلتَه يا رسولَ الله؟ قال: الدِّين» [3].

هـذان حديثان في عمر بن الخطَّاب، هما وصـفه بلسـان النُّبـوة، ولن يأتي بمثلهما الواصف بالغاً ما بلغ شعره، وذاهباً ما ذهب خياله، ومحققاً ما كان تحقيقه؛ فعمر كان بعد النَّبي عليه الصـلاة والسـلام بقيةً من مواهبه كما يكون فضـل القدح من القدح، وبقيةً مما وُكِّل إليه حتى كأنَّما خلفه ليسـتمر فيه عمل النُّبوَّة بمعجزاتها، وليلحق آخر منها بأول، وينبسـط به هذا النَّهار المشرق على الأرض كما ينبسط اليوم من فجره وضحاه.

---

(1) كتب الرَّافعيُّ هذا التَّقريظ لكتاب (الفاروق عمر بن الخطَّاب) للأسـتاذ دياب عثمان العُرابي، المتخرِّج في دار العلوم سـنة 1933، وقد طُبع الكتاب سـنة 1934م بالمطبعة اليُوسُـفية بطنطـا، على نفقة جمعية الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر بطنطا. راجع تقويم دار العلوم ص 753 و 754.

(2) صـحيح البخاري باب فضـل العلم (82)، وفي كتاب أصـحاب النبي عليه الصلاة والسلام باب مناقب عمـر بـن الخطـاب (3681)، وفي كتاب التعبير، باب اللـبن (7006)، وباب إذا جـرى اللبن في أطرافه أو أظافـيره (7007)، وبـاب إذا أعطى فضـلة غيره في النوم (7027)، وبـاب القدح في النوم (7032)، ومسـلم (2391) كتاب فضـائل الصحابة -رضـي الله تعالى عنهم- باب من فضـائل عمر رضي الله تعالى عنه .

(3) صـحيح: أخرجه البخاري (23) كتاب الإيمان باب: تفاضـل أهل الإيمـان في الأعمال في كتاب التعبير، باب القميص في المنام (7008).

وهو رجلٌ لبس الدِّين سابغاً عليه سبوغ القميص على الجسم يكسوه ضافياً، ويسترسل عنه حتى يجرَّ من ذَلاذِلِه[1] جرّاً، والنَّاس منه بمقصر يفضُل بعضُهم بعضاً في الدِّين ولا يفضلونه، ويتفاوتون فيما بينهم ويفوتهم جميعاً، لا نقص فيهم إلا بالتَّمام فيه، ولا تقصير لهم إلا بالقياس إلى قدرته وما أطاق مما ضعفوا عنه، فهو كمالٌ لكمالهم لا دليل على نقصٍ ولا تقصيرٍ.

والذي يقرأ ما جمع هذا الكتاب من تاريخ (عمر) ويتدبَّر أعماله وأقواله ويشرحها بألف وثلاثمائة سنة من تاريخ الفكر الإنسانيِّ في تقدُّمه إلى عهدنا هذا، عهد الفلسفة والعلم والقانون والتَّحقيق في أمور النَّفس ومذاهبها؛ يرى عمر كالمئذنة العالية منتصبةً في الجوِّ، والطِّباع الإنسانيَّة من دونه كالدور القائمة تستشرف إليه ولا تبلغه، وفيها الحياة وفيه هو جلال هذه الحياة.

تُضاء المدينة الكبيرة في اللَّيل بمصابيح لا عدد لها يترشَّرَش[2] منها النُّور، كأنَّ كوكباً عظيماً حُطِّم وبُعثرت شظاياه في أرجائها وطرقها ومغانيها، ويكون على هذا النُّور جمال اللَّيل كأنَّه فيه شعر الظُّلمة تتلمَّح معانيه الجميلة لمن يفهمها أو يحسُّها، ثمَّ ينبثق الفجر وتطلع الشَّمس؛ فإذا نورٌ آخر من خاصته أنَّه يُطفئ كلَّ نورٍ غيره، ويدع المصباح العظيم الذي كان يسطع في اللَّيل فيُبِينُ عن كلِّ شيءٍ حوله- وهو لا يكاد يُبِين عن نفسه، وليس فيه إلا الشُّعلة التي عادت بعد قوَّتها لا قوَّة لها على أنْ تُثبت شيئاً، إلا أنَّ بينها وبين هذا النُّور الغامر مشابهة من بعض الوجوه، كذلك عمر.

وهو هِبةٌ من أخلاق نبيِّنا صلى الله عليه وسلم إذا مثلت بينه وبين عظماء الملوك، ودهاقين الحكم، وأساطين الفلسفة، وعلماء الأخلاق، ورجال الحياة العمليَّة، فقد يزيدون عليه من فنون الحياة بخيال كشعر الظُّلمة إذا كانوا في

---

(1) الذُّلْذُل، والذُّلْذِل: أسفل القميص الطَّويل، والجمع :ذلاذِل.

(2) سَالَ وقَطَرَ.

مواضعهم من التَّاريخ وكان هو في موضعه، فأمَّا إذا جئتَ بهم إليه، أو جئتَ به إليهم فوازنت خلقاً بخلق، وفضيلةً بفضيلة، وعملاً بعمل، وقوةً بقوة، وغايةً بغاية، فسترى شيئاً إلهياً لا طاقة به للصِّناعة، قد وسعه وأعجزهم، وترى ثمة أقداراً مُمثَّلةً في التَّاريخ على ما قدرها الله تؤكِّد لك تأكيداً أنَّه يستحيل على غير عمر أنْ يكون عمر.

بَذَّ الملوك وهو زاهدٌ، وبَذَّ الزُّهاد وهو ملك، وفات العلماء ولم يتعلَّم، ووقف من الأخلاق على غاية بعيدة انقطع الفلاسفة دونها، وكان في أعماله وأحواله تفسيراً واضحاً صريحاً لقانون الإنسانيَّة الذي جاء به الدِّين الإسلاميُّ، وجمع المتناقضات في وحدة نفسه العظيمة؛ فبطل تناقضها، وائتلفت فيه وآتته بحقائقها؛ فاحتمل كلَّ شيءٍ منها بحقه الذي هو له، لا بخياله الذي يتخيَّله النَّاس كذباً وصدقاً.

وكيف يجتمع ملك النَّفس وعبوديتها، وتأتلف القوَّة واللِّين، وتتَّصل الرَّهبة والرَّجاء، وتنتظم البطولة والحكمة، ويجيء الدِّين والدُّنيا معاً، ويقوم العدل والقدرة على سُنَّة واحدة، فيتساوق هذا الكلّ المتناقض، فيعتدل، فيتَّزن، فيطَّرد كله نسقاً واحداً في نفس وثيقة صافية مؤمنة رحيمة لا سبيل عليها إلى طوارق الشَّهوات وبغتات الطَّبيعة ونزوات الحياة، فلا تبلغ من نكايتها مبلغاً ولا ما دونه، كأنَّ هذه النَّفس لا تتعرف من الدُّنيا قريباً ولا بعيداً، على حين ليس في الدُّنيا قريبٌ ولا بعيدٌ لم تتعرفه؟!

أهذه نفسٌ إنسانيَّةٌ؛ أم هي طبيعةٌ محكومةٌ بنواميسها تأتي منها الكلمة كما يأتي الفكر، ويجيء الفكر كما يجيء العمل، وفي كلِّها إبداعٌ واحدٌ، كأنَّها كلها من كهرباء يتضرَّب بعضها في بعض، ويتحوَّل بعضها إلى بعض، وليس فيها على شتى فنونها ومظاهرها إلا عنصرٌ واحدٌ؛ هو عنصرها الإلهيُّ؟!

كان عمــر بأخلاقه وأعماله كأنَّه التِّكرار الثَّالث لكلمة إلهية واحدة، مرسـلة في التَّاريخ، صارخة في الدُّنيا، مؤذنة بين النَّاس أذان الملائكة: فكانت سيرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم التي أعجزت الخلق هي العظة الأولى؛ ثمَّ تكرَّرت على قدر الطَّاقة في سيرة أبي بكر الصِّديق الذي جهد أن يلزم سنَّة صاحبه ولا يتحـوَّل عنهـا، ثمَّ تكرَّرت في عمر الذي بلغ جهده في تحقيق تلك السُّـنَّة، لم يأل وسـعاً ولم يدخر طاقة؛ وبهذا كان الإسـلام يتسـع ولا يزال مُتَّسـعاً، ويغلب ولا يبرح غالباً، وتقبل عليه الإنسانيَّة محكومةً أسرع مما يذهب إليها حاكمـاً، ومذعنةً أسـرع مما يزحف عليهـا فاتحاً، وطالبـةً أكثر مما كانت مطلوبـة؛ إذْ لم يكـن إلا الخلق العظيـم هو الذي يحكم، والعـدل القائم هو الذي يغزو، والحق المبين هو الذي يجاهد، فتكرَّرت العظة تنبِّه المسلمين أنَّه لا يصلـح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلـح به أولها، وأنَّ الإسلام في حقيقته ليس كلاماً ولا جدلاً، والإيمـان في طبيعته ليس أوهاماً ولا أماني؛ فلن يكون القانون الإسـلاميُّ في الآراء والشُّروح والتَّعاليق، والجدل والكلام؛ بل قانون الإسلام هو هذه النَّفس المشرقة بنور ربها التي ظهرت للإنسانيَّة أدقَّ وأحكم وأجرأ ما ظهرتْ في النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ثمَّ كانت بعد ذلك على ما تبلغ الطَّاقة من هذه السُّنة في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

***

ولو سئلتُ بعد قراءة هذا الكتاب أنْ أجمع عمر العظيم بكل مزاياه في جملة واحدة يتَّخذها رجال الإسلام دستورهم الذي يعملون عليه؛ لقلت: إنَّه رجلٌ أرصـدَ عقله سـجلاً لهفواته المعدودة التي لا تخلو الطَّبيعة منها، فلا يغادر الهفـوة ولا شـبه الهفـوة، ولا ظلاً من الهفـوة إلا أثبتها ليعمـل ما يمحوها، ويخـرج إلى الله والنَّاس مـن تبعاتهـا، وبذلك وحده صـار التَّاريخ سِـجلاً عظيماً لحسناته التي لا تُعدُّ.

تاريخُ الأستاذِ الإمامِ الشَّيخِ محمد عبده[1]

الأستاذ الإمام هو الذي كُتبتُ في وصفِهِ هذه العبارة:

«لستُ أدري على أيِّ رُوحٍ نَبَتَ هذا الرّجل، ولكنّ الذي أعرفه أنّه حين أثمرَ؛ فنَضِجَ فَحَلَا؛ أذاق النَّاسَ من ثمره طعمَ معجزة الفكر العربيِّ» (السحاب الأحمر)[2]

ولقد كانت نفسي ممتلئةً بهذا الرجل العظيم، وكنتُ أراه وحده يمثِّل معاني القُوّة في الحياة الإسلاميَّة كلّها، وما جمعها أحدٌ جمعهُ، ولا توافتْ لغيره ثمَّ استمرَّت له على الزَّمن متوافرةً متتابعةً لا تنقص بل تزيد كأنَّها يلد بعضها بعضاً، وكأنّه ناموسٌ من نواميس الكون قد خُلق في صورةٍ بشريَّةٍ، فالحياة فيه دائماً أكثر ممَّا هي، والقوّة فيه أسمى مما تعرف.

وهذا تاريخه كتبه تلميذه وخليفته ووارث علمه الأستاذ الجليل السيِّد محمد رشيد رضا؛ فما أدري أهو يكتب التَّاريخ أم يصبُّه صبًّا؟! وهل هو يجمعه عن الشَّيخ أم يُلَقَّاهُ من روح الشَّيخ؟! فلقد -والله- اتّسع ثمَّ اتّسع، وأحاط ثمَّ أحاط، كأنَّما يضرب الحصار على أربعين سنة من نهضة مصر لا يريد أنْ يهرب من يوم.

وقد استوعب الحوادث فلاءَمَ بين جماعتها أحسن ملاءَمَةً، ثمَّ جنَّسها أجناساً، ثمَّ فصَّلها أنواعاً، ثمَّ مضى بكلِّ حادثة من حيثُ تنشأ إلى حيث تنقطع، وأُوتيَ من القوَّة على ذلك ما لا يقوم فيه أحد مقامه، ولا يجري غيرُهُ مجراه؛ إذْ جمعت له مادَّتا التَّاريخ من البيان والخبر، فهو يشهد بما

---

(1) مجلة المقتطف، المجلد 79، العدد الرابع، 21 رجب 1350هـ = 1 ديسمبر 1931م، ص 495-496، وقد نُشرت هذه المقالة ضمن باب مكتبة المقتطف.

(2) راجع ما كتبه الرَّافعيُّ في الفصل التَّاسع من كتاب (السَّحاب الأحمر). انظر (السَّحاب الأحمر ورسائل الأحزان وأوراق الورد)، طبعة خاصة جمعت الكتب الثَّلاثة، تقديم أ.د. عبد القادر القط.

عَايَنَ، وينبئُ بما سَمِعَ، وإذْ هو يكتب بقلميه: قلمِه وقلم الإمام، فترى في هذا البحر من الورق كلّ ما كتبه الشَّيخ عن نفسه وعن الثَّورة العُرَابية، وما دوَّن عن مقاصده وأغراضه، وما جهر به للنَّاس، وما أسرَّ به للسيِّد رشيد وحده. وتالله إنَّ الشيخ الإمام ليُطالعنا من هذا الكتاب تاريخاً وأعمالاً بأروع مما يُطالعنا صورةً وهيئةً.

***

من سبع وعشرين سنة، زرتُ الصَّديق الأستاذ رشيد في داره بعد وفاة الإمام بشهر؛ فإذا هو يكتب، وبعد قليل تبسّم وناوَلَني الصحيفة فإذا فيها: إنَّ في هذا لعبرةً لأولي الألباب: صاحب عمامة أزهرية يدخل في حكومة مطلقة بعيدة في أعمالها عن رجال العلم والدّين؛ فيُشرف من نافذة غرفةٍ تحريرِ الجريدة الرسميَّة على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها؛ فيصلح لعُمَّالها ما يكتبون، ويُرشدهم إلى إصلاح العمل فيما يعملون، ثمَّ يُشرف من نافذة أخرى على الأُمَّة فيقوِّم من أخلاقها، ويُصلح ما فسد من عاداتها.

ثمَّ يُشرف من نافذة ثالثة على الجرائد العربيَّة فيعلِّمها حسن التَّحرير، ويربِّيها على الصِّدق في القول، ويجعل للصَّادق منها سلطاناً نصيراً، وتأثيراً مأثوراً.

يا لها من عمامة شرفت برأس صاحبها حتَّى حَسَدَتها الطرابيش، وهابتها التِّيجان، وعظَّمتها البرانيط!

ثمّ قال: «وهذه عبارة شعريَّة حلَّت عليها رُوحُك»، ولقد بقيتُ طول هذا الدَّهر أعجبُ من انطواء هذا التَّاريخ، فإذا علَّة ذلك قد بيَّنها السَّيِّد في كتابه؛ وهي تعذُّر حريِّة الكتابة عن الشَّيخ في عهد الخديوي عبَّاس، لِمَا كان بينهما، ثمَّ اختلال الأحوال من بعد ذلك.

ولكنَّ هذا الذي أطلق يدَ السيِّد في الجانب السِّياسيِّ من كتابهِ لعلَّه هو الذي لا تجـد للكتـاب عيباً غيره، فـإنَّ التَّاريخ السِّياسـيَّ كالتَّاريـخ الحربيِّ لا بدَّ للتَّمحيصـ في كليهما من أقوالٍ ثلاثـة: أمّا اثنان فمن الجهتين المتقاذفتين، وأمَّا الثَّالث فمن معتزلٍ مُنْحازٍ عنهما يكتب بنفسٍ لم تُدبر ولم تُقبل، فإنَّ في النَّصر والهزيمة تنهزم الأخبار وتنتصر.

وقد جاءَ كتاب السـيِّد رشـيد والميدانُ خالٍ، فلعلّ ما كتبه عن أُناسٍ هلكوا لا يقع بالموافقة منهم لو كانوا أحياءً، ولعلَّهم كانوا يَنْقُضُون عليه بعضَ ما جاء بهِ، أو يجدون مساغاً لقولٍ غيرِ القول ورأي غيرِ الرأي، وإذا وقعت (لعلّ) في مثل هذا كانت -ولا جَرَمَ- اختلالاً في حرارة «إنَّ وأنَّ».

السَّحَابُ الأَحْمَرُ[1]

سيِّدي الأستاذ الجليل مُنشئُ المُقتَطَف

أومــأتم في المقتطــف الأغــرِّ إلى كتابي هــذا، وأوليتموه شــرف المقابلة بينه وبــين كتاب (كارليل)، وإنْ كانت كمقابلة الخطِّ بصــورته المقلوبة في المِرْآة؛ ثــمَّ تمنيتم لو أجريتُ إنشــائي كلَّه مجرى أســلوبي في (تاريخ آداب العرب) ومقالاتي الأخرى.

ولــوددت -والله- أنْ أُرَفِّــهَ عن نفســي وأَطْــرَح عنِّي الكَدَّ فيمــا عالجتُهُ من أســلوب (حديث القمــر) و(المســاكين) و(رســائل الأحزان) و(السَّــحاب الأحمر)؛ ولكنِّي أجدُني كالمُسَــخَّرِ في ذلك لقوة تُســاوِرُني في أوقاتها وتهبُّ عليَّ كالرِّيح من ســكونٍ وركودٍ؛ فلم أُفكِّر قطُّ في كتابٍ منَ هذه الكتب؛ ولكنْ تقــع الحادثةُ فيجيء بهــا الكتاب، ثمَّ أرى من بعد صــوته وتعلُّق المتأدِّبين به ما لم أكنْ أُقَدِّر بعضَــه، وتنتهي إليَّ آراءُ مشــيخة الأدب وطُلَّابه؛ فإذا هم لا يعدِلون بهذا الأســلوب شــيئاً في نَسَــقه وألفاظه ومعانيه، ثمَّ لا يعيبه إلا من قَصــر عنه وشــقَّ عليه النُّزُوع فيــه وكابَرَ في الإقرار بعجْــزِه؛ فذهب يلتمس المعاذيــرَ والمعايبَ وأخذَ في ذلك مأخذَ فرعــون إذْ جاءته امرأةٌ فقيرةٌ كانت هــي وأطفالها يعيشــون علــى دَرِّ (عنزة) لهم فماتت؛ فأقبلت المســكينة بها علــى هذا الذي يدَّعي الألوهية ويقول: أنا ربُّكم الأعلى، وســألته أنْ يحيِّيها؛ فاعتذر بأنَّ في السَّماوات أعمالاً كثيرة أكبر من العَنْزَة.

أرى المتأدِّبــين يعرفــون لهذا الأســلوب ما يعرفه رجال التَّربيــة والتَّعليم من أســاليب إنشاء التَّصــور وإرهاف الذِّهن وتدقيق الخيال وقوة الطَّبع اللُّغويِّ وصقله وإدارة الحسِّ عليه، ثمَّ هم يقولون إنَّ موضعه من هذا الكلام الخَنِث

(1) المقتطف، باب المراسلة والمناظرة، عدد أبريل 1925، ص 443 وما بعدها.

المتهالك الذي ترمي به الأقلام المريضة في هذا العصر موضع الفحولة التي لابدَّ منها في الخليقة لإيجاد القوَّةِ التي لا تكون إلَّا بالفحولة وإشعار الهيبة التي لا تكون إلا بالقوَّة، فنحن في زمنٍ كلُّ كاتبٍ فيه قادرٌ على أنْ يُرسل مِدَادَه يُمطر وحلاً لغويّاً، حتَّى كلُّ من يعرفُ القراءةَ هو كاتب إنْ صحَّح أو أفسَدَ، وإنْ أصاب أو أخطأ، وإنْ أخذ اللُّغة والكتابة عن معجماتها ودواوينها ومدارسها، أو أخذها من الرِّوايات والجرائد والأسواق.

يقولون هذا ويُضيفون إليه أنَّ الفصاحة العربيَّة كادت تنقطع أمثلتها العليا، وأنَّه لم يعد يكمل أحد في صناعة الكلام، وأنَّ زمننا هذا حين ينقلب إلى مرآة التَّاريخ فينظر فيها سيرى وجهه متورِّماً مُخدَّشاً مُضمَّداً مَلفوفاً بالجرائد، ليس عليه سِمَةُ جمالٍ، ولا فيه من الأدب منظر قوَّة، وأنَّ اللُّغة أصبحت أشبه بالبيت المتداعي الذي يُريد أنْ ينقضَّ، لا تسمع من أهله ولا من جيرانه ولا من السَّابلة في طريقه إلا «هدُّوا هدُّوا إلى الأساس».

علم الله يا سيدي الشَّيخ أنِّي ما كنتُ أصبرُ على مصيبة البلاغة، لولا ثقتي بأجرِها، ولولا استئناسي إلى المُعَزِّين فيها، وهم جمهور أهل الأدب إلا قليلاً يُعزِّيني بأسلوبٍ آخر يُضحكني أحياناً.

أمَّا هذا الذي يُسمُّونه غموضاً وتدقيقاً؛ فما أنا بصاحبه ولا العامل فيه؛ ولكنَّه طورٌ من أطوار الزَّمن لابد أنْ يسبق نهضة التَّجديد كما سبقها من قبل، فلقد كانوا يصفون به سيديْ شعراء العربيَّة قاطبةً أبا تمَّام والمتنبِّي، حتَّى قالوا في أبي تمَّام إنَّه أفسَدَ الكلامَ وأَحَالَه وعقَّده بتعمُّله وصناعته، وأنَّه أتعب النَّاس حتى صار استخراج معانيه باباً مفرداً في الأدب ينتسب إليه طائفةٌ من العلماء، وأنَّ أعرابيّاً سمع قصيدته التي مطلعها: طَلَل الجميع، فقال إنَّ في هذه القصيدة أشياء أفهمها وأشياء لا أفهمها، فإمَّا أنْ يكون قائلها أشعرَ من جميع النَّاس، وإمَّا أنْ يكون جميعُ النَّاس أشعرَ

منه، وهذه شهادة بأنَّه أشعَرَ من جميع النَّاس، ولا ريب إذْ يستحيلُ أنْ يصحَّ الشــقُّ الآخر، ثمَّ كان جمعٌ من كبار الرُّواة يتعصَّــبون عليــه كابن الأعرابيِّ والرياشــيِّ وغيرهما؛ بل قد بلغ من تعصب الرِّياشيِّ عليه وعلى البحتريِّ أنْ قلَّت نُسَخ ديوانيهما بالبصرة في زمنه لزهد النَّاس فيهما، ولقي المتنبِّيُّ شرّاً ممــا لقي أســتاذه ومثله الأعلى الذي يُقلِّده ويحتــذي عليه، ومع ذلك انحدر الشعر العربيُّ كله في طريقتهما إلى عصرنا هذا.

ولقد كان المتنبِّيُّ خَمُلَ اسمهُ ومُحِي من لوح الزَّمن لو كان يعيب البلاغة عيب يكون معها، فقد قال فيه الإمام العســكريُّ: لا أعرف أحداً كان يتتبعُ العيوب فيأتيهــا غير مكترثٍ إلا المتنبِّيُّ، فإنَّه ضــمَّن شــعره جميــع عيوب الكلام ما أعدمه شــيئاً منها، قلنا: ولكنَّ جميع عيوب الكلام (بهذا الحصــر) لم تزد على أنْ كانت من أقوى الأسباب في تخليد حسنات الرَّجل.

إنَّ أرفــع منــازل البلاغة العربيَّة كما قالوا أنْ يكون في قوة صــائغ الكلام أنْ يأتي مرةً بالجزل وأخرى بالسَّــهل؛ فيلين إذا شــاء ويشــتدُّ إذا أراد، ولا يبلغ هذه المنزلة أحدٌ فيحكمها ويُعطيها حقَّها من التَّمييز إلا جعلته الأقدار وسيلةً من وســائل حفظ البلاغة يتسلَّم الزَّمن ويســلم؛ بل قل بالألفاظ الصَّريحة المكشوفة يتسلَّم لغة القرآن ويسلمها.

فأمَّا أســلوبٌ واحدٌ وطريقــةٌ واحدةٌ فهذا في قوَّة كل كاتــب على تفاوت فيه، ولــن يكون الرجل حقَّ رجل إلا إذا كان له مع الظُّرْف واللِّين والدَّماثة حديداً من العضلات وفولاذاً من العظام، فإنْ لم يكن إلا اللين محضاً والاسترسال خالصــاً؛ فهذا -أصلحك الله- شيءٌ سَمِّه ما شــئت إلا أنْ تقول إنَّه رجولةٌ، فــإذا لم يبلــغ كلُّ النَّاس ولا أكثرهــم هذه المنزلــة فذلك أحــرى أنْ يُعدَّ في محاسن مَنْ يبلغها لا في معايبه.

ألا لا يحسبنَّ أحدٌ أنَّ الفصاحة العربيَّة هالكةٌ بحياة طائفة من مَرْضَى القلوب كهؤلاء الكُتَّاب الذين يعملون جهدهم في إفسادها، فهم مهما كثروا تنتظرهم قبورٌ بعددهم، وفي هذه البلاغة العربيَّة خاصةً ينبغ الكاتب الواحد في عصر من عصور الضَّعف، فإذا ألفُ كتاب يتساقطنَ حولهُ، وإذا الكاتبُ كأنَّه سُنَّةٌ من سُنَن الكون تضرب ضرباتها بالقضاء والقَدَر.

نهجُ البلاغةِ[1]

هذا الكتاب هو جملة ما جمعه الشَّـريف الرَّضـيُّ مـن كلام أبلغ العرب بعد رسـول الله صلى الله عليه وسلم سيِّدنا عليِّ بن أبي طالب[2]، وفيه من بارع الخُطَب وبديع الرَّسـائل والكتـب وبالغات الحِكَم ما لو اقتصـر عليه طالب الفصـيح من الكلام؛ لكان به في عُليـا مراتب الكُتَّاب البُلغاء؛ فقد جمع إلى سـموِّ المعنى الذي تكسـوه المسـحة النَّبويَّة فصـاحةَ اللَّفظ الآخذة بمجامع القلـوب، وهذا ما لا يوجد وغيره[3] من كلام فطاحل العرب وبلغاء الكُتَّاب؛ ولذلك كان لا يستغنى عنه من المتبارين في حلبة الأدب سابقٌ ولا لاحقٌ.

ولقد طُبع الكتاب بشـرحه لفضـيلة حضـرة مولانا الأسـتاذ الحكيم الشيخ محمـد عبده مفتي الدِّيار المصـريَّة لهـذا العهد غيرَ مرة؛ ولكـنْ بقيت فيه حاجـة للأدباء وطلبة الإنشـاء، وهي خلوه من ضـبط مفرداته ليكون أدعى إلى تثبيت المَلَكَةِ العربيَّة الصـحيحة، وما زالت هذه الحاجة في الأنفس حتى قضاها حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد سعيد الرَّافعيُّ صاحب المكتبة الأزهرية؛ فاشـتغل بشكل ألفاظ الكتاب كلها مع طائفةٍ من الأفاضل، وأعاد طبعه بزيادة في الشَّـرح على ما في الطَّبعة الأولى لفضـيلة حضـرة الشَّارح حفظه الله تعالى (وسيُطبع)[4] قريباً وُيباع في مكتبته المذكورة.

---

(1) وجدنا هذه المقالة الصَّـغيرة بتوقيع الرَّافعيِّ في آخر الطَّبعة الثَّالثة من رواية (حسام الدِّين الأندلسيِّ) التي طُبعت بالمطبعة العموميَّة بمصـر، ونُشـرت سـنة 1321 هـ، وقد وجَّهني إليها الصَّديق وائل حافظ، وهو ممن خدموا تراث الرافعيِّ في مواطن كثيرة، ولا يزال معنياً به، فله الشُّكر الجزيل.

(2) اختُلف في نسـبة هذا الكتاب فمنهم مَنْ نَسَـبَه إلى الإمام عليِّ بن أبي طالب رضـي الله عنه ومنهم مَنْ نَسَـبَه إلى الشَّـريف الرَّضيِّ وقال إنه زوَّره للإمام ودلَّل على ذلك بعدم وجود سند للكتاب إذْ يفصل بين الإمام علي والرَّضـيِّ نحـو أربعة قرون، وثمة رأي يرى أنَّ الكتاب مـن كلام علي بن أبي طالب زاد عليه الشَّريف ما ليس منه مثل سَبِّ بعض الصَّحابة الكِرام كأبي بكر وعمر رضي الله عنهم.

(3) كذا في الأصل، ولعلَّ الصَّواب: في غيره.

(4) مطموسة في الأصل.

فنحن بلسان الأدب نشكر لحضرته هذه العناية؛ فإنَّ هذا الكتاب البليغ من أهم الكتب التي يجب أنْ تكون مشكولةً بعد كتاب اللّٰه تعالى وكلام الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم، ونُبشِّر الأدباء لينتهزوا هذه الفرصة ويُبادروا إلى اقتناء هذه الذَّخيرة التي جاءت في طبعها أجمل من كل طبعةٍ غيرها بعناية حضرة الملتزم الفاضل جزاه اللّٰه عن الأدب خيراً.

الإنشاءُ العصريُّ البليغُ[1]

هذا كتابٌ وضعه صديقي الفاضل في بيان السُّنَن الإلهية التي يُنشَّأ بها ملائكة العالم الصِّغار على نحو ما كان يلطف بهم الله وهم أجنَّة في بطون أمهاتهم.

كتبه للأمِّ لأنَّها مهد الأمّة، فهي حين تهزُّ الطِّفل إنّما تهزُّ المستقبل النَّائم في مهده مطبق العينين على نورٍ يلمع في الغيوب البعيدة، مفتَرَّ الشّفتين لآمالٍ ستُخلق في هذه القلوب الجديدة.

هُزّيه أيتها الأمُّ صغيراً، ولكن ربّيه على أنْ يهُزّ الحوادث كبيراً؛ فقد يسقط الآن عن صدرك إلى يدك بهزَّة تضحكين لها، ولكنَّ هزَّة الكبير زلزلة تسقط بالأركان، وقد يستحيل بعدها ما يكون في الإمكان.

يسرُّك هذا الطِّفل الآن لأنَّه ضعيفٌ، ولأنَّ ضعفه قوّة لإحساسك؛ ولكنَّه إذا كبر على ضعفه؛ كان هذا الضَّعف قوّةً في أذاك وإساءةً على أساك؛ لأنَّك تحسبينه رجلاً وهو في نفسه طفلٌ كبيرٌ، وتظنّينه عظيماً ولكنَّه كما عَظَمَ البعير.

تنظرين أيتها الأمُّ ما شئتِ من ظاهر طفلك، ولكنَّ باطنه لا ينظر إلَّا في مرآة من مثل هذا الكتاب، فإنْ لم تقرئيه فليقرأ لكِ، فإنَّ ابنك لم ينبت من التُّراب ولا هو حيوانٌ سائمٌ فتكفله الطَّبيعة.

(1) هذا تقريظٌ كتبه الرَّافعيُّ لكتاب (العنايةُ بالأطفال والأَحْدَاث) للدُّكتور إسكندر بك جريديني، مطبعة الأخبار 1909، وقد تعذَّر الحصول على الكتاب فنقلناه هنا عن مجلة سركيس، العدد الثَّاني، السَّنة الخامسة، 2 شوال 1327، ص 45.

فإذا كنتِ لا تعلمين ولا تسـألين لتعلمي؛ فإنّ مَهْدَكِ لَحْدٌ، وصدرَكِ قبرٌ، وما تدرجين ابنك من ثيابه إلّا في كفن، ولا يكون هذا الطِّفل إلّا حيّاً من الأموات إلى زمنٍ.

أتمنّى أنْ يكون في كلِّ بيتٍ طفلٌ ونسخةٌ من هذا الكتاب، وأنْ يكون أكثر لعب الطفل أنْ يأخذ الكتاب، ويرميه في حجر أُمِّه وأبيه.

ديوانُ الأمير شَكِيب أرسلان[1]

الأمير شكيب أرسلان كوكبٌ سيَّارٌ إنْ غاب عن أرض فالعلم به في كلِّ أرض، وهو إمامٌ في كلِّ فنونه من الأدب واللُّغة والترسُّل والشِّعر والتَّاريخ والسِّياسة، مقدَّمٌ في جميعها منظورٌ إليه نظرة أهلِ المسجد لإمام المسجد، ولو أوجزتُ في شرح حقيقته العظيمة لقلتُ: إنَّه رجلٌ بَعْثَرتْه القدرة الإلهيَّة في أقطار الدُّنيا لتخرج منه هذا المجموعَ الذي لا يجمعهُ فَرْدٌ، ثمَّ لتخرج من هذا المجموع قوة، ثمَّ لتعملَ بهذه القوَّة عملها في نهضة العالم العربيِّ: فروحُه للثورة، وقلبُه للإيمان، وعقلهُ للسياسة، ولسانُه للبيان، وهو في جملته جملةٌ متميِّزة تعارض عليها الأفراد ولا يعارض هو بفرد.

وهذا ديوانه نشره كما يقول في مقدمته، لخصال ثلاث: إحداها ألا يُنسب إليه غيرُ شعره ولا ينسب شعره إلى غيره، والثَّانية أنَّ بعضًا قصائده تتعلَّق بوقائع تاريخيَّة مشهورة فنشرها حصَّةٌ من التَّاريخ، والأخرى توفيةُ الذين رثاهم في ديوانه من أعلام العصر بعضِ حقوق الوفاء، قال: فلم يكن غرضي من نشر هذا الدِّيوان إظهار فصاحة أُفاخِرُ بها، ولا إثبات براعة أتعلَّقُ بأسبابها، ولا حشد كلمات أتوخَّى إرسَالهَا، ولا تسيير شوارد يُقال مَنْ ذا قالها.

وهذا من تواضع الأمير وسموِّ أدبه؛ وإلا فكلُّ ما نفاه عن نفسه أثبته شعره لنفسه، فهو شعرٌ مفاخرٌ بفصاحته وبراعته، ينزل من شعر العصر منزلة فصحاء الأعراب من المولِّدين في صدر تاريخ اللُّغة العربيَّة والبلاغة، ففيه السَّليقة على أصحِّها والموهبة على أتمِّها، وهو آيةٌ في الجزالة وقوةِ السَّبك وإشراق البيان وحسن المعرض وكمال الصَّنعة، يتحدَّر من طبعٍ متينٍ رزينٍ، ويتفجَّر من ينبوعٍ هدَّارٍ فوَّارٍ.

(1) المقتطف، باب مكتبة المقتطف، عدد 5، ديسمبر 1936م.

ولا عيبَ في شعر الأمير شكيب، فالشَّاعر هنا تامٌّ بكلِّ أسبابه؛ ولكنَّه مصروفٌ عن الشِّعر برسالةٍ عظيمةٍ يؤدِّيها في غير مملكة الخيال، فهو في الميادين لا في الرِّياض، وفي الخنادق لا في القصور، وفي الحقائق لا في الأخيلة، ومع الأسود لا مع الظِّبيات، وهو لتأليف أمَّة لا لتأليف ديوانٍ، فكأنَّ الشِّعر دلالةٌ على ناحيةٍ واحدةٍ من نواحي كماله فهو بقدر هذه الدلالة في قلَّته وعظمته وانحصار أغراضه، وهذا فرقٌ ما بين الأمير وبين رجلٍ كشوقي عاش مدةَ عمرِهِ كلها ليكون لساناً للَّذة والألم.

وقد كان الأمير يقول الشِّعر وهو في الرَّابعة عشرة من سِنيِّه، ولما بلغ السَّابعة عشرة طبع ديواناً سمّاه (الباكورة) وقد اختار منه طائفةً من القصائد والمقاطيع ألحقها بديوانه الأخير وهي عجيبة الدلالة على قائلها، فما علمنا أنَّ شاعراً ينظم القصيدة فيجاوز بها مائة بيت وهو في الخامسة عشرة كما صنع الأمير في حداثته، فلا ريب أنَّه شاعرٌ قبيلةٍ من قبائل العرب مجتمعة بخصائصها في دمه العربيِّ الحرِّ، ولا ريب أنَّ هذا هو الذي صرفه عن الشِّعر من بعد؛ إذْ كانت هذه القبيلة مجتمعة كذلك في دمه بقُوَاها وأسلحتها.

ومن الرَّائع النَّادر في ديوان الأمير قصيدته الأندلسيَّة التي نظمها بعد أنْ شاهد مسجد قرطبة في سياحته إلى الأندلس سنة 1930م وهي نيف ومائة بيتٍ يقول في آخرها:

وَلَم يَبقَ في هَذي الدِّيارِ لَنا سِوى
مَمالِكَ فِكرٍ مِن حُروفٍ وَأَسطُرِ
مَمالِكُ لا تَقوى عَلَيها كَتائِبٌ
وَلا سالِبُ تاريخُها زَحفَ عَسكَرِ

إذا حَضَرتَ ثارَ قَومي وَإنْ خَلَوا

فَإنّي مِنها في قَبيلٍ وَمَعشَرِ

وَأَشعُرُ أَنّي في بِلادي كَأَنَّما

تُخاطِبُني الأَرواحُ مِن كُلِّ مقبر

ولا أبدع ولا أجمل من وصفه لشوقي فيما رَثَاه به إذْ يقول:

جَلَّ الإلَهُ لَهُ الأُمورُ كَأَنَّما

يُلقى عَلَيها الشَمسُ مِن نَظَراتِهِ

فَترى الطَّبيعَة قَبلَ نَظرَتِه لَها

غَيرَ الطَّبيعَةِ وَهيَ في مِرْآتِهِ

وَالحُسنُ يُشرِقُ في العُيونِ بِذاتِه

وهُنا يُضيءُ بِذاتِهِ وَصِفاتِهِ

ما في الهيامِ كَوَجدِهِ وَحَنينِهِ

أَو في النَّسيبِ كَظَبيِهِ وَمَهاتِهِ

ولا نطيلُ بإيراد الأمثلة من هذا الشعر السِّريِّ؛ فالوردة الجميلة عنوانُ الوَرْد.

مقالٌ أخيرٌ

بعدَ الموتِ، ماذا أُريدُ أنْ يُقال عَنِّي؟![1]

مـا هــي الكلمات التي تُقال عن الحيِّ بعد موته إلا ترجمة أعماله في كلمات؟ فمن عرف حقيقة الحياة عرف أنَّه فيها ليهيئ لنفسـه ما يحسن أنْ يأخذه، ويعدُّ للنَّاس ما يحسـن أنْ يتركه؛ فإنَّ الأعمال أشـياء حقيقيَّة لها صـورها الموجودة وإنْ كانت لا تُرى.

وبعد الموت يقول النَّاس أقوال ضـمائرهم لا أقوال ألسـنتهم، إذْ تنقطع مادة العـداوة بذهـاب مَنْ كان عـدواً، وتَخْلُص معاني الصَّـداقة بفقد الصَّـديق، ويرتفع الحسـد بموت المحسود، وتَبطُلُ المجاملة باختفاء مَنْ يجاملونه، وتبقى الأعمـال تُنبِّه إلى قيمـة عاملها، ويَفْرُغ المـكان فيدلُّ على قَـدْر مَنْ كان فيه، وينتـزع من الزَّمن ليل الميِّت ونهاره فيذهب اسـمه عن شخصـه؛ ويبقى على أعماله.

ومن هنا كان الموت أصدق وأتمَّ ما يُعرِّفُ النَّاس بالنَّاس، وكانت الكلمة بعده عن الميِّت خالصـةً مُصـفَّاةً لا يشـوبها كذب الدُّنيا على إنسـانها، ولا كذب الإنسـان على دنياه، وهي الكلمة التي لا تُقـال إلا في النِّهاية، ومن أجل ذلك تجيء وفيها نهاية ما تُضمر النَّفس للنَّفس.

وماذا يقولون اليوم عن هذا الضَّعيف؟! وماذا تكتب الصُّحف؟!

هـذه كلمات من أقوالهـم: حجَّة العـرب، مؤيِّد الدِّين، حارسـ لغة القرآن، صـدر البيان العربيِّ، الأديـب الإمام، معجـزة الأدب، إلى آخر ما يَطَّرِد في هـذا النَّسَـق، وينطوي في هـذه الجملة، فسـيُقال هذا كله ولكـن باللَّهفة لا بالإعجاب، وللتَّاريخ لا للتقرِّيظ، ولمنفعة الأدب لا لمنفعة الأديب.

---

(1) سأله الأستاذ طاهر الطَّناحيُّ محرر (الدُّنيا) قبل وفاته بنحو شهرين: بعد الموت ماذا أريد أنْ يُقال عنك؟ فكتب إليه الرَّافعيُّ هذا الجواب الذي نشرته مجلة الرِّسالة، السَّنة الخامسة، العدد (203)، 14 ربيع الأوَّل 1356 هـ = 24 مايو 1937، ص 862، وراجع أيضاً: ساعات من حياتي لطاهر الطَّناحيِّ، ص 99.

ثم لا يكون كلاماً كالذي يُقال على الأرض يتغيَّر ويتبدَّل؛ بل كلاماً خُتِم عليه بالخاتم الأبديِّ، وكأنَّما مات قائلوه كما مات الذي قِيل فيه.

أمَّا أنا فماذا ترى روحي وهي في الغَمام وقد أصبح الشَّيء عندها لا يُسمَّى شيئاً؟!

إنَّها سترى هذه الأقوال كلها فارغةً من المعنى اللغويِّ الذي تدلُّ عليه لا تفهم منها شيئاً إلا معنى واحداً هو حركة نفس القائل، وخفقة ضميره، فشعور القلبِ المتأثِّر هو وحده اللُّغة المفهومة بين الحيِّ والميِّت.

سترى روحي أنَّ هؤلاء النَّاس جميعاً كالأشجار المنبعثة من التُّراب عاليةً فوقه وثابتةً فيه، وستبحث منهم لا عن الجذوع والأغصان والأوراق والظَّاهر والباطن؛ بل عن شيءٍ واحدٍ هو هذه الثَّمرة السَّماوية المُسَمَّاة القلب، وكل كلمةِ دعاءٍ وكلمة تَرَحُّمٍ وكلمةَ خيرٍ، ذلك هو ما تذوقه الرُّوح من حلاوة هذه الثَّمَرة.

الملاحق والفهارس

ثبتٌ بأهم الصحف والمجلات

التي نشر فيها الرافعي[1, 2]

- أبولو (1932 – 1934م): أحمد زكي أبو شادي.
- الإحسان: الجمعية الخيرية الإسلامية بحلب.
- الأخبار (1920م): أمين الرافعي، القاهرة.
- الإشاعة (1932): عبد الرحمن العيسوي، القاهرة.
- الأهرام (1879م): سليم وبشارة تقلا، القاهرة.
- البلاغ (1923م): عبدالقادر حمزة، القاهرة.
- البلاغ الأسبوعي (1926م): عبدالقادر حمزة، القاهرة.
- البيان (1897م): إبراهيم اليازجي وبشارة زلزل، القاهرة.
- البيان (1910م): عبدالرحمن البرقوقي، القاهرة.
- الثريا (1896م): إدوارد جدي.
- الجامعة (1906م): فرح أنطون، القاهرة.
- الجريدة (1907م): أحمد لطفي السيد، القاهرة.
- الجهاد (1931): محمد توفيق دياب، القاهرة.
- الجوائب (1932): حسن السندوبي، القاهرة.

---

(1) اعتمدنا في إعداد هذه القائمة على ما كتبه الأستاذ العريان في كتابه (حياة الرافعي)، والدكتور مصطفى البدري في كتابه «الإمام مصطفى صادق الرافعي»، فضلاً عما توصلنا إليه بالتنقيب في دار الكتب المصرية العامرة ومكتبة الإسكندرية وغيرهما.

(2) رأينا ترتيب الصحف والمجلات أبجدياً مع بيان اسم صاحب الامتياز ما أمكن تمييزاً لها عن غيرها.

- الجوائب المصرية (1903م): خليل مطران، القاهرة.
- الحال (1918م): حسن السيد علي الخولي، القاهرة.
- الدنيا المصورة (1929م): دار الهلال، القاهرة.
- الرسالة (1933م): أحمد حسن الزيات، القاهرة.
- الزهراء (1924م): محب الدين الخطيب، القاهرة.
- الزهور (1910م): أَنْطُون الْجُمَيِّل وأمين تقي الدين، القاهرة.
- سركيس (1905 – 1926م): سليم سركيس.
- السياسة (1922م): محمد حسين هيكل، القاهرة.
- السياسة الأسبوعية (1926م): محمد حسين، القاهرة.
- الصاعقة (1897م): أحمد فؤاد وإبراهيم حلمي، القاهرة.
- الضياء (1898م): إبراهيم اليازجي، القاهرة.
- العصور (1927م): إسماعيل مظهر، القاهرة.
- فتاة الشرق (1906م): لبيبة هاشم، القاهرة.
- الفتح (1926م): محب الدين الخطيب، القاهرة.
- الكفاح (1930): كمال الدين الطائي، بغداد.
- كل شيء والدنيا: (1925): دار الهلال، القاهرة.
- كوكب الشرق (1924م): أحمد حافظ عوض.
- لسان الحال (1877م): خليل سركيس.
- اللطائف (1886 – 1896م): شاهين مكاريوس، القاهرة.
- اللطائف المصورة (1915م): إسكندر مكاريوس، القاهرة.

- المجلة الجديدة (1930م): سلامة موسى، القاهرة.
- المساء (1930): أحمد محرم، القاهرة.
- المضمار الرياضي (1928): أحمد صادق، القاهرة.
- المعرفة (1931م – 1934م): عبدالعزيز الإسلامبولي، القاهرة.
- المقتبس (1906 – 1908م): محمد كرد علي.
- المقتطف (1876 – 1952م): يعقوب صروف وفارس نمر، القاهرة.
- المقطم (1889م): يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس.
- المكشوف: فؤاد حبيش سنة 1935م.
- المنار (1898م): محمد رشيد رضا، القاهرة.
- المنبر (1918): محمد الههياوي، القاهرة.
- منبر الشرق (1921 – 1956م): على الغاياتي، القاهرة.
- منيرفا (1923م): ماري يني، بيروت.
- المؤيد (1889م): علي يوسف، القاهرة.
- الهداية الإسلامية (1928م): محمد الخضر حسين، القاهرة.
- الهلال (1892م): جورجي زيدان، القاهرة.

دراسات حول الرافعي وأدبه[1]

أولاً: الدراسات (مرتبة هجائيّاً)

- الاتجاه القصصي عن الرافعي: الدكتور عثمان عبدالرحمن عثمان، طبعة خاصة بالمؤلف، دون تاريخ.
- الأدب الأبيض بين الرافعي وطه حسين: محمود طرشونة، مطبعة تونس- قرطاج، الطبعة الثالثة 1985م.
- الآراء النقدية عند الرافعي بين النظرية والتطبيق: علي بختي، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، 2014م.
- أسرار النظام اللغوي عند مصطفى صادق الرافعي: الدكتور حامد محمد أمين شعبان، عالم الكتب- القاهرة، 1979 م.
- الإسلام في أدب الرافعي: الدكتور عباس بيومي عجلان، دار لوران- الإسكندرية، 1982م.
- إعجاز القرآن الكريم في فكر الرافعي: محمود سعد، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية، 1991م.
- أغاريد الرافعي: الدكتور مصطفى نعمان البدري، دار الحرية للطباعة- بغداد، 1980م.
- الإمام مصطفى صادق الرافعي: الدكتور مصطفى نعمان البدري، دار البصري- بغداد، 1387 هـ = 1968 م.
- إيوان الألمعي.. شرح ديوان مصطفى صادق الرافعي: أسامة محمد السيد، مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت، 1993م.

(1) يُراجع: الرافعي في الكتب والدراسات للصديق أيمن أحمد ذو الغنى، مجلة الأدب الإسلامي (مرجع سابق). وما كتبه الصديق أحمد موسى في موقع الألوكة الإلكتروني.

- بدائع الحكم من وحي القلم: حسن السماحي سويدان، ضمن سلسلة كتب قيمة، العدد (46)، دار القلم، الدار الشامية- دمشق، 2001م.
- بلاغة القرآن في أدب الرافعي: الدكتور فتحي عبدالقادر فريد، دار المنار- القاهرة، 1985م.
- البيان ودلالاته عند مصطفى صادق الرافعي: صلاح الدين محمد حسين، مطبوعات جامعة القاهرة.
- التناص القرآني في شعر مصطفى صادق الرافعي: شاملي، نصر الله، زارع نجف أبادي، ساجد، عمراني ساردو، أمير، مجلة دراسات الأدب المعاصر – إيران، صيف 1391 هـ، العدد (14).
- الجانب الاجتماعي في أدب المفكر الإسلامي مصطفى صادق الرافعي: الدكتور عبدالستار السطوحي، دار الاعتصام- القاهرة.
- الجانب الإسلامي في أدب الرافعي: الدكتور عبدالستار السطوحي، دار الفكر- لبنان، 1391 هـ.
- الحكيم القرآني مصطفى صادق الرافعي: قصائد وأشعار في إمام الأدب العربي ومجدد الفكر الإسلامي: محمود الطاهر الصافي، مكتبة الآداب – القاهرة، 2005م.
- حياة الرافعي: محمد سعيد العريان، الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة، الطبعة الثانية – 2004م، ضمن سلسلة ذاكرة الكتابة، العدد (54).
- خواطر الرافعي في تفسير القرآن وإعجازه (جمع وتحقيق): الدكتور إبراهيم الكوفحي، الشركة الجديدة للطباعة والتجليد، الأردن- عمّان، 2006م.

- دراسة في أدب مصطفى صادق الرافعي: نعمات أحمد فؤاد، دار الفكر العربي- مصر، الطبعة الثانية، 1963 م.
- الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد: الدكتور مصطفى نعمان البدري، مطبعة دار البصري- بغداد.
- الرافعي في وحي القلم: محمد بن نوري بكار، دار الوعي بحلب– سوريا.
- الرافعي وإعجاز القرآن الكريم: الدكتور مصطفى الشكعة- القاهرة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سلسلة دراسات إسلامية، العدد (98)، 1424 = 2003م.
- الرافعي والانتصار للعربية: محمد قنديل أبو المكارم، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية بطنطا- مصر، الطبعة الأولى، 1410هـ = 1990م.
- الرافعي وطه حسين: محمد عبدالقادر العمادي، دار الفكر الحديث، 1958 م.
- الرافعيُّ وميٌّ: عبدالسلام هاشم حافظ، الدار القومية - القاهرة، 1383 هـ = 1964 م.
- رسائل الرافعي: محمود أبورية، الدار العمرية، دون تاريخ.
- السَّفُّود الأول للرافعي في ميزان النقد البلاغي: خالد السيد علي، دار الولاء للتراث– القاهرة، 2004م.
- شعر مصطفى صادق الرافعي بين التقليد والتجديد: الدكتور محمد بن علي، دار المعالم الثقافية- السعودية، 1998 م.
- الفكر الاجتماعي في كتابات الرافعي: علي عبده مصطفى الشيخ، طبعة خاصة بالمؤلف- مصر، 2001م.

- الفكر التربوي عند مصطفى صادق الرافعي: عطا الفرسوني، طبعة خاصة بالمؤلف، الأردن، الطبعة الأولى 1428 هـ = 2007م.
- قراءة جمالية في أوراق الورد للرافعي: الدكتورة سهام راشد عثمان، مجلة كلية الآداب بقنا- مصر، العدد (16) 2006م.
- الكاتب الإسلامي الكبير مصطفى صادق الرافعي نظرات في مواقفه تحت راية القرآن: عبدالرحمن الزياني، شركة صوت مكناس- المغرب، 1995م.
- المختار من أدب الرافعي: اختيار وتقديم صدرالدين شرف الدين، دار الكاتب العربي- بيروت.
- مدخل لدراسة مصطفى صادق الرافعي: الدكتور عبدالقادر القط، ضمن كتاب جامع لكتب الرافعي (رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد)، الشركة العالمية للنشر (لونجمان)- مصر، 1994 م.
- مصطفى صادق الرافعي أديباً إسلاميّاً، الدكتور إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة- القاهرة، الطبعة الأولى، 1411 هـ = 1990م.
- مصطفى صادق الرافعي الناقد والموقف: إبراهيم الكوفحي، دار البشير بعمَّان ومؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الأولى 1418 هـ = 1997 م.
- مصطفى صادق الرافعي حياته وأدبه ومعاركه الأدبية ومنطلقاته: عبداللطيف سعيد، جامعة أفريقيا العالمية، مركز البحوث والدراسات الأفريقية- السودان، 2009م.
- مصطفى صادق الرافعي حياته وأدبه: حسنين حسن مخلوف، كتاب الهلال (20)، دار الهلال- مصر، 1396 هـ.

- مصطفى صادق الرافعي رائد الرمزية العربية المطلة على السوريالية: الدكتور مصـطفى الجـوزو، دار الأندلس للطباعة والنشـر والتوزيع- بيروت، الطبعة الأولى 1405 هـ = 1985 م.
- مصطفى صادق الرافعي شاعراً وناثراً بين الكلاسيكية والرومنطيقية: مصطفى الصيد، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- تونس.
- مصـطفى صـادق الرافعـي فارس الكلمة تحـت راية القـرآن: الدكتور محمـد رجـب البيومي، دار القلم- دمشـق، سلسـلة أعلام المسـلمين، الطبعة الأولى 1417 هـ = 1997م.
- مصـطفى صـادق الرافعـي كاتبـاً عربيّـاً ومفكـراً إسـلاميّاً: الدكتور مصـطفى الشكعة، الدار المصـرية اللبنانية— مصر، الطبعة الثالثة— والطبعة الأولى 1419هـ = 1999 م.
- مصـطفى صـادق الرافعي ناقداً: الدكتـور محمود علي السـمان، دار التضامن- القاهرة، 1985م.
- مصطفى صادق الرافعي وتفسـير الخطاب القرآني: الدكتور إبراهيم الكوفحي، منشـور ضـمن أعمال المؤتمر الدولي (الخطاب العربي عند منعطف القرن الواحد والعشـرين)، الذي عقد في كلية الآداب بجامعة طنطا، في الفترة من 2-3 مايو 2006 .
- مصـطفى صادق الرافعي: الدكتور كمال نشـأت، سلسلة أعلام العرب (81)، المؤسسـة المصرية العامة للتأليف والنشـر ودار الكاتب العربي للطباعة والنشر- القاهرة، نوفمبر 1968 م.
- مصطفى صـادق الرافعي: فؤاد حمدو الدقس، مراجعة أحمد عبدالله فرهود، ضـمن سلسـلة شخصـيات أدبيـة، دار القلـم العربي بحلب- سوريا، الطبعة الأولى 1418 هـ = 1997م.

- مصطفى صادق الرافعي: محمود محمد سالم، دار الفكر العربي– القاهرة، 1965م، سلسلة (شخصيات لها تاريخ).
- مع الرافعي الكاتب: الدكتور عمر الدسوقي، مطبعة جامعة القاهرة، 1388 هـ = 1969 م.
- معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين: بحث موضوعي مفصل، الدكتور إبراهيم عوض، مطبعة الفجر الجديد– القاهرة، 1987م.
- مفهوم الحب عند الرافعي: ياسر عبدالرحيم، مجلة التراث العربي– سوريا، جمادى الآخرة 1422 هـ، العدد (83–84).
- مفهوم الشعر عن الرافعي والعقاد (دراسة تحليلية): صدقي، حامد، فشي، مجلة إضاءات نقدية في الأدبين العربي والفارسي– إيران، صيف 1392 هـ، السنة الثالثة، العدد (10).
- المقتبس من وحي القلم: خليل الهنداوي، مكتبة الشهباء– سوريا.
- من أدب الرافعي ومعاركه: الدكتور عباس بيومي عجلان، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية – مصر، 1989م.
- المنهج المدرسي لتعليم البنات عند مصطفى صادق الرافعي: إبراهيم محمد المتولي عطا، مؤتمر الرافعي بكلية التربية– جامعة طنطا.
- نثر الرافعي: محمد الأخضر بن مسعود، المكتبة الشرقية– الجزائر، 1387 هـ = 1968م.
- نحو أدب إسلامي معاصر: مصطفى صادق الرافعي والاتجاهات الإسلامية في أدبه: الدكتور علي عبدالحليم محمود، جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض– السعودية، 1395هـ.

ثانياً: الرسائل العلمية (مرتبة تاريخيّاً)

- نثر مصطفى صادق الرافعي (ماجستير): أمين سعيد المبروك بن مسعود، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1962م.
- مصطفى صادق الرافعي الشاعر (ماجستير)، مصطفى نعمان البدري، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، 1967م.
- مصطفى صادق الرافعي الناقد الأديب: طه عبدالرحيم عبدالبر، كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر – القاهرة، 1967م.
- الرافعي ناقداً (أثر القرآن في أدب الرافعي): حسن عبدالقادر عبدالدايم، (رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، 1969م.
- الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد، (دكتوراه)، الدكتور مصطفى نعمان البدري، جامعة القاهرة، 1974م.
- مصطفى صادق الرافعي ومكانته في الأدب العربي في القرن العشرين (دكتوراه)، أرول أي يلديز، جامعة مرمرة، تركيا، 1977م.
- مدرسة الرافعي في الأدب الحديث (دكتوراه): محمود محمد محمد لبده، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، 1978 م.
- القضايا الفنية والفكرية في أدب الرافعي (دكتوراه): أحمد جاد صالح، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، 1978 م.
- مصطفى صادق الرافعي واللغة (ماجستير): صلاح الدين عبدالرحمن، كلية اللغة العربية، بالقاهرة، جامعة الأزهر 1987م.
- الجانب الديني في أدب الرافعي (ماجستير): نجاة محمد عبدالماجد العباسي، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى1982م.

- معارك مصطفى صادق الرافعي التعليمية وأثرها في الأدب والشعر (دكتوراه): محمد عزت أحمد، كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، 1983م.
- مصطفى صادق الرافعي شاعراً (ماجستير): محمد إسماعيل عبدالحميد إسماعيل، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، 1984م.
- مصطفى صادق الرافعي: حياته وأدبه (دكتوراه)، فهد بن عبدالله الأطرم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1407 هـ = 1987م.
- الجهود البلاغية في مجال الإعجاز القرآني في العصر الحديث (ماجستير): أحمد محمد غريب، كلية الآداب جامعة سوهاج – مصر، 1409 هـ = 1989م.
- جهود الرافعي النقدية (ماجستير): إبراهيم الكوفحي، جامعة اليرموك، إربد – الأردن، سنة 1992م.
- المرأة في أدب الرافعي (ماجستير): مها عبدالستار السطوحي، كلية الألسن، جامعة عين شمس، 1992م.
- الجانب الديني في نثر الرافعي (ماجستير): سعاد صالح عبدالمطلب، كلية الألسن، جامعة عين شمس، 1993م.
- الصورة البيانية عند مصطفى صادق الرافعي (دكتوراه): نور الهدى محمد عامر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، جامعة الأزهر 1996م.
- رباعية الرافعي في الحب والجمال.. دراسة أسلوبية (دكتوراه): مصطفى محمد أبو طاحون، كلية الآداب بجامعة المنوفية، 1999م.

- كتابات مصطفى صادق الرافعي وأثرها في الدعوة (دكتوراه): المنيب محمد عبداللطيف إبراهيم، كلية أصول الدين والدعوة بالقاهرة، جامعة الأزهر، 1999م.
- بناء الجملة عند مصطفى صادق الرافعي من خلال كتابه أوراق الورد (ماجستير): عادل بانعمة، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية عام 1421هـ = 2000م.
- الرؤية الجمالية عند الرافعي (ماجستير): ياسر عبدالرحيم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة حلب، 2000م.
- فن الرسائل عند مصطفى صادق الرافعي.. دراسة تحليلية فنية (دكتوراه): خليفة محمد إبراهيم، كلية اللغة العربية، بالقاهرة، جامعة الأزهر 2002م.
- تركيب الجملة في نثر الأديب مصطفى صادق الرافعي (ماجستير): أحمد محمد حسين أحمد، كلية الآداب جامعة المنيا، 1424 هـ = 2003م.
- الصورة الفنية في أدب الرافعي النثري (دكتوراه): أحمد عبدالعزيز عواد، كلية الآداب، جامعة المستنصرية بالعراق، 2007م.
- النثر الفني بين مصطفى صادق الرافعي ومحمود محمد شاكر، دراسة موازنة (ماجستير): آمال محمد السيد عبدالغيث، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، سوهاج، جامعة الأزهر 2008م .
- أساليب التوكيد في أدب الرافعي دراسة نحوية دلالية (ماجستير): فاطمة حسين السيد حسين، كلية دار العلوم- جامعة القاهرة، 1430 هـ = 2009م.
- التراكيب البلاغية في الجزء الثالث من كتاب (وحى القلم) لمصطفى صادق الرافعي (ماجستير): شيماء محمد عبدالرحيم، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، بالقاهرة، جامعة الأزهر، 2010م.

- الجمال في أدب الرافعي (ماجستير): محمود شاكر خيون، كلية الآداب بالجامعة العراقية، 2012م.
- المضامين التربوية في كتابات مصطفى صادق الرافعي.. دراسة تحليلية ناقدة (ماجستير): عبدالرحمن أحمد عبدالفتاح أحمد، كلية التربية بجامعة الأزهر بالقاهرة، 1433 هـ = 2012م.
- شعرية الكتابة النثرية عند مصطفى صادق الرافعي (دكتوراه): سعيد فرغلي حامد علي، كلية الآداب جامعة أسيوط، 1434 هـ = 2013م.
- الواقعية في شعر الرافعي.. دراسة تحليلية (ماجستير): نهال عبدالناصر عزيز الدين بسيوني، كلية الآداب جامعة كفر الشيخ، 1435 هـ = 2014م.
- النقد الأدبي عند الرافعي (ماجستير): أحمد الحميد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة دمشق.

ثالثاً: مراجع عامَّة

- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: الدكتور عبدالقادر القط، مكتبة الشباب– القاهرة، 1980م.
- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: الدكتور محمد محمد حسين، مكتبة ابن تيمية– القاهرة، الطبعة الأولى، 1429 هـ= 2008م.
- الأدب الحديث تاريخ ودراسات: محمد بن سعد بن حسين، مطابع الفرزدق التجارية– الرياض، الطبعة الخامسة 1411هـ – 1991م.
- الأدب الحديث تاريخ ودراسات، الدكتور محمد بن سعد بن حسين، مطابع الفرزدق التجارية– الرياض، الطبعة الخامسة 1411هـ – 1991م.

- الأدب العربي المعاصر في مصر: الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف- مصر، الطبعة الخامسة.
- الأدباء الخمس: عبدالحميد إسماعيل، المطبعة المصرية، 1940م.
- أدباء معاصرون: إسماعيل أحمد أدهم، المؤلفات الكاملة، الجزء الأول، تحرير وتقديم: أحمد إبراهيم الهواري، دار المعارف- القاهرة، الطبعة الثانية 1985م.
- الأسلوب؛ دراسة لغوية إحصائية: سعد مصلوح، دار البحوث العلمية- بيروت، 1980م.
- الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشرة الهجرية: زكي محمد مجاهد، دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة الثانية 1994م.
- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الخامسة عشر- مايو 2002م.
- البلاغة والأسلوبية: الدكتور محمد عبدالمطلب، ضمن سلسلة أدبيات، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، 1994م.
- تاريخ الشعر العربي الحديث: أحمد قبش، دار الجيل- بيروت، 1971م.
- تراجم الأدباء العرب: خلدون الوهابي، نشره ووقف على تصحيحه إبراهيم العلوي، وزارة المعارف العراقية- بغداد، 1382 هـ = 1962م.
- تراجم علماء طرابلس وأدبائها: عبدالله حبيب نوفل، مكتبة السائح- لبنان، 1984م.
- تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، دار المعارف- مصر، الطبعة الأولى.
- الحوار الأدبي حول الشعر: الدكتور محمد أبو الأنوار، مكتبة الآداب-

مصر، الطبعة الأولى، 1428 هـ = 2007م.

- الخالدون من أعلام الفكر: أحمد الشنواني، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع– القاهرة، الطبعة الأولى 2007م.
- شخصيات أدبية: الدكتور أحمد هيكل، دار غريب للطباعة والنشر– مصر.
- صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر، أنور الجندي، مكتبة الأنجلو- مصر، الطبعة الأولى 1979م.
- فصول في الثقافة: الدكتور فاروق صالح باسلامة، مطابع شركة دار العلم- السعودية، الطبعة الأولى 1406هـ1986-م.
- فن المقال في الأدب المصري الحديث: الدكتور أحمد حنطور، مكتبة الآداب- مصر، الطبعة الأولى، 1429هـ = 2008م.
- مدرسة البيان في النثر الحديث: الدكتور حلمي القاعود، دار الاعتصام- القاهرة.
- المساجلات والمعارك الأدبية في مجال الفكر والتاريخ والحضارة، مكتبة الآداب- القاهرة، الطبعة الثانية، 1429 هـ = 2008م.
- مصادر الدراسة الأدبية: يوسف أسعد داغر، منشورات الجامعة اللبنانية 1961م.
- مطالعات وذكريات: العوضي الوكيل، المكتبة الثقافية، العدد (284)، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، 1972م.
- مع الأدباء: يوسف الشاروني، المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة.
- المعارك الأدبية في مصر منذ 1914- 1939م، مكتبة الأنجلو- مصر، 1983م.

- معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية– بيروت، 1424 هـ = 2002م.
- معجم المطبوعات العربية والمعربة: يوسف سركيس، مطبعة سركيس– مصر، 1346 هـ - 1928م.
- معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة. معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي– بيروت.
- مي زيادة وعشاقها الأدباء: الدكتور أحمد الطويلي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 2003م.
- النص الأدبي، دراسات أسلوبية إحصائية: الدكتور سعد عبدالعزيز مصلوح، عالم الكتب– القاهرة، الطبعة الثالثة 1422هـ- 2002م.
- هؤلاء عرفتهم: عباس خضر، سلسلة اقرأ، العدد 485، مارس 1983م، دار المعارف– مصر.
- هؤلاء ورحلة الذكريات: مأمون غريب، مكتبة مصر- القاهرة.

الفعاليات العلمية

- مؤتمر كلية التربية بجامعة طنطا بمصر في الفترة من 1986/12/28 حتى 1987/1/1م.
- الملتقى الأدبي الأول لرابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة عن الأديب مصطفى صادق الرافعي في الفترة من 27–28 ذو الحجة 1424 هـ = 18–19 فبراير 2004م.
- احتفالية ذكرى مصطفى صادق الرافعي، ساقية الصاوي، القاهرة، مايو 2009م.


جمعية الرافعي للثقافة والأدب
ترحب برجال الأدب والعلم
وفي ذكرى أديب العروبة



مصطفى صادق الرافعي

من موظفي الحكومه الخديويه

Moustapha Sadek el-Rafy

Employé au Gouvernement Egyptien

جمعية

يقظة المرأة الشامية

دمشق — سوريا

دمشق في [illegible] سنة ١٩٢٨

حضرة الاستاذ العلامة الفاضل

تأسست في دمشق جمعية نسائية باسم يقظة المرأة الشامية يتضح لكم الغرض الذي ترمي اليه من اطلاعكم على النشرة التي نقدمها لحضرتكم طي هذه الرسالة ولما كنتم من نصراء المرأة والساعين في سبيل نهضتها وممن عرفوا بسعة العلم والاطلاع فقد قررت الجمعية بجلستها المؤرخة ٢٥ / ٥ / ١٢٩٦ ان تتقدم لحضرتكم بهذا الكتاب لترجو من جنابكم ان تتفضلوا باهداء ما الفتموه من الكتب الى مكتبة الجمعية التي يؤثر بتأسيسها وانا لانخال حضرتكم الا مجيبين هذا الرجاء لما عرفناه بكم من الغيرة على انهاض المشاريع العلمية والحرص على رفع شأن المرأة وتفضلوا سيدي مع الشكر لانجاحكم بقبول احترامنا الفائق .

الرئيسة

[illegible]

حرم الامير محي الدين باشا الجزائري



فقيد الادب العربي
مصطفى صادق الرافعي

فقد الأدب العربي بوفاة «مصطفى صادق الرافعي» يوم ١٠ الجاري ، علما من أعلامه ، وكاتبا من أكبر كتابه . فقد كان داعية شديد الحماسة لاعلاء شأن العربية ، والتمسك بها وبعلومها وآدابها ، وكان الفقيد مدرسة وحده . له طابعه الخاص . يجد طلابه في انتاجه مادة غزيرة ينهلون منها . .

وكان الفقيد قد كتب في زميلتنا «الدنيا» منذ شهرين كلمة تحت عنوان : «بعد الموت ماذا أريد أن يقال عني» جاء في ختامها ما يأتي :

«وكل كلمة دعاء ، وكلمة ترحم ، وكلمة خير .

ذلك هو ما تذوقه الروح من حلاوة هذه الثمرة»

تغمد الله الفقيد برحمته ، وأدخله فسيح جنانه

الفاروق
عمر بن الخطاب

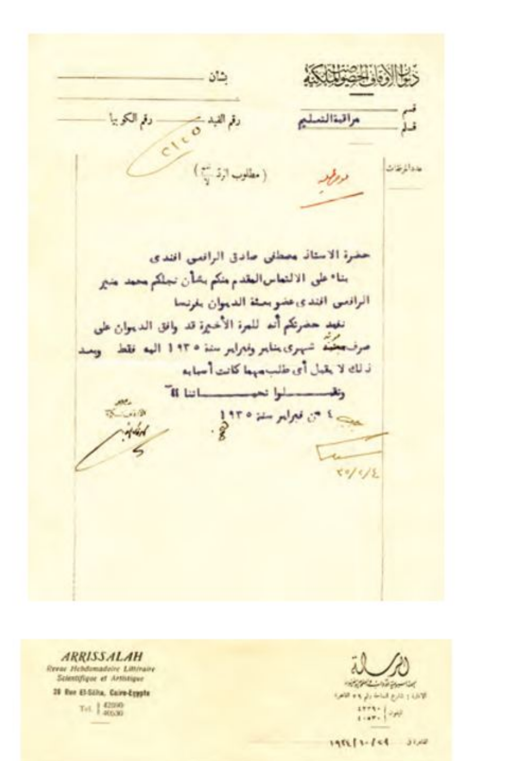
بقلم

ديب عثمان القرابي

المتخرج في دار العلوم العليا

﴿ مصدّر بمقدمة للأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي ﴾

طبع على نفقة جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطنطا



ديوان الأوقاف الخصوصية الملكية

قسم مراقبة التسليم

قلم

بشأن

رقم القيد — رقم الكوبيا

(مطلوب ارقام)

حضرة الاستاذ مصطفى صادق الرافعى افندى

بناء على الالتماس المقدم منكم بشأن نجلكم محمد منير الرافعى افندى عضو بعثة الديوان بفرنسا

نفيد حضرتكم أنه للمرة الأخيرة قد وافق الديوان على صرف مرتبه شهرى يناير وفبراير سنة ١٩٣٥ اليه فقط وبعد ذلك لا يقبل أى طلب مهما كانت أسبابه

وتفضلوا بقبول تحياتنا

٤ من فبراير سنة ١٩٣٥

٣٥/٢/٤

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

الإدارة: شارع ... رقم ٢٩ القاهرة

تليفون ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

28 Rue El-Sélha, Caire-Egypte

Tel. 42390 / 40530

القاهرة في ١٩٤٤/١٠/٢٩

أيها الأستاذ الجليل

[illegible]



144

Avoir



جمعية
يقظة المرأة الشامية
دمشق - سوريا

دمشق في ... سنة ١٩٢٩

حضرة الاستاذ العلامة الفاضل

تأسست في دمشق جمعية نسائية باسم يقظة المرأة الشامية بفضل تلك الحرص الذي [illegible] اليه
من الاطلاع على النشرة التي قدمها لحضرتكم على هذه الرسالة ولما كنتم من نصراء المرأة
والساعين في سبيل نهضتها وممن عرفوا بسعة العلم والاطلاع فقد قررت الجمعية بجلستها المؤرخة
في ../../١٩٢٩ ان تقدم لحضرتكم بهذا الكتاب لترجو من جنابكم ان تتفضلوا باهداء ما الفتموه
من الكتب الى مكتبة الجمعية التي تؤثر بتأسيسها وانا الآمال بحضرتكم [illegible] هذا الرجاء
لما عرفناه لكم من الغيرة في انهاض المشاريع العلمية والحرص على رفع شأن المرأة وتفضلوا سيدي
مع الشكر الجزيل بقبول احترامنا الفائق .

الرئيسة

حرم الأمير محي الدين باشا الجزائري

تأبين صادق الرافعي

تأليف اللجنة العامة

تألفت لجنة تأبين فقيد العروبة العظيم المرحوم السيد مصطفي صادق الرافعي رئيس فرع رابطة الشباب العربي بطنطا من حضرات السادة الاجلاء الدكتور محمد حسين هيكل بك الرئيس العام للرابطة والدكتور منصور فهمي بك والاستاذ محمد مسعود بك وميرزا مهدي رفيع مشكي بك وعبد الرحمن الرافعي بك وفضيلة السيد الميرغني الادريسي والدكتور زكي مبارك والاستاذ ابراهيم دسوقي اباظه والاستاذ محمد احمد جاد المولي بك والاستاذ سامي الدراج بك والاستاذ فؤاد صروف والاستاذ احمد حسن الزيات والاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني والدكتور ابراهيم ناجي والاستاذ الساعي بيومي والاستاذ عبد المجيد نافع المحامي والاستاذ يوسف احمد وفضيلة الشيخ ابراهيم اطفيش والاستاذ جميل الرافعي وستوالي اللجنة اجتماعها لاعداد ما يلزم لاقامة الحفلة على ان ترسل جميع القصائد في مصر والشرق بعنوان الرابطة بعابدين

مراقب الرابطة
يوسف احمد

صادق الرافعي

في ذمة الله

يرى القراء فى الصفحة الثامنة خبر وفاة الأديب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعى الذى خسر الأدب المصرى بفقده علما من أشهر أعلامه وكاتبا من أجل كتاب العربية خدمها خدمات متوالية جليلة لاشك أنها تذكرها له بعرفان الجميل وبالذكرى الطيبة

كان الفقيد الأديب مدرسة من مدارس الادب العربى يجد طلابه فى انتاجه مادة غزيرة ومنهلا عذبا ظلوا يرتشفون منه غذاء عقليا مستمرا ويرون فيه داعية شديد الحماسة لاعلاء شأن العربية وللتمسك بها وبعلومها وبآدابها طالما شهر قلمه للدفاع عنها والدعوة لها وكانت مؤلفاته الجليلية نبراسا لهؤلاء الطلاب طالما اعترف لها بالفضل العميم ومن هؤلاء المرحوم الامام الشيخ محمد عبده والمغفور له سعد زغلول باشا الذى قال عن كتابه اعجاز القرآن «كأنه تنزيل من التنزيل»

رحم الله هذا الاديب الكبير والهم آله واصدقاءه وعارفى فضله وطلاب أدبه الصبر فى فقده

المصادر والمراجع

أولا: الكُتب

الأب أنستاس ماري الكرمليُّ: حياته ومؤلفاته: كوركيس عواد، مطبعة العاني ببغداد 1386هـ – 1966م.

- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين– بيروت، الطبعة الخامسة عشرة– مايو 2002 م.
- أعجب العجب من أحوال العرب في ماضيهم المنيف وحاضرهم المخيف أو مظاهر رضا الجبار عنهم وغضب القهار عليهم، في عظيم سيرتهم الغابرة وأليم حالتهم الحاضرة: السيد عبدالحقّ حقّي الأعظميّ البغداديّ.
- أعلام الأدب في العراق الحديث: مير بصرى، دار الحكمة – لندن، الطّبعة الأولى ١٤١٥–١٩٩م.
- أقرب الموارد في فصح العربيّة والشّوارد: سعيد الخوري الشّرتونيّ، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النجفيّ، قم – إيران.
- البيان والتّبيين: أبوعثمان الجاحظ، تحقيق وشرح عبدالسّلام هارون، تقديم الدكتور عبدالحكيم راضي، سلسلة الذّخائر 85 الهيئة العامّة لقصور الثّقافة — مصر.
- تاريخ آداب العربية، ضبط وتقديم الدكتور محمد علي سلامة، دار الصّحوة، الطّبعة الأولى للنّاشر، 1429 هـ = 2008م.
- تأريخ علماء بغداد في القرن الرّابع عشر الهجريّ: يونس الشّيخ إبراهيم السّامرّائي، مطبعة وزارة الأوقاف والشّئون الدّينيّة سنة ١٤٠٢–١٩٨٢.
- تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العُشّاق: داود الأنطاكيُّ، المطبعة الأزهريّة المصريّة، الطّبعة الثّانية 1319هـ.
- الحديقة: محبُّ الدّين الخطيب، العدد الثّامن، أول سبتمبر 1930م،
- حياة الرّافعيّ: محمد سعيد العريان، المكتبة التّجاريّة الكبرى، القاهرة، الطّبعة الثّالثة 1375 هـ – 1955م.
- خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب: عبدالقادر بن عمر البغداديّ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطّبعة الرّابعة، 1418 هـ = 1997م.
- الخصائص: ابن جِنّيّ، تحقيق محمد علي النّجّار، طبعة الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
- دراسات أدبية، الدكتور ماهر شفيق فريد، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006م.
- ديوان أبي النّواس، طبع على نفقة لُطْفُ الله الزّهار، مطبعة جمعة الفنون 1301هـ.
- ديوان إسماعيل صبري (أبو أميمة) الذي حقّقه الدّكتور محمد القصّاص وآخرون، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت – لبنان.
- ديوان إسماعيل صبري باشا: صحّحه وضبطه وشرحه ورتّبه الأستاذ أحمد الزّين، لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر 1357 هـ – 1938م.
- ديوان الشّريف الرّضيّ، جمع أبي حكيم الخبريّ، تحقيق الدكتور عبدالفتاح الحلو، سلسلة التّراث 60، وزارة الإعلام العراقيّة.
- ديوان الصّبابة: شهاب الدّين ابن أبي حجلة، الباب السّابع والعشرون، نسخةٌ محفوظةٌ بدار الكُتب المصريّة تحت رقم 3/135.

- ديوان بشار بن برد: جمعه وحقَّقه وشرحه الطَّاهر ابن عاشور، طبعة وزارة الثَّقافة الجزائريَّة 2007م.
- ديوان شيخ شعراء العربيَّة أبي الطَّيب المتنبِّي: الدكتور عبدالمنعم خفاجي وآخرون، مكتبة مصر، القاهرة.
- ديوان كثير عزة: تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة ببيروت، 1391هـ - 1971م.
- ذكرى فقيد الوطن المغفور له أمين بك الرَّافعيِّ، في الذكرى الأولى لوفاته، إعداد الأستاذ محمد صادق عنبر، مطبعة النَّهضة، مصر، الطَّبعة الأولى 1347 هـ = 1928م.
- رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسَّلام هارون، مكتبة الخانجي، 1384 هـ - 1964م.
- رسائل الرَّافعيِّ: محمود أبو ريَّة، الدار العمرية، دون تاريخ.
- زهر الآداب وثمر الألباب: الحُصريِّ القيروانيِّ، تحقيق علي محمد البجاويِّ، سلسلة الذَّخائر 216، الهيئة العامَّة لقصور الثَّقافة، مصر 2013م.
- ساعات من حياتي: طاهر الطَّناحيِّ، الدَّار المصريَّة للتَّأليف والتَّرجمة، القاهرة، يونيو 1966.
- السَّحاب الأحمر ورسائل الأحزان وأوراق الورد، طبعة خاصة جمعت الكتب الثَّلاثة، تقديم أ.د عبد القادر القط، الشَّركة المصريَّة العالميَّة للنَّشر، لونجمان، الطَّبعة الأولى 1994م.
- سرِّ الفصاحة: ابن سنان الخفاجيِّ الحلبيِّ، دار الكتب العلميَّة، الطَّبعة الأولى 1402هـ=1982م.
- شرح أدب الكاتب: أبومنصور موهوب بن أحمد الجواليقيِّ، دار القدسيِّ، القاهرة، ط 1350هـ.
- شرح ديوان أبي تمام للخطيب التِّبريزيِّ 82/1، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، دار الكتاب العربيِّ بيروت، الطَّبعة الثَّانية 1414 هـ = 1994م.
- الشِّعر والشُّعراء: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدَّينوريِّ، دار الحديث، القاهرة 1423هـ.
- الشُّعراء السُّود وخصائصهم في الشِّعر العربيِّ: الدكتور عبده بدوي، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب 1988م.
- الصُّبح المُنْبي عن حيثية المتنبِّي: الشَّيخ يوسف البديعيِّ، تحقيق مصطفى السَّقا وآخرين، دار المعارف، الطَّبعة الثَّالثة.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَن عاصرهم من ذوي الشَّأن الأكبر: ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطَّبعة الثَّانية، 1408 هـ = 1988م.
- الفاروق عمر بن الخطَّاب: دياب عثمان العُرابي، نشر بالمطبعة اليُوسُفية بطنطا على نفقة جمعية الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، 1934م.
- الفهرست: ابن النديم، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتُّراث الإسلاميِّ، لندن 1430هـ - 2009م.
- الكامل في اللغة: أبوالعباس المبرِّد، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الفكر العربيِّ - القاهرة، الطَّبعة الثَّالثة 1417هـ = 1997م.
- الكتاب: سيبويه، تحقيق عبدالسَّلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطَّبعة الثَّالثة 1408 هـ - 1988م.
- كنايات الأدباء وإشارات البلغاء: القاضي أبوالعباس أحمد بن محمد الجُرْجانيِّ، تحقيق الدُّكتور محمود شاكر القطَّان، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب ٢٠٠٣م.
- اللُّزوميَّات: أبو العلاء المعرِّيِّ، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة الهلال ببيروت، تحقيق أمين عبدالعزيز

الخانجي، تقديم الأديب الأستاذ كامل كيلاني.

- لسان العرب: ابن منظور الإفريقيّ، دار صادر، بيروت، الطَّبعة الثَّالثة، 1414هـ.
- محاضرات الأُدباء ومحاورات الشُّعراء: والبلغاء للرَّاغب الأصفهانيِّ طبعة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الأولى 1420هـ.
- مسرحية مجنون ليلى: أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتَّعليم والثَّقافة، القاهرة.
- المفصَّل في صنعة الإعراب: جار الله الزَّمخشريُّ، تحقيق الدكتور علي بو ملحم، مكتبة الهلال بيروت، الطَّبعة الأولى سنة 1993م.
- ملاحظاتٌ على القانون النِّظاميُّ: سعد زغلول باشا، فبراير 1919م في مطبعة الصَّباح بالقاهرة.

ثانياً: الصحف والمجلات

- أبولُّو (مجلة)، العدد الثامن، 6 ذو الحجة 1351 هـ = 1 أبريل 1933م.
- الأهرام، العدد 14252، السَّبت 6 جمادى الثَّانية 1343 هـ = 12 يناير 1924.
- الأهرام، العدد 14680بتاريخ 27 مايو 1925م.
- البلاغ (صحيفة)، 27 ذو الحجة 1451 هـ = 23 مارس 1933م.
- البلاغ، 22 ذو القعدة، 1351 هـ = 18 مارس 1933م.
- البلاغ، 23 ذو القعدة، 1351 هـ = 19 مارس 1933م.
- البلاغ، 23 ذو القعدة، 1351 هـ = 19 مارس 1933م.
- الرِّسالة (مجلة)، السَّنة الرَّابعة، العدد 149، 20 صفر 1355 هـ = 11 مايو 1936م.
- الرِّسالة ، السَّنة الخامسة، العدد 203، 14 ربيع الأوَّل 1356 هـ = 24 مايو 1937م.
- الرِّسالة، السَّنة السَّادسة، العدد 281، 29 رمضان 1357 هـ = 21 نوفمبر 1938م.
- الرِّسالة، السَّنة العاشرة. العدد 482، بتاريخ 17 رمضان 1361 هـ = سبتمبر 1942م.
- الرِّسالة: العدد 484، السَّنة العاشرة، الاثنين 2 شوال 1361هـ = 12 أكتوبر 1942م.
- الرِّسالة ، السَّنة الرَّابعة عشرة، العدد 679، 9 شعبان 1365 هـ = 8 يوليو 1946م.
- الرِّسالة، السَّنة السَّادسة عشرة، العدد 800، 29 ذو الحجة 1367 هـ = 1 نوفمبر 1948م.
- سركيس (مجلة)، العدد الثَّاني، السَّنة الخامسة، 2 شوال 1327هـ.
- الفتح (مجلة)، أول فبراير 1930م.
- الفتح ، السَّنة الرَّابعة، العدد 186، 14 رمضان 1348 هـ = 13 فبراير 1930م.
- المقتطف (مجلة)، أغسطس 1919.
- المقتطف، سبتمبر 1919.
- المقتطف، مايو 1920.
- المقتطف، عدد مايو 1922م.
- المقتطف، المجلَّد 61، الجزء الثَّالث، 7 ذو الحجة 1340 هـ = 1 أغسطس 1922م.

- المقتطف، أغسطس 1923.
- المقتطف، العدد الثَّالث، نوفمبر 1923م.
- المقتطف، ديسمبر 1923م.
- المقتطف، عدد مارس 1924.
- المقتطف، عدد أبريل 1925.
- المقتطف، مج 76/ ج 5، 2 ذو الحجة 1348 هـ = 1 مايو 1930م.
- المقتطف، المجلَّد 77، ج2، 5 صفر 1349 هـ = 1 يوليو 1930م.
- المقتطف، المجلد 79، العدد الرابع، 21 رجب 1350هـ = 1 ديسمبر 1931م،
- المقتطف، عدد 5، ديسمبر 1936م.
- الهلال (مجلة) ، السنة الثَّالثة والثَّلاثون، الأول، 2 ربيع الأول 1343هـ = أول أكتوبر 1924م.
- الهلال، السَّنة الثَّالثة والثَّلاثون، العدد 3، 4 جمادى الأولى 1343 هـ = 1 ديسمبر 1924م.

الكاتب في سطور

وليد عبدالماجد كساب.

كاتب وإعلامي مصري، من مواليد سنة 1976م.

لـه عـدة مؤلفات في النقـد والأدب والبلاغة القرآنية والسياسـة الشـرعية وغيرها من قضايا الفكر الإنساني.

عمل برابطة الجامعات الإسلامية مديراً لإدارة التنسيق والمتابعة وسكرتيراً لمجلتها (الجامعة الإسلامية) وجميع إصداراتها الأخرى.

العربية

الكتابة في الوقت الراهن عن الرافعي وأمثاله ممن تغيوا الحفاظ على هوية الأمة أمر واجب تحتمه الظروف الراهنة التي تعيشها أمتنا، وسط المحاولات الضارية التي تستهدف بنيانها من القواعد، إذ للرافعي خصوصية كبيرة بين كتاب عصره، وهو ما وضحه تلميذه محمد سعيد العريان بقوله: «فالرافعي أديب الخاصة، كان ينشئ إنشاءه في أي فروع الأدب ليضيف ثروة جديدة إلى اللغة تعلو بها وتعز مكاناً بين اللغات».

ويأتي هذا الكتاب تتمةً للجزء الأول من مقالات الرافعي الذي سبق للمجلة العربية نشره، وحظي بإعجاب شديد، عكسه ذلك الإقبال الكبير على الكتاب في معارض الكتب السابقة.